مي زيادة

قطوف من التراجم الأدبية

وردة اليـــــــازجي

ملك حفني ناصف

عائشـــــة تيمـــــور

الكتاب: مي زيادة : قطوف من التراجم الأدبية

الكاتبة: مي زيادة

الطبعة: ٢٠١٧

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف: ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس: ٣٥٨٧٨٣٧٣

APA

http://www.apatop.com E-mail: news@apatop.com

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

زيادة ، مي

/ قطوف من التراجم الأدبية

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

الترقيم الدولي: ٣- ١٤٣ – ٤٦٠- ٩٧٥- ٩٧٩

.. ص،.. سم.

أ – العنوان ٢٢٩.   رقم الإيداع: ٢٥٤٨٥

مي زيادة

قطوف من التراجم الأدبية

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

قبل أن تقرأ

التراجم الأدبية وعاء تاريخ الأمم

يبدو الأدب العربي بتنوع فنونه من رسالة إلى مقالة إلى قصة أو مسرحية، مثل حديقة غناء توزعت على بساطها الأخضر الجميل ورود وأزهار عطرة تضفي على المكان بهجة وخيالا، من بين الفنون التي عطرت ساحة الأدب العربي: التراجم والسير.

الترجمة: فن من الفنون الأدبية التي تتناول التعريف بحياة علم من الأعلام له باع (شهرة) في مجال العلم أو الأدب والسياسة.. وذلك بذكر اسمه وكنيته ومولده ونسبه وتعلمه وعوامل نبوغه وأهم أعماله ومواقفه ثم وفاته وآثاره.

أما السيرة فهي: عبارة عن ترجمة مطولة لا تختلف عنها إلا بسبب إمعانها في الطول، مثل سيرة الرسول (ﷺ) لابن هشام.

من المعلوم أن فن التراجم والسير فن عالمي معروف في جميع ثقافات العالم. وللعرب فيه إسهام كبير فقد أغرم العرب قديما بمعرفة الأنساب وتتبع أخبار الوجهاء والعظماء والملوك. فقد نشأ عندهم بفضل الحاجة وليس بفعل التأثر بالأمم الأخرى، فتوسعت رقعة الدولة الإسلامية والنهضة العلمية والأدبية ومست جميع النواحي الفكرية، لذا كان لزاما على الأمة العربية أن تؤرخ لأمجادها

ومآثرها مما جعل الكتاب يهتمون بالسير والتراجم التي تسجل حياة أعلام الأمة وانصب اهتمامهم الأول على الدين الجديد بكل ما يحيط به من أحداث وأشخاص.

لا عجب أن تستقطب الرسالة الخاتمة اهتمام العلماء فتصدى بعضهم لتفسير القران الكريم وبعضهم لاستنباط أصول الفقه، وآخرون لرواية الحديث وبعضهم لمعرفة رواته، أما فئة من العلماء فقد عكفت على تتبع حياة الرسول (ﷺ)، وكانت أول سيرة هي سيرة عبد الملك بن هشام التوفي سنة ٢١٣هـ المسماه (بسيرة الرسول)، ثم تلتها سيرة ابن سعد المسماة بـ(الطبقات الكبرى) وفي القرن الثالث الهجري ألف احد بن الداية سيرة (أحمد بن طولون). وفي مطلع القرن الخامس الهجري صنف أبو النصر العتبي المتوفى سنة ٤٢٠هـ كتابا في سيرة السلطان محمود الغز نوي الذي نشر راية الإسلام في الهند سماه (اليميني) وفي القرن السادس الهجري وضع ابن الجوزي سير عدة عظماء مثل: عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز وأحمد بن حنبل.

فقد ألفوا عن الشعراء والأدباء والفقهاء والمفسرين والمحدثين والقضاة والنحاة والفلاسفة والأطباء. فكتب ابن قتيبة "الشعر والشعراء" ترجم فيه لنحو ٢٠٦ شعراء ممن يعرفهم جل أهل الأدب ويقع الاحتجاج بأشعارهم في النحو وغيره. وكتاب "طبقات فحول الشعراء" لابن سلام الجمحي وكتاب "الأغاني" للأصفهاني و"يتيمة الدهر" للثعالبي و"صبح الأعشى" للقلقشندي.

في هذا العصر عادت التراجم والسير القديمة تعرض من جديد في أشكال أنيقة مناسبة للعصر، حيث عمد الأدباء إلى تحليل نفسيات العظماء والأعلام بحثا عن جوانب العظمة فيها بالاستعانة بعلم النفس وعلم الاجتماع. والتزام

التسلسل التاريخي. وعرض الأخبار المتناقضة على التمحيص العلمي والمنطق. مالت اللغة إلى السهولة والوضوح ولم تعد صعبة مستغلقة. وعادت السير والتراجم القديمة تبعث من جديد في حلل جديدة وأطباق شهية محللة وفق ما توصلت إليه العلوم الحديثة لتسليط الضوء على الجوانب الخفية من حياة المترجم له. كما فعل "المازني" في كتابه "حصاد الهشيم" عندما حلل شخصية ابن الرومي والمتنبي وفق آخر نظريات علم النفس.

وردة اليازجي

أيتها السيدات والأوانس، أكاد أشعر بأني معبرة عن رأي كل منكن بتحبيذ هذه الاجتماعات النسوية والتنوية بالفائدة منها والنتيجة، لأن المرء كثيرا ما يتجرد من شخصيته الصميمة أمام من يختلف عنه بطبيعته وأحواله، وذلك ليهتم بأمور غريبة عن وقد لا تروقه دائماً.

وفي هذا التجرد من الشخصية لاستيعاب ما هو غريب عنا غيرية ممدوحة توسع النفس ويهيئا للإلمام بجزء أكبر من الحياة، ولكن من طبيعة الإنسان – فرداً كان، أم مجموعاً، أم جنساً – أن يرجع إلى نفسه حيناً بعد حين، فيتعهدها بالسكوت والتأمل، أو يتحدث عنها بأسلوب من الأساليب، أو هو يصغي إلى المتحدثين عن نفوسهن، أو عن نفوس الآخرين بما في وجدانه من الخوالج الواضحة أو المبهمة.

ولما كنا في مثل هذا الاجتماع عاكفات على شؤونها النسوية دون رقيب أو محاسب تيسر لنفوسنا أن تصفو من الشوائب فتستسلم لما يجوز أن نسميه (مغناطيس الخير). وما هو إلا ذلك الفيض الذي يغمر كل جمهور التأم لغرض نبيل. فيدفق في كل قلب وينعش منه القوي، ويحمله على تقدير ممكناته وتقدير الحياة. فيعود القلب جذلاً كأنه وجد نفسه فهزته عوامل العطف والصلاح والنشاط وحب السعي لغاية نافعة.

وإني لشاكرة لهذه الجمعية الكريمة دعوتها، ولكنت أشكرها الشكر ذاته لو هي دعتني أصغي إلى إحداكن بدلا من التحدث إليكن. فإن كل امرأة مخلصة

يسمع الشرق صوتها في هذه الأيام إنما تترجم عن بعض ما يخامر جميع الشرقيات.

ويزيد في سروري أن يضم هذا الاجتماع طائفتين من الطوائف التي تعلق عليها البلاد أعز آمالها – أعني طائفة المعلمات وطائفة المتعلمات.

تسأل يوماً لورد بايرن الذي احتفل أخيراً بيوبيله المئوي: "ما هو الشعر؟". ثم أجاب: "هو الشعور بعالم مضى وعالم مقبل".

وهذه الكلمة من خير ما يعرف به طور التربية والتعليم. أي أن المنحنى على النفوس الفتية يعالج إنماءها وصقلها لابد له أن يسبر غور الماضي ليكون على بصيرة مما يمكنه أن يعد للمستقبل من الشخصات الصالحة.

هي هذه الفكرة – وقد علمت أن هذه الاجتماع سيضم الناظرات والمعلمات والطالبات من مدارس الحكومة . التي ساقتني إلى الكلام عن وردة اليازجي، وهي من أشهر النساء اللائي عرفهن تاريخ الآداب العربية ومن أذكاهن وأفضلهن.

(١)

لمحة في حياتها

يخيل أن آلهة اليقظة والنشاط شاءت أن تتفقد الشرق حوالي منتصف القرن الماضي، فنشأت فئة من فضليات النساء على مقربة من الرجال الذين قدر لهم أن يكونوا عاملين في صرح الشرق الجديد. فولدت عائشة عصمت تيمور في مصر سنة ١٩٤٠، وولدت في تلك الأعوام بسوريا وردة الترك، ووردة كبا، وليبة صدقة وغيرهن. وولدت زينب فواز صاحبة (الرسائل الزينبية) و(الدر المنثور) في صيدا سنة ١٨٦٠. وولدت في العام نفسه فاطمة علية ابنة المؤرخ التركي جودت باشا. وهي رغم كونها كتبت بالتركية فإن لها الحق أن تذكر بين أدبيات العرب لأنها عرفت لغتهن، وانتشر صيتها في أقطارهن، وعاشت طويلاً في بلادهن التي جاءتها طفلة في عامها الثالث يوم تولي والدها ولاية حلب بعد أن كان وزيراً للمالية في الدولة العثمانية. ويوم أن ولدت زينب فواز وفاطمة علية . أي سنة ١٨٦٠، كانت وردة اليازجي في الثانية والعشرين من عمرها. لأنها ولدت سنة ١٨٣٨- هي ومريانا مراش الشاعرة الحلبية في عام واحد.

تذكرن، أيتها السيدات، أن ذوي المواهب البارزة ينقسمون إلى فريقين أولين ينقسم كل منهما بعدئذ إلى أجزاء صغيرة شتى: وهما: أولاً: الفريق الذي يشذ عن محيطه ويسبق جيله بإدراكه وفطنته وابتكاره. وثانياً. الفريق الذي هو ابن محيطه وابن يومه تتخلص عنده مدركات جماعته وعواطفها فيحدثها عنها بلهجة بليغة قريبة المنال.

والفريق الأول يكثر مناهضوه في الغالب فيظل منفياً في قومه، غريباً في جماعته. إن هم أنالوه مرة ما لا يضنون به وبأكثر منه على من هو دونه، فإنهم يكفرون عن ذلك بتعذيبه بعدئذ ووضع العراقيل في سبيله ما استطاعوا. ولا بنفك الحسد والعجز يهاجمانه بالدسائس والوشيات والتحريف والتحامل والانتقاص، غير مغتفرين له ما تفرد به، قلائل هم أبناء هذا الفريق، لكنهم رسل الإلهام، بل هم المستقبل الذي يحيا في الحاضر، ومنهم تنبثق الأفكار الكبيرة والآراء النيرة، وأياديهم هي التي تنثر أنفس البذور، وأصواتهم هي التي ترسل أجرأ الصيحات، فلا يثمر جهادهم إلا بعد وفاتهم يوم يشب النشء الجديد متوقداً يقظاً فيتلقف مبادئهم ويحققها شيئاً فشيئاً. وإني لأضرب لكن مثلا بواحد من هؤلاء، وهو قاسم أمين الذي اضطهد في سبيل دعوته إلى الإصلاح الاجتماعي.

وتولى ربع قرن تقريباً. فإذا بآراء قاسم أحيا اليوم منها في حياته . لقد أنضجها الدهر على مهل. فتناولتها بمعانيها الأصلية القومية، فئة من صفوة رجال الأمة ونسائها.

أما الفريق الآخر فيتكلم بلغة أبناء جيله، ويعبر عن حاجتهم، ويشعر بما به يشعرون. فيكونون أقرب إلى فهمه وأبعد عن مناهضته، لأنه ثمرة هذا الوسط، نشأ عليما كان ينبغي أن ينشأ، وأظهر من شخصيته مثالاً كريماً وجاء بأحسن ما ينتظر منه. وكأن أهل هذا الفريق هم الذين يغذون الجمهور بما يناسبه لينمو، ويقودونه خطوة خطوة نحو مستقبل يصير عنده أهلاً ليدرك ما يريده أهل الفريق الأول – جماعة الشاذين والخياليين والنظريين كما يسميهم (العمليون)!

من أهل الفريق الثاني كانت وردة اليازجي. نشأت في أسرة يقوم على رأسها ذلك الأستاذ الكبير والدها الشيخ ناصيف الذي كان في طليعة العاملين لإيقاظ

الشرق الأدني من غفوته. وقد اقتفي أثره في الفضل ولداه العالم اللغوي الشيخ إبراهيم، والأديب وتوقد جنانها جديرة بأن تكون ابنة هذا الوسط بالمعرفة والاجتهاد كما هي ابنته بالدم والقربي.

ولدت في قرية كفر شيما من ساحل لبنان. وانتقلت مع عائلتها طفلة إلى بيروت، حيث تعلمت في مدارس الأمريكان الصغرى[١] وتلقت على سيدة يهودية متنصرة مبادئ اللغة الفرنسية. ثم عني بها والدها فدرسها أصول اللغة في كتبه، وتوسم فيها استعداداً للشعر، فمرنها عليه بأن كان يراسلها نظما عند تغيبه عن المدينة، ويعهد إليها في الرد على بعض مراسليه من الشعراء.

فقرضت الشعر في الثالثة عشرة من عمرها وتعاطت التدريس مدة في إحدى المدارس الأهلية. وكانت في بيت والديها تساعد على الاعتناء بتربية إخوانها وإخوتها الاثنى عشر وهي رابعتهم. وظلت بعد زواجها ابنة وسطها وابنة يومها، شرقية تلبس الطربوش، وتأترز عند الخروج من البيت، وتشرب القهوة التركية على وقع نقير الماء المعطر في قلب الشيشة الفارسية، وتنتسب لأسرة أبيها على الطريق العربية.

ولا علم لنا بتاريخ حياتها الفردية، وهل هي كانت بها سعيدة أم غير سعيدة. ولا أثر لتلك الحياة الخاصة في شعرها الذي لا يرسم إلا الخطوط الظاهرة، ولا يتكلم إلا عن الحوادث المألوفة من زواج وولادة وموت. وإذا استجوب صورة ها من صنع شقيقها الشيخ إبراهيم وهي في سن الخمسين، أشعر بوضوح أنها كانت في طبيعتها أغني منها في شعرها. ففي هذه الصورة الجاذبة

[١] لم تكن (المدارس) أبنية في تلك الأيام على ما قيل لي. وإنما كان يجتمع التلاميذ والتلميذات تحت شجرة سندباد في الغالب فيتلقون دروسهم هناك.

ذات العينين العميقين معان وأغوار، لم تبد في قصائدها. وأرى في الشفتين المطبقتين بلطف وإحكام مصداقاً لما قيل لي انها كانت عليه من قوة الإرادة والعزم والتروي والتبصر[١]. حتى إذا شاءت أن تتكلم كانت من فصاحة النطق وبراعة الحديث بحيث يصمت شقيقها الشيخ إبراهيم تهيباً في حضرتها، فيكون لها الحديث ويكونه الإصغاء. قد يرى الأشرار في هذا مجالاً جديداً للطعن على المرأة وأن أخاها كان يسكت لأنه رجل. ولكن لا ننسى أن هذا رأي الأشرار. وأننا من الصالحين الذين يكتشفون الفضل في معدته.

وكان زوجها من أهل العلم كذلك فشلت تنظم بعد الزواج واستخرجت من منظوماتها ديوان (حديقة الورد) الذي طبع أول مرة في بيروت سنة ١٨٦٧، أي بعد زواجها بعام واحد.

وأعيد طبعه بعد عشرين سنة. ثم طبع مرة ثالثة سنة١٩١٤ في مطبعة هندية بمصر. وكانت تضيف إلى كل طبعة جديدة خير ما نظمته في تلك الفترة حتى استقرت الطبعة الثالثة على نحو مائة صفحة من القطع الكبير. وهي هذا الكتاب الذي ترين، أيتها السيدات. وإني لأرجو السيدة نور الهدي[٢]، ألا تعاقبني هذه المرة لأن كتابي ممزق. إني شديدة الحرص على كتبي عادة. وما أصبحت (حديقة الورد) على هذه الحالة المهشمة إلا لأني أكثر من معالجتها

---

[١] حبيبتي بعد المحاضرة سيدة قالت: إنها تمت إلى أسرة الشاعرة بأواصر النسب وتجمعها بها الصداقة الشخصية، ثم أيدت ما ذكرته عن أخلاق السيدة وردت بقولها إنهم في عائلتها كانوا يستشيرونها في جميع الأمور، وقد أطلقوا عليها اسم (الشيخ محمود)، فما اختلفوا في شيء أو كانوا عند البت في شأن إلا وقالوا: (هاتوا الشيخ محمود أين الشيخ محمود يفض المشكل)؟

[٢] السيدة نور الهدى من خيرة المصريات النابهات هي اليوم ناظرة مدرسة المعلمات بشبرا، وكانت يومئذ ناظرة مدرسة المعلمات الأميرية ببولاق وكانت في كرسي الرياسة. وقد مهدت للمحاضرة بخطبة جميلة ذكرت فيها السيدة وردة والأسرة اليازجية أجمل ذكرى، وشكرت هذه الفرصة التي أتيحت للكلام عنها.

وتهذيبها في هذا الأسبوع إرضاء لكن يا سيداتي وأحرجني الوقت فلم يسمح لي بتجليد الكتاب. وكانت الشاعرة قد انتقلت بعد وفاة زوجها سنة١٨٩٩ إلى الإسكندرية فصرفت فيها بقية حياتها مع ولدها د. سليم شمعون من خيرة أطباء الثغر. ولها ابنة تدعي لبيبة يظهر أنها نشرت بعض آرائها في الصحف، ولكني لم أطلع على شيء من تلك الكتابات. وتوفيت الشاعرة في أوائل هذه السنة وهي في مطلع عامها السابع والثمانين. فذوى بها الغصن الأخير من الدوحة اليازجية الأثيلة.

(٢)

ديوان حديقة الورد

يقول السيد جورج باز، نسيب الشاعرة مناصر المرأة في سوريا بل من أخلص مناصريها في العالم: إن (حديقة الورد) هو الديوان الوحيد الذي طبع ثلاث مرات لشاعر معاصر. وعلى كل فهو الأثر الواحد الباقي من آداب وردة اليازجي، ولا شك أنها اقتبست اسمه من اسمها.

كما يلوح أن اسم الورد المتواتر في كتابات الشعراء كان يذكره بلذة أدباء عائلتها ولو أنهم عنوا به رمزاً غريباً، كأنه صار يخصهم أكثر من غيرهم لاتصال شاعرتهم به. ففي ديوان أخيها خليل، المدعو (نسمات الأوراق)، أبيات شجية عن الورد. هذا مثال منها:

ألا روحوا روحي برائحة الورد ... فقد جاءنا فصل الربيع من البعد
ألا متعوني مرة من شميمه ... فيذهب عني بعض ما بي من الوجد
ولله ورد ليس يبرح ناضراً ... فلم يك مختصاً بشهر له فرد
أتوق إليه مثلما أشتاق أل[1] ... إلي ما به يروي ظماه من الورد
وأهفو لأنفاس النسيم إذا أتي ... لنا من لدنه حاملاً أرج الند

كذلك نتخيل أن ابن شقيقتها الشيخ نجيب الحداد متشبع من ذكرها عندما يترنم بذكر الورد فى ديوان"تذكار الصبا" حيث يقول فيما يقول

---

[1] أي أنه في كل شهر، ولايقصر علي (مايو) الذي يدعوه الإفرنج (شهر الورد)

لشخصك من زهر الربي لقب الورد وهيهات ما للورد حسنك في الود
تفوقينه ريحاً ولونا ومنظراً وبقياً على طول المودة والعهد
فللورد شهر واحدثم ينقضي ووردك باق لا يزول عن الخد
فسبحان من أنشاك شخصاً وقد حوى رياض جنان الخلد باسم من الورد

وقال شقيقها الشيخ إبراهيم في تقريظ ديوانها:

هذي حديقة ورد عز جانبها وحبذا روض ورد يفرج الكربا
من طافها ير فيها الدر منتظماَ والطيب منتشراً، والسكر مختلبا
كالورد نضده في روضه سحراً در الندي، أوكراح كللت حببا
أو بحر خمر بماء الورد يمتزج والجوهر الفرد فيه يملأ العببا

وهذه –كما يظهر– أبيات تقريظ للإرضاء لا للتعبير عن رأي في المجموعة.

ولقد دعيت الوردة ملكة الزهور منذ أقدم العصور وتغني بمدحها شعراء جميع الأمم. فزعم الإغريق في أساطيرهم أنها نشأت من قطرة من دم أدونيس حبيب الزهرة. أو من قطرة كوثر تناثرت من يد الآلهة يوم ولادة هذه الزهرة، ربة الجمال.

وحسبها آخرون منورة من ابتسامة إله الحب، أو متساقطة من رأس آلهة الفجر عند تسرح شعرها في الضحى.

ومهما كثرت الرموز فالوردة مازالت .كما كانت دواماً . زهرة الأحزان كما هي زهرة الأفراح. ترمز إلى الشباب والجمال والحب كما تستعمل في الزينة

والأرواح العطرية والأدواء الطيبة. وتتناسق منها الأكاليل، أكاليل الوداع، على قبور الأحباب ونعوش الراحلين كما نراها جميعة ومفرقة في حفلات الأنس واللهو والطرب.

وذلك شأنها عند وردة اليازجي.

ففي حديقتها ورود باهتة في اللطف والمجاملة، وأخرى حمراء قانية في المودة والشوق، والقسم الطامي هو ورود قاتمة.

ورود الفراق والحداد، ورود الرثاء والنحيب المبللة بدموع العيون، والمضمخة بزفرات القلوب.

(٣)

شعرها

أ - ورود المجاملة الصافية

كل ما نظمته ينقسم إلى قسمين: المدح والرثاء ففي باب المدح يدخل شعر التقريظ والترحيب والتراسل مع أدباء العصر وأديباته. فهي تستهل حديقتها بأبيات ردت بها على الشاعرة وردة ابنة نقولا الترك الشاعر.

والشطر الأول من المطلع سار في الآداب السورية مسير الأمثال وصار نعتا للسيدة وردة. وهو:

يا وردة الترك، أنى وردة العرب فبيننا قد وجدنا أقرب النسب
أعطاك والدك الفن الذي اشتهرت ألطافه بين أهل العلم والأدب

وقالت تجيب شاعرة أخرى، وردة كبا "ويظهر أن الشعر في ذلك العصر كان محظوظاً "بالوردات":

أزهار ورد قطفناها بأبصار ونشر ورد شمعناه بأفكار
ووردة أثمرت في القلب إذ غرست ولم أر وردة تأتي بأثمار
لقد سمعت في الورى قدراً،فلا عجب فالورد بين الورى سلطان أزهار

ولئلاً تؤاخذ بامتداح نفسها عن طريق غيرها فقد استدركت في الختام بقولها:

بيني وبينك في أسمائنا نسب لكن ما بيننا فرق بأقدار
والورد من بعضه النسرين يشبهه في العين، لكنه من طيبه عار

هذا أسلوب من التواضع فى الشعر العربى، ونجده كما نجد معانى المدح ذاتها مكررة تقريباً فى كل قصيدة وجهتها إلى مراسليها ومراسلى والدها من مصريين وعراقيين وسوريين.

فقد ردت على عالم من أصدقاء والدها بقولها:

سلام فاح كالورد النصيبي يساق لذلك الربع الخصيب
إلى من في الكمال له صفات كمسك فاح منه كل طيب
قصائده كضوء الشمس تجري ولكن لا تصادف من غروب

وتهدي إلى أمين بك سيد أحمد في الإسكندرية نسخة من ديوانها فتقول:

هذي حديقة ورد قد بعثت بها إلى حديقة فضل في الورى عظما
سيرتها نحو غيث طاب مورده مشفوعة بثناء أشبه النسما
يشدو بها كل بيت في مناقبه حلا بوصفك نظم الشعر فابتسما

وجواباً عن رسالة أخرى من أديب مصري:

أهلاً بخود إلينا أقبلت سحراً تزهو كبدر الدجى تحت الظلام سري
أرى عليها لآلي النظم زاهرة من بحر علم يروق السمع والبصرا
جاءت من البحر فوق البحر زائرة فليس نعجب إن أهدت لنا درراً

وقالت مرحبة بالأميرة تاج الشهابية وقد جاءت (رأي بيروت):

مالي أرى الرأس من بيروت مبتسماً الزهر ينبت فوق الروض أفواجا
وقلت ماذا اقتضي هذا السرور لها قالوا رأت في أعالي رأسها تاجا

ورحلت تلك السيدة إلى مكان يقال له (الوادي) فقالت الشاعرة:

تحية من مشوق زائد الغلل تهدي إلى تاج مجد من ذوي الدول
لطيفة الذات يهديها النسيم إلى واد له الشوق في الأحشاء كالجبل
إلي التي صار قلبي اليوم مسكنها كأنها الشمس حلت منزل الحمل

وأصغين جيداً الي هذا البيت:

يا من بها زهت الأيام قائلة لا تحسبوا أن كل الفضل للرجل

وحيت البرنسس نازلي المصرية يوم زارت لبنان كما حيت الأميرة نايلة شقيقة السلطان عبد الحميد، ومما قالته في الترحيب بها:

يا ثغر بيروت البهيج، تبسم وبحمد خالقك الكريم ترنم
اليوم زارتك المليكة فاكتست شرفاً ربوعك بالطراز المعلم
هي غصن دوحة آل عثمان الأولى شادوا فخاراً ليس بالمتهدم
قوم لهم شرف الخلافة والعلي بين الملوك من الزمان الأقدم

ومنها هذا البيت الذي أود أن أوجهه إلى كل فاضلة من أخواتي المحجوبات

خود بدت تحت اللثام، ومجدها قد لاح بين الناس غير ملثم

وجواباً لعيسى أفندي إسكندر المعلوف المؤرخ والعضو في المجتمع العلمي بدمشق:

أهــــلاً بــــأكرم غــــادة ... أهــدي بهــا المــولي الخطيــر
باتـــت تطـــارحني حـــد ... يثـــأرق كالمـــاء النميـــر
عـــذب يـــروق زلالــــه ... ورداً، ويشـــرب بالضـــمير
مـــن كـــل قافيــــة بـــدت ... كـــالزهر فـــي الـــروض المطيـــر
ولطيـــف معنـــى كالنســـيم ... جـــرى بأنفـــاس العبيـــر
خلعـــت علـــى مـــن الثنـــا ... ثوبـــاً بمرســـلها جـــدير

وقالت مقرظة تاريخ الصحافة العربية للفيكونت فيليب طرازي، وقال لي حضرته إن هذه الأبيات آخر ما نظمت:

يـا ذا الهمـام الـذي أحيـت عنايتـه ... تـاريخ كتابنـا مـن سـالف الـزمن
خلـدت ذكـر الصـحافيين فيـه كمـا ... أوليـتهم منـه مـن أعظـم المـنن
فلترو فضـلك منهم ألسن بقيت ... وليشـكرنك عظـم في التـراب فنـي

وقالت حينما انتخب دولتو سليمان أفندي البستان مبعوثا عن بيروت:

أخلق ببيروت دار العلم من قدمٍ ... أن تصـطفيك علـي الأيـام معوانـا
فـالله لمـا ارتـأي إعـلان حكمتـه ... مـا اختـار مـن شـعبه إلا سـليمانا

ومن أهم هذه المجالات ما راسلت به الشاعرة المصرية عائشة عصمت تيمور التي أثنت عليها في مقدمة ديوانها (حلية الطراز) ثم أهدت إليها نسخة منه. فعقب ذلك مساجلة لطيفة في الشعر والنثر، حيث تبارت كل من الشاعرتين في مدح صاحبتها وتنضيد القول. وقد أثبتت هذه المراسلة زينب فواز في (الدر

المنثور). أما في (حديقة الورد)، فلا نجد إلا قصائد اليازجية التيمورية. ومنها شكر على الهدية:

قد أعاد الزمان عائشة فيـ   ـها فعاشت آثار علي قديم
هام قلبي على السماع وأمسي   ذكرها لذَّتي وفيه نعيمي

وردًا علي رسالة:

يا نسمة من أرض وادي النيل   وردّت فأطفت بالسلام غليلي
نفحت بلبنان ففاح أريجها   سحرًا بأشهى من نسيم أصيل
عزَّ اللقاء على المشوق وللمنى   عندي حديث ليس بالمملول
وعلام لا أهوى علالِ وما الذي   بهواي فيك ترى يقول عذولي؟
أنت الفريدة في النساء، فكيف لا   أهوي حبيبًا بات دون مثيل؟
شوقي لمجلسك الكريم، وأنهُ   ما هاج حبُّ بثينة بجميل
علمّتني قول النسيب، وهجت بي   شوق الطروب إلى كؤوس شمول

ثم تشكر علي ما في الرسالة من ثناء شعري:

ولقد أفضتِ على منه لآلئًا   بدرُ من حلي الآداب وطب
من كل قافية كأبكار الدمي   ترنو إليّ بناظرٍ مكحول
وافت تحييني فأحيت مهجةّ   طابت بلثم المرشف المعسول
بذلت لي الودّ استمنحت   فهتفتُ يا بشرى بأكرم سول!

وفي قصيدة أخرى على كتاب (نتائج الأحوال):

فتاة زينت جيد المعالى   وردّت فأطفت بالسلام غليلي

أهـيم لهـا علـى بُعـد، ومـاذا | علـى الأقـدار لـو سـمحت بقـرب
علـى مصـر السـلام وسـاكنيها | ومـا فـي مصـر مـن مـاء وتُـرب
علـى ربـع بـه قلبـي مقـيمٌ | ومـن لـي أن أقـيم مكـان قلبـي
رأيـت نتـائج الأحـوال فيـه | ممثلـةً تلـوح بغيـر نقـب
لتيموريـة العصـر المحلـى | بمـا نسـجت يـداها كـلُّ حقـب
أديبـة معشـر أشـرق أصـولاً | وسـادت بـين أقـلام وكتـب

ولا ندري ما إذا اجتمعت الشاعرتان بعد هذه المراسلة يوم جاءت وردة اليازجي مصر سنة ١٨٩٩ قبل وفاة عائشة تيمور بثلاثة أعوام. ففي أبيات الحنين إلى مصر لهجة صادقة، رغم أن موضوع الأبيات من الموضوعات التي تتطلب المجاملة، لاسيما في ذلك العصر، حيث لم يكن الصدق غرض الشاعر، وكان يندر من الكتاب الذي يعني بأمانة التفكير والتعبير. أقول (في ذلك العصر) مع تمام العلم بأن أكثر ما يتهاداه الأدباء والشعراء في أيامنا من هذا النوع، وإن صار بعضهم أحرص على كرامة آرائهم وإحساساتهم.

ب- ورود المودة والشوق

قالت اليازجية التيمورية:

علمتني قول النسيب، وهجت بي | مـا هـاج حـبُّ بثينـةٍ بجميـلِ

إلا أني أشك في أن التيمورية وحدها هاجت عند (وردة العرب)، (ما هاج حبُّ بثينة بجميلِ). وأرجح أنها ككل قلب حساس تعلمت ذلك القول في احتياجها إليه، لأن الحب لغة طبيعية لابدَّ أن تستوفي حقّها من الوجود بصورة من الصور. وقد كتبت في المودة والشوق أبياتًا قلائل إلا أنها تستمد من عاطفة تملأ

القلب، رغم التقيُّد في التعبير عنها بالمعاني والاستعارات المألوفة. ففي معارضتها لقصيدة ابن زريق البغدادي، حيث تجد ما لا مندوحة عنه من جريان (الأدمع كغوادي السحب) و(ذوب الأضلع من الأشواق)، إذا بنا نعثر على هذا البيت البسيط الصادق، حيث نعلم أن القلب المحبّ:

ما زال يصبو إلى ربع أقام بهِ … قلبٌ لهُ ساقَهُ شوقٌ يشيّعهُ

ليس هذا البيت من أجمل أبيات وردة اليازجي، ولكنه من أصدقها. وهي وأن أخطرتنا في العنوان أن الأبيات قيلت في (صديقة) فنحن ندرك أن منها ما هو موجه إلى (صديق). وإنما أخفيت وراء برفع التأنيث في العنوان مجاراة لحكم المجتمع الذي كان يقضي على المرأة بكتمان عواطفها – حتى في الشعر. أيمكن أن يكون هذا الخطاب (لصديقة):

رحل الحبيب، وحسن صبري قد رحل … فمتى يعودُ إلى منازله الأول
وتضيء أرضٌ أظلمت من بعدهِ … وتقرُّ عيني باللقا قبل
يا غائبا والقلب سار بأثرهِ … شوقي مقيم في فؤادي كالجبل
إن كنت غبت عن العيون مهاجرًا … فجميل شخصك في فؤادي لم يزل

أما كيفية سير القلب في إثر (الغائب) وإقامة الشوق في ذلك القلب باسم (الفؤاد)، (كالجبل)، أي كيف يذهب القلب ويبقى في آن واحد وفي بيت واحد، فمن الأمور التي لا يعرف أسرارها، إلا الشعراء والعاشقون.

في رسالة فراق أخرى :

مني السلام على ديار أحبتي … كالمسك تحملهُ الصبا إذ هبت
قسمًا بذاك الربع، قلبي ما صبا … إلا أربع في رباهُ جنتي

ياحبــذا تلــك الــديار وأن تكــن ذابــت عليهــا بالصــبابة مهجتــي!

ومثلها:

مني السلام علي الذي هجر الحمي ....
الشــوق زاد مــن البعــاد تحســرًا والنــوم صــار علــي العيــون محرَّمــا
والصــبر عيــل لهجــره ولبعــده والبــدر غــاب وقطرنــا قــد أظلمــا
يــا راحــلاً أضــحي فــؤادي عنــدهُ وبقيــت مــن وجــدي أراعــي الأنجمــا
فمتــي أفــوز مــن الحبيــب بنظــرة وتقــرّ عينــي بعــدما قطــرت دمــا
طـال البعـاد علـى الكئيـب المرتجي أن يجعـــل الله اللقـــاء مقـــدما

وأخرى:

جز يا نسيم على وادي النقا سحرا وسل عن الصحب هل تلقي لهم خبرا
وحـيّهم عـن محـبٍّ لا يـزال علـي عهـد المـودَّة، طـال البعـد أم قصـرا
يـا جيـرة الحـي، هـل عـودٌ نؤملـهُ ويا ليالي الهنا، هل ترجعين تري؟ وهل
أحبابنــا، مــا أمــرّ العــيش بعــدكم يطيـــب قلـــب بـــات منفطـــرا؟
زاد الحبــي فــزار أجفــاني الكــرى ودنــا ســرورٌ كــان عــن قلبــي ســرى
أهــلاً بمــن أخــذ القلــوب وديعــة وأعادهــا معــه تخــوض الأبحــرا
إنــي ظننــت لقــاهُ وهمًــا كاذبًــا إذ كــان فــي عينــي يظــلّ مصــوَّرا
أهديتــــه درَّ الكــــلام منظمّــــا يبــدو لــدي درر الــدموع منشــرا
لا ردَّ أيــام السُّــري بعــد اللقــا مــن ردَّ أيــام اللقــا بعــد السّــري

وجميع هذه المعاني على سذاجتها هي أوّل ما يخطر للمحبّ شاعرًا كان أم فيلسوفًا أم فلاحًا أميًّا يعمل في الغيطان. لأن عاطفة الحب التي تنشر آفاقًا

فيحاء لامعة تترقرق فيها عجائب الوجود، تحوّل في الوقت نفسه الحياة إلى أبسطها بتحويلها مجموعِ الإنسانية وحصرها في شخص واحد، وعاطفة واحدة، وأمل واحد.

ولكن مر على (وردة العرب) طور الصبا والكهولة واستقرّت العواطف بحكم الأيام وبحكم الأحزان. وسكنت الإسكندرية على مقربة من ولدها، فإذا بتذكارات الشباب تعاودها منغمّة في قلبها أنغام الإيقاع والموسيقى الشعرية، فقالت في التذكار والشوق إلى لبنان:

يا رُبى لبنان، حيَّاكِ الحيا — وسقي تربك هتان الغمامْ
يا ربوعِ الأنس، يا دار الصفا، — يا جنان الخلد، يا أهنا مقام
حبذا لبنان مع غاباته — حبذا تلك الصحاري والآكام
وخرير الماء في تلك الربى — كحنينٍ من محبٍّ مستهسام
حبذا منه ربيع قد حكى — معرض الأزهار يزهو بابتسام
أنت لي يا خير أرضٍ جنّةٌ — جمعت كل سرور وسلام
حبذا أيام إنس فيك يا — وطني المحبوب زالت كالمنام
طالما هيَّج لي تذكارها — شجنًا يشعلُ في قلبي ضرام

ج- ورود الغم والحزن

هنا ننتقل إلى الورود القاتمة، ورود الموت والتأبين المنثورة على القبور. قصائد الرثاء هي النصف الأكبر من هذا الديوان. وجرت الشاعرة في هذه القصائد على عادة عصرها في تأبين العظماء والعلماء والأصدقاء وفي وضع تواريخ للوفيات وللأضرحة. فتبدأ هذه المراثي عادة بالحكَم الشائعة في فلسفة

الموت والعجز عن مصارعته وفي أنه لا يرحم أحدًا. كقولها في رثاء مارون النقاش:

الموت للناس كالجزّار للغنم   فليس يترك من طفل أو هرم

وفي رثاء الأمير أمين رسلان اللبناني:

يسقي الكبير ولا يفوت الأصغرا   فليس يترك من طفل ولا هرم
إلا كطيف الحلم في سنة الكري   كأس المنية دائرٌ بين الوري
لابد منه مقدمًا ومؤخرًا   ما هذه الدنيا بدار إقامة
إلا أتاه بعلةٍ فتكسرا   كلّ إلي هذا الطريق مسافرٌ
هذا أمير المجد بات موسَّدا   الموت لا يبقي صحيحًا سالمًا
هذا هو السيف الصقيل أصابه   بضريحه المبرور محلول العرى
يا من تيتمَّت البلاد لفقده   سيف من القدر الذي قد قدرا
كانت بإمداد الأمين أمينة   وتوشحت ثوب البلاد الأغبرا

وفي رثاء السيدة كاتبة بسترس:

داعي المنيَّة في البرية قد دعا   لينبّه الغرقان في سنة الكري
سكر الجميع بحب ذي الدنيا فما   فاق امرؤٌ منهم ولا أحد صحا
في كل يوم قام ميتٌ منذرٌ   يدعو، وما من سامع ذاك الدعا

وهذا البيت الجميل في بساطته ومتانته:

يشقي ويبني المرء طول حياته   والموت يأتي هادمًا ما قد بني

والغريب أنها تجد سبيلاً إلي تفسير الموت علي ذلك النحو من (الحكمة) عند وفاة طفل لها تقول إنه كان في غاية الذكاء:

زوّد الـــنفس قبـــل شـــدّ الرحـــال إنَّ هـــذي الحيـــاة طيـــف خيـــال
وأصـــحب إلتقـــي أمامـــك مصـــبا حًـــا لتجلـــو ظـــلام تلـــك الليـــالي

وبعد عشرة أسطر بهذه اللهجة تخاطب الطفل قائلة:

يــا هــلالاً قــد احتــوي نــور بــدرٍ كيـــف لـــو تـــمّ نـــورُك المتلالـــي

وليس هذا الطفل بالعزيز الوحيد الذي خلّف لها الحسرة، بل تعدُّ وردة اليازجي بحقٍّ شاعرة الرثاء والتأبين، فهي رثت إخوتها الستة وأختًا. ورثت والدها وزوجها وولدين لها وبنتًا. فتقول في رثاء أخيها حبيب الذي يظهر أنه كان شاعرًا أيضًا:

يا عين وردة، في الأسحار والأصُل أبكـي لفقـد حبيـب عنـك مرتحـل
ويـا فـؤادي تفتَّـت بعـد مصـرعه فـإن سـيف المنايـا سـابق العَـذَل
ويـا سـل ابتعـد عـن مهجتـي أبـدًا ويـا دمـوع انزلـي كالعـارض الهطـل
ويـا حمـائم نـوحي واندبيـه معـي وغـرّدي بالأسى والحسن، لا الجـذل
يا فـارس اليوم أبشـر قـد أتاك على قـرب حبيـب، فـلا تشـكو مـن الملـل
بـدران أظلمـت الآفـاق بعـدهما فـي مقلتـي، وضـاقت بالأسـى سـبيلي

أما فارس الذي تذكره فهو أخ لها توفي قبل حبيب.

وفي رثاء أخيها نصَّار وقد توفي بمدينة زحلة:

يا ويح قلبي كم سهم أصيب به		فلم يزل بدماه الجفن يختضبُ
مصائب لستُ أدري من تكاثرها		فيه علي أيّها أبكي وأنتحبُ
يا أرض زحلة، لي في حبها شغف		إذ في حماها شقيق الروح محتجبُ
أرض لروحي في أكنافها سكن		لذاك قلبي له في حبها أربُ
يا قلب صبرًا علي ما قد أصبت بهِ		ولا ترُعك البلايا وهي تعتقب
قد عوَّدتك الليالي الحزن من صغر		حتي غدوت إلى الأحزان تنتسب

وهذا المعنى الأخير كررته في مرثاة أختها راحيل:

قد اعتاد قلبي الحزن من صغر سنهِ		فلم يدر ما طعم المسرّة في العمرِ
فيا ليت كلي ألسن تنظم الرثا		لتعرب عن أحزان قلب بلا صبر
أري الموت أحلى من حياةٍ حزينة		تمرُّ لياليها أمرَّ من الصبر
لئن جفَّ دمع العين مني هنيهة		ففي القلب دمع سائل أبدًا يجري
فيا أغصن البان اندُبنَّ معي على		غصين تلقَّتهُ يد البين بالكسر!
ويا زهرٌ فلتذبل، ويا زُهر فاغربي		على من كروض الزهر كانت وكالزهر

وفي رثاء والدها:

تكاثرت الأحزان في كبدي الحرَّي		وزادت دموع البين في عيني الشكري
وجارت على ضعفي الليالي وأوقدت		بطي فؤادي من نوائبها جمرا
فقدت أبي مالي وللعيش بعده		فموتي من عيشي غدا به أحرى
حياة الحزين القلب موتٌ، وموته		حياة يلاقي عندها الراحة الكبرى
أيا عَلَم الشرق المبجَّل، والذي		لفرط الأسى أوراقه تذهب الحبرا
ويا من بمسراه تيتمت العلى		كما يتمَّ التأليف والنظم والنثرا

لقد ملت ياركن العلوم فأوشكت ... لفرط الأسى أوراقه تذهب الحبرا
وقد غصت من خمر المنون بسكرة ... فها أنا لم أبرح بخمر الأسى سكرى

وفي رثاء أخيها خليل الشاعر:

ألا أيها القلب الحزين، إلى متى ... تقاسي خطوب الدهر منقضَّة تترى
تراكمت الأرزاءُ من كل جانب ... عليك، فلا يوم يمرُّ بلا ذكرى
فهلاً براك الله من جنب صخرةٍ ... تمرُّ عليك الحادثات فلا تفري
سلام على وجه الخليل، ونارهُ ... بطي الحشا قد أفنت القلب والصدرا
على وجههِ الضاحي الوسيم الذي لهُ ... بقلبي رسمٌ لا يفارقه العمرا

وهكذا نراها تهتدي شيئًا فشيئًا إلى التعبير البليغ المجرَّد من التعمل، لأن الشعور بالحزن لا يترك مجالاً للتطويل، فتقول في رثاء زوجها:

كلما كاد يضمد الجرح ترميني ... بجرح مفتت الأكباد
نكبة عند نكبة عند أخرى ... كاتصال الأسباب بالأوتاد
وأبي الدهر أن يمن بنظم ... غير نظم الرثاء والتعداد
سلبتني المنون إنسان عيني ... ورفيقي وعمدتي وعمادي
يا أليفي في شدتي ورخائي ... ونصيري في النائبات الشدادِ
كيف غادرتني بقلب جريح ... يتلظَّي في مثل جمر القتاد؟
كيف أغمضت طرفك اليوم عني ... وغدا القلب منك مثل الجماد؟

كلُّ هذا كلام صادق مملوء بالعبرات، عبرات من رثت كثيرًا من رجالها، ومازال القدر العنيف يرغمها على رثاء البقية الباقية. على أن أجمل مراثيها وأمتنها

نظمًا وأشبعها عاطفة، ولو أن المعاني منها غير جديدة لنا، قيلت في ولدها أمين شمعون، وفي أخيها الشيخ إبراهيم.

تتجرَّد في مرثاة ولدها أمين شمعون من الخواطر التي ليست هي حزنها مباشرة. فلا تأمُّل هناك، ولا فلسفة، ولا دروس في حكمة الموت. بل تساؤل: كيف تحتمل الحياة وقلبها مع ولدها دفين؟:

بأي فؤادٍ بعدك أبتغي السلوى وأنت فؤادي في التراب له مأوى
أري نار قلبي كلّ يومٍ وليلةٍ تزيد لهيبًا كلما زدتُ في الشكوى
لفقد أميني بل حبيبي ومهجتي وريحان روحي من غدوتُ به نشوى

ويمضي قلب الأم في تصور أوصاف الولد التي تجعله في عينها فريدًا بين الورى:

لقد كان في عيني أبهى من الدُمَي وأعذب في قلبي من المنِّ والسلوى
أديب جميل الخلق، والخلق طاهر الـ شمائل صافٍ قلبهُ طيّب النجوى
كصدر القنا، كالنصل، كالغصن في النقا كزهر الرُبي، كالبدر، كالرشى الأحوى
أحنُّ لمرأى تربهِ كلَّ ساعةٍ وأهفو لمثواه وما تحتهُ يُحوَى
أيا قبره هذا العزيز، فلا تدع هوام البِلى تهوى عليه كما تهوى
ويا فلذة القلب الجريح الذي مضى لكنز ثمينَ ليت قلبي لها مثوى
وحافظ على تلك العظام فإنها به خاطف الأقدار يستعجل الخطْوا
برغم فؤادي أن أخطّ لك الرثا وأندب ذاك الوجه والمبسم الحلوا
يفتّتُ قلبي كل شطر أخطهُ فإن يمحهُ دمعي السخين فلا غرْوا

أيتها السيدات والأوانس:

أراكن تبكين وعزيز على أن أكون سببًا في حملكنّ علي البكاء. لذلك سأقصر عن تلاوة شيء من مرثاتها لأخيها الأخير.

الآنسة ميليا بدر وكيلة مدرسة الأمريكان للبنات تقف وتقول:

– هو اللقاء الذي يبكينا. ولكن لا تحذفي من المحاضرة شيئًا.

– رغم البكاء، ورغم هذه المناديل المنشورة في أيدي أخواتنا؟

– نعم رغم البكاء.

أصوات – لا بأس من قليل من الحزن والبكاء.

– حسن يا سيداتي وقد صدقتنَّ. لا بأس من البكاء علي آلام الغير. ولابد في الشعر من الحزن والدموع. فقد قال أدجر آلن بو بعد كثيرين غيره أن العبقرية الشعرية حزينة في جوهرها، وأن الطبائع التي تدرك ذلك وتحبه تقرب من تلك العبقرية عند التعاطف في الشجو والكآبة.

قلتُ إذن.. إن شقيقها الشيخ إبراهيم كان آخر الباقين من إخوتها.

فرثته من قلبٍ متقطع لم يبقَ فيه صبر ومقدرة على الاحتمال، قلب يعرف أنه فقد أخًا تجددت بفقده اللوعةُ على جميع الذين سبقوه. ويعرف كذلك أن الذي فقده صاحب شهرة ذائعة، فلا تنسَ الأخت في الحزن سبب افتخارها:

لم يبقَ للحزن لي صبرٌ ولا جلد ولا دموع تفي لي حقَّ من فقدوا
وضاق صدري مما قد تراكم من حزني ولم يبقَ لي للاحتمال يدُ

فـارقتني يـا شـقيق الـروح مبتعـدًا   فمـا حيـاتي وأنـت عنـي مبتعـد؟
يـا قائـل القـول مـا زلـت بـه كلـمٌ   وصـاحب الـرأي حقًّـا لـيس ينتقـد
تسـير فـي إثـرهِ الافهـام قاصـدة   مواقـع الحـق حيـث الصـدق والرشـد
فضـلٌ سـيبقي بقـاءَ الـدهر متصـلاً   عليـك لا ينقضـي أو ينقضـي الأبـد
أضـحى بـه لا ينـال المـوت رفعتـه   حيًّـا أكـاد أراه حيـث أفتقـد

ثم تنسى هذا إذ تتجشم أحزانها في شهيق واحد:

يـا صـخر، بنـت الشـريد اليـوم منتشـرٌ   لهـا عليـك قـوافٍ فـي الهـوى شُـرد
هيهات ما فقدت صخري، ولا نظمت   دمعي، ولا وجـدت خنسـاءُ مـا أجـد
بكـت وحيـدًا، وأبكـي سـتة ذهبـوا   لكـل محمـدة بـين الـورى وجـدوا

توفي الشيخ إبراهيم في مصر. ثم نقلت رفاته إلى بيروت سنة ١٩١٣. فرافقتها الشاعرة الحزينة. وهناك على ضريح العائلة تليت منها أبيات، هذه بعضها: يا قبر اهنأ بما أوتيتَ من ظفر حويتَ من هزَّ ركن العلم مصرعهم يا قبر قد عاد إبراهيم، واأسفي من لي بخطّ يراعٍ منه مبتكرٍ فقد حويتَ كرام البدوِ والحضر من بعد ما ألبسوه أفخر الحبر يضوي إلى أسرة من أتعس الأسر كيما أخط رثاءً فيكَ مبتكر! وفي حفلةٍ أقيمت لتأبينهِ في بيروت قالت في قصيدة شكر للمؤبنين: اليوم ردَّت مصرُ ما أخذت ويا لم ينسَ عهدكم القديم وقد أتى أسفي، فقد ردَّته في الأكفان كي لا يزال مجاور الأوطانِ واشترك السوريون في البرازيل في إقامة تمثال للشيخ إبراهيم، فأرسلت قصيدة إلى شكري أفندي الخوري صاحب جريدة (أبي الهول)، وصاحب الاقتراح. ومن تلك القصيدة:

أكـرم بمـا جئتـهُ يـا سـيدًا عمـلاً   يـزين اسـمك بـين العـرب والعجـم

دعــوتي قــومي إلــى مــا ترتئيــهِ لهــم		صـــــنعًا جمـــــيلاً وبرهانًـــــا لـــــودّهم
يا سادة جمعتهم نسبة الوطن المحبوب		جمــــع الثريـــــا غيــــر منفصـــــم
جــدّدتمُ شــخص مــن نهفــو لرؤيتــهِ		كأنّمـــا هـــبّ مبعوثًـــا مـــن الـــرمم
ومــا مــديحي لكــم حبــر علــى ورق		بل خطَّ في لوحِ صدري شكر كم بدمي

لا تصــدق علــى هــذه الشــاعرة تهمــة ألحقوهــا بالنســاء، وهــي أن الرجــال يكتبون لهنَّ. بل كانت هي صاحبة أشعارها. وأكبر شاهد على ذلك –كما قال لي دولتلو سليمان أفندي البستاني– إنهم كانوا بديًّا يزعمون أن والدها وأخويها حبيب وخليل ينظمون لها. فماتوا فرثتهم. فقال الناس: ولكن الشيخ إبراهيم حي فهو ناظم المراثي باسمها. فتوفي الشيخ إبراهيم فرثته بأبيات، هي من خير شعرها في الصدق والأمانة.

وعلى ذلك الشيخ إبراهيم أقول إنهـم سيحتفون قريبًا بنصب تمثاله في إحدى ساحات بيروت العمومية. على أن شاعرة آل اليازجي لن تحضر ذلك الاحتفال، ولن ترسل فيه دمعة وزفرة.. إن جسدها يرقد تحت ثرى مدينة الإسكندر، حيث تثوى على هدير البحر الذي ما فتئ مهمّمًا في مسامع الأحياء والأموات.

(٤)

نثرها

يقول جورج أفندي باز إنها نشرت بعض المقالات في الصحف والمجلات. وأكبر الظن أنها جمعت كلها في (حديقة الورد)، حيث نجد تقريظ مجلة الفردوس وفتاة الشرق وغير ذلك، فضلاً عن مراسلتها لعائشة تيمور. على أنه ليس في تلك السطور غير المجاملة والثناء. والرسالة التي عبرت فيها عن رأي اجتماعي نشرت في (الضياء) قبل أن تجمع في (حديقة الورد). ونهتم بهذا الرأي بعد أعوام، لأنه يعالج مشكلاً من مشاكل وقتنا. ومعلوم أن المشاكل الاجتماعية وغير الاجتماعية لا تحلّ في يوم وليلة. بل تقتضي مرور الزمن لتتناولها الأقلام بالتمحيص. ثم يأتي المران بنبذ ما يحسن نبذه، واستبقاء ما هو في مصلحة المجتمع.

فهي تنتقد المرأة الشرقية لتفرنجها حتى صارت تخجل باستعمال لغتها والسير على عادات وسطها وتهزأ بقومها، لتفاخر بأنها أجنبية. ظنًّا منها أن كل الارتقاء في اقتباس قشور المدينة وظواهرها في الأزياء والأساليب، وتلك الفوضى في السلوك التي نسميها خطأ باسم الحرية. في حين – تقول السيدة وردة– كان على المرأة الشرقية أن تنظر إلى أختها الغربية من الوجه الآخر، فترى اهتمامها بالأمور الجدية، وبراعتها في العلوم والفنون وسائر دوائر النشاط الإنساني، وكيف أن المرأة الغربية رغم تأنقها تقوم بواجبها نحو الأسرة والمجتمع واللغة والوطن. وتستحثُّ اليازجيَّةُ بنات الشرق للرجوع عن ضلالهنِّ وإكبار اللغة العربية، وأن هنَّ

تعلمن اللغات الأخرى وأحببنها، وذلك تشبثًا بعاطفة الوطنية ورغبة في النفع القومي. ولتجعل نداءها أبقى أثرًا تعمد إلى ذكر بعض شهيرات العرب من كواتب وشواعر وتضرب بهنَّ المثل لتستفز همَّة بنات العصر وتدفعهنَّ إلى العناية بصالح الأمة.

وهذا النداء الذي سمعنا مثله، ولكن بلهجة أخرى من عائشة تيمور، وبعدئذ من باحثة البادية، نصغي إليه اليوم باحترام وشكر وافتخار. نصغي إليه باحترام، لأنه صوت الإخلاص، صوت الغيرة والحماسة، ولأنه جليل نبيل. ونصغي إليه بشكر، لأننا إن نحن سرنا اليوم خطوة في طريقنا على بصيرة، فبفضل هؤلاء الذين تقدَّموا وتركوا لنا صيحاتهم المباركة يتردد بيننا صداها المتزايد بانضمام أصواتنا إلى أصواتهم. ونسمع هذا الهتاف بافتخار، لأن نداء الموتي لم يذهب ضياعًا. بل نهضت المرأة في مصر، في سوريا، في جميع أنحاء الشرق العربي بمقدار ما يسّر لها الوسط والأحوال. نهضت تتطلَّع إلى الحرية النبيلة وتتعرَّف حدودها، وتعزز قوميتها ووطنها ولغتها.

تسمع هذا الهتاف بافتخار، لأن نفوسنا اتسعت وعمقت، فصارت ترى للأدب والشعر دورًا ساميًا جليلاً. مضى وقت التقريظ والمدح والثناء وتنميق الألفاظ. وتناول الأدب جميع مظاهر الحياة القومية في الأخلاق والتهذيب والفنّ والاجتماع والسياسة، وترويج الدعوة الوطنية للنهوض بالنفوس إلى آفاق العلوِّ والنخوة والشمم والاستقامة. نفهم الأدب اليوم كما يجب أن يفهمه العائشون في هذا العصر الحافل بعجائب العلم والاكتشاف والاختراع، هذا العصر الذي سخّر فيه الإنسان العناصر لخدمته وحاجته. العجائب أصبحت مألوفة لدينا. فأي عجيبة في التليفون، والتلغراف اللاسلكي، والكهربائية، وفي قاطرات الحديد

والسفن والبواخر والطيارات، وأشعة رنتجن التي تنفن إلى داخل الجسم، فتري منه الخبايا والتفاصيل كمن ينظر إلى سطحه! وأي عجيبة في عديد الاكتشافات في الرياضيات والكيماويات، في قياس الأشعة، في تحديد دورة الكواكب، في التخاطب بين القارات، في معجزات الطب والجراحة والهندسة! إن عجائب العلم لا تحصى، وهي في خدمتنا في كل شأن من شئوننا، في حياتنا الفردية والمنزلية، في يقظتنا القومية، في مناهضة المراتب وثورات الأمم.

نحن نعرف أن نعجب بما تركه الذين تقدّمونا، ولكن في تحدّيهم التقهقر لا التقدُّم. هم قالوا كلمتهم الموافقة لعصرهم. فعلينا أن نقول الكلمة التي توافق عصرنا. وردة اليازجي ترى كل المنفعة من علم المرأة في تربية البنين، ونحن نوافقها على ذلك. وسيوافقها كل جيل حصيف في كل عصر، على أن هذا ألزم واجبات المرأة. وأن أكبر فخرها أن تكون مليكة المنزل وعبدته، وتعزية الرجل، والبطلة الكبيرة في سكوتها وانزوائها، التي تتربّي في حضنها الذراري وتتهذّب بين يديها الشعوب. ولكن تأثير المرأة ليس مقصورًا على هذا، لأن الأمومة ليست اختيارية، بل قد تكون المرأة أفضل أمّ وأفضل زوجة، فيظلّ عليها أن تتم أمورًا أخرى شتى.

المرأة اليوم تستطيع أن تعمل وتؤثر في جميع الجوانب. تعمل بتذكية العاطفة الوطنية في أبناء الوطن ببث الشهابة والنبل في نفوس رجاله، في تعزيز كيانه المعنوي بالحرص على مصالحه الجزئية، بالسهر على مهود أطفاله، بتكييف النفوس الغضّة من فتيانه، بترقية لغته، بنشر فكره، بتمجيد البليغ من أقلامه، بترويج صناعته وفنه ومنسوجاته، بالاقتصاد وإحكام وضع الأشياء في مكانها.

تـؤثر بإنعـاش روحِ الـوطن، بتقـدير تاريخـه، بالثقـة فـي مسـتقبله، بعبـادة شـاراته وأعلامه!

الشرق ينهض، أيتها السيدات، وهنيئًا لمن أدرك كل ما في المسئولية من فخر، وكل ما في العمل من نصر. الشرق ينهض ولو كانت رجاله مثقلة بالأحزان وجماعات من شبيبته منصرفة إلى اللهو والنسيان! الشرق ينهض وهنيئًا لكل من كـان بعملـهِ وقلمـهِ وصـوتهِ ذا أثـر فـي تكييـف النفـوس! وهنيئًـا لطـلاب العلـم بالممكنات التي يتمتعون بها ممتازين بذلك عن كل جيل سبقهم، لذلك كان ما ينتظر منهم أعظم من كل ما جاء به غيرهم.

علمـت أمـس الأول أن سـيدات بيـروت اكتتـبن لصـورة وردة اليـازجي، وأهدينها إلى دار الكتب الأهلية في تلك المدينة لترفع صورة الشاعرة بين صورة كبار الرجال والعلماء. هذا في بيروت. وحسبها في تقدير فضلها هنا أن تجتمع اليـوم علـى ذكرهـا السـيدات المصـريات وغيـر المصـريات، فيحيـين مـن اسـمها النفحة الشجية!

وليكن لكنّ من هذه الذكري أثر يبقى بعد هذا الاجتماع. فلتحمله ربّات البيوت، لأن (وردة العرب) كانت بنتًا مباركة، وأختًا حصيفة، وزوجة وفية، وأمًّا صالحة! ولتحمله ناظرات المدارس والمعلمات، لأن الشاعرة بتعاطيها التدريس وعنايتها بإخوتها وأخواتها فـي حـداثتهم كانـت مثالاً يُحتـذى ومثـلاً تسـتمد منـه التعزية في مهنة التعليم الشاقة النبيلة.

ولتحمله الطالبات اللاتي سيجتزن عمّا قريب عقبة الامتحان السنوي. فاليازجية كانت تلميذة نشيطة، وإن لم يكن لها وسائطهن، وظلت طول حياتها تطلب العلم وتوصي بالمعرفة والاستنارة. وليقل ذكرها لكل منا أن العمل الصالح الذي تأتيه المرأة النابهة يتخطي جيلها ويخدم الأجيال التالية، كما أن حبة القمح في أرض خصبة تضمن تغذية الجماهير في مقتبل العصور.

فلتذكر نساء مصر وردة اليازجي وأخواتها السوريات الناهضات، كما تذكر نساء سوريا عائشة تيمور وباحثة البادية وأخواتهما المصريات الناهضات! وليتأثرن بذكرها وفضلها، كما تتأثر بنات سوريا بنهضة المرأة المصرية، فيتحمسن لها ويفاخرن بها!

وحسبي ابتهاجًا، أنا ابنة القطرين، أن أرسم صورة ولو واهية من امرأة شرقية لأخوات شرقيات أحبُّ منهن الوطنية، وأهتف مثلهنّ هتاف الحماسة، وأنشد من قدوتهن التقدم والعرفان وخير الأوطان!

باحثة البادية

وهي المرحومة ملك حفني ناصف حرم عبد الستار بك الباسل

مقدمة

لما اقترحتُ على كاتبة الفصول التالية أن تتحف (المقتطف) بخلاصة ما كانت باحثة البادية تنادي به لم أنتظر أنها تعني بقراءة كل ما كتبته الباحثة وما يضارعهُ مما كتبه قاسم بك أمين، وتعرض خلاصة ذلك للقراء على صورة تختلف الألباب بحسن بيانها وبديع انتساقها وقوة حجتها وتكون نموذجاً جديداً للنقد في العربية بالأسلوب الذي جرت عليه، فإنها مهدت لكل فصل من هذه الفصول وختمته وعلّقت عليه من آرائها الخاصة وأقوال أئمة الكتّاب بما يدل على واسع علمها وبُعد نظرها، وعلى أنها جارت أكتب الكتّاب الأوروبيين في هذا النوعِ من البحث والانتقاد.

ولا أتذكر أنني رأيت حتى الساعة من ضارعها فيه من كتّاب العربية ولا من فاقها من الأوروبيين. والظاهر أن هذ رأي كثيرين غيري حتى اقترحوا عليها جمع هذه الفصول وطبعها على حدة ففعلت وأضافت إليها كثيراً مما له علاقة بهذا الموضوعِ.

وبعد، فليس غرضي من هذه السطور التنويه بكاتبة هذا الكتاب لأن القراء يعرفونها كما أعرفها بل إبداء رأيي في كتاب أخرجته للناس ناظراً إليه من أربعة أوجه وهي الأسلوب والإحاطة والتعليق واللغة. وسأكتفي بالإشارة الطفيفة إلى كل وجه منها وإلا لزمني أن أنشئ على الكتاب كتاباً أوسع منه إن استطعت.

١ - الأسلوب: أسلوب الكاتبة في هذه الفصول غاية في الإحكام.

أنظر إلى التمهيد الذي عقدتْ له الفصل الأول والثاني فعرَّفت القراء بنفسها وبباحثة البادية وبما بينهما من الرابطة الأدبية. ثم تدرجت إلى التفصيل فوصفت وجه الباحثة وعقلها وأسلوبها في الكتابة - صوَّرتها لعين القارئ كما كانت تراها بكل معانيها حتى يحسب من يقرأ ما اقتبسته من أقوالها أنه يسمع شخصاً يكلمه بصوته الحي ويعرف هويته وأمياله. وجرت على هذا الأسلوب في كل فصل من هذه الفصول فإنها مهدت له تمهيداً فلسفياً حسب موضوعه لتتدرج بالقارئ إليه وتعد انتباهه إلى ما فيه من رأي أو انتقاد أو نصح أو أمر بمعروف أو نهي عن منكر. ثم نثرت أقوال الباحثة المرتبطة بموضوع ذلك الفصل وشرحتها وعلقت عليها ما يزيدها بياناً أو يزيل ما فيها من شبهة أو يخالفها فيما ترى مخالفتها فيه. ولما استطردت إلى المقابلة بينها وبين قاسم بك أمين، جرت على هذا الأسلوب عينه في الفصلين اللذين عقدتهما لذلك. ولعلها انصفت قاسم بك أمين مثل أعز أصدقائه الذين كتبوا عنه. وما غرضها إلا إنصاف الموضوع الذي تكتب فيه والغاية التي ترمي إليها وهي إصلاح شأن المرأة.

٢- الإحاطة: وأي إحاطة فإنها بحثت فيما كتبته باحثة البادية كامرأة مسلمة مصرية كاتبة ناقدة مصلحة. ومن الغريب أن عقلها الجامع البحّاث أشار إلى هذه الصفات كلها قبلما كتبت سطراً من هذه الفصول كأنها نظرت بعين بصيرتها إلى كل ما كتبته باحثة البادية فرأتها تتجلى فيه بصفاتها المذكورة آنفاً فلم يتعذر عليها أن تستخلص منه حقائق كثيرة أيدت نظرها. أحاطت بالموضوع من كل جهاته وعززته بآراء الباحثة وأقوالها وبما مهدته لها وعلقته عليها. ولا نظن أنها تركت زيادة لمستزيد. وكل من عانى البحث في مؤلفات غير المتشعبة الشئون

يعلم ما في الإحاطة بمناحيها من المشقة. ومَن من الكتَّاب لا يود أن يتاح له مثل الآنسة مي تحيط بما تكتبه وتشرحه وتعلق عليه تعليق إنصاف ولو كان انتقاداً، ولكن هيهات فإني لم أر حتى الساعة كتاباً مثل هذا في العربية.

٣- التعليق: هذا في نظري من أبلغ ما كتبته الآنسة مي فإن مدركات العقل مهما كثرت لا تفيض بقوتها وغناها ومجدها إلا لدى احتكاكه بعقل آخر مضاهٍ له. حينئذ تتنبه النفس إلى ما خزنته من المعارف وما وصل إليها بالإرث من الآباء والجدود وتنهض القوة الناطقة قوة الاستحضار والتمثل والقلص وتُنهض البداهة وتنبه المبدأ الفياض إلى سرد الأمثلة والأدلة وإقامة البراهين الخطابية والمنطقية وتأييدها بالحقائق العلمية والمسلمات العرفية والشواهد الاجتماعية. وهذا كله ظاهر في كل صفحة من صفحات هذا الكتاب. فهو كتابان: كتاب باحثة البادية أو خلاصة ما كتبته في موضوع النساء، وكتاب الآنسة مي الذي جمعت فيه هذه الخلاصة وشرحتها وعززتها وعلقت عليها زبدة معارفها الواسعة وختمته بالمقابلة بين باحثة البادية وقاسم بك أمين. وألحقت بها ما دار بينها وبين باحثة البادية من المراسلات. والكتابان والخاتمة في موضوع واحد هو أهم المواضيع الاجتماعية في هذا القطر ألا وهو المرأة المصرية وكيف تصلح شئونها فتصلح بها البلاد.

٤- اللغة: اللغة معربة خاصة بالكاتبة في أسلوبها دالة على ذاتيتها. وكذا تكون لغات كبار الكتَّاب. يري القارئ لأول وهلة أن الكاتبة خرجت عن مألوف كتَّابنا الأقدمين والمحدثين في كثير من أنواع المجاز والتعبير كأن قريحتها الوقادة رقت بها فوق مألوف العادات وعقلها المبتكر حلق بها في سماء الخيال شأن كل نابغة في عصره فإنه يكثر الابتكار ويكره التقليد.

وإذا كان بعض استعاراتها مقتبساً من لغات أوروبية فذلك ليس بدعة في العربية. ولا هي أول من فعل ذلك بل قد سبقها إليه جماعة من أساطين الكتَّاب مثل الجاحظ والصابي وابن المقفع وابن خلدون فزادوا في غني العربية بما أضافوه إليها.

وهذا شأن كل الذين ابتكروا لغاتهم مثل كارليل ولورد أفبري وفكتور هيغو ولامرتين ومثل الكتَّاب الرومان الذين كانوا يحسنون اليونانية قبلما يكتبون لغتهم. وإدخال الجديد في اللغة ضروري لحياتها وإلا انحطت وتلاشت شأن الأسر التي لا يتزوج أعضاؤها إلا في بعضهم.

وإلى القارئ مثلاً واحداً مما كتبته في وصف باحثة البادية ككاتبة حيث قالت: (وما حاجتي إلى الكلام عنها كاتبة؟ اننا لو ضربنا صفحاً عن شهادة من شهد لها بالمقدرة الكتابية مكتفين بما ورد من أقوالها في الفصول الماضية لأثبتنا على الورق ما قد سبق وقرره حكمنا الصامت وهو أنها كاتبة كبيرة.

يطلق الناس عادة اسم (الكاتب الكبير) على من كتب كثيراً وهم في ذلك مخطئون. إن من حملة الأقلام من له مؤلفات عديدة وهو ليس بالكاتب الكبير حتى ولا بالصغير. لأنه ليس كاتباً على الإطلاق. إنه ينقصه ما يسميه الإفرنج (قماش الكاتب) أي السر الذي يقود الفكر إلى اختيار الألفاظ الصائبة ويعلم اليد صياغة الجملة الملائمة. وينقصه خصوصاً ذلك اللهيب الخفي الذي ينشر بين السطور أشباح النور والظلام.

ما الكلمة؟

الكلمة التي تعين الحركة والإشارة والصوت واللون والانفعال.

الكلمة التي تعني أمراً دون آخر وتوقظ عاطفة دون غيرها. ما هي وما سر انتخابها؟ الأبجدية لجميع البشر والناس لا يتفاهمون عادة إلا بالكلام فما تلك القدرة المعطاة للبعض ليرسموا بالحروب الوجوه ونوع استدارتها والشفاه وحدود ثناياها والآفاق واتساعها اللانهائي والليل وعمقه وكواكبه والنفس وعجائب خفاياها؟ كيف تنبض في الألفاظ المجردة الجامدة حياة سريعة متقدة بثورة الشعور وهيجان الغضب وأنين الشكوي ورنين النجاح والظفر؟ لماذا تهتز الألفاظ تارة كالأوتار وتولول طوراً كأمواج البحر العجاج. وتهمس حيناً همساً عجيباً كأنما هو منطلق من سحيق الذراري وميهم الآمال القصوى؟

قال فيكتور هوجو إن الكلمة كائن حي وقد تكون خالقاً ساعة تجعل المخيلة ترى ما لا يرى. وتنظم القرطاس أفقاً مفعماً بالكائنات الجميلة. وتصبح سحراً يصير الغائب حاضراً والعدم وجوداً. إن الإفصاح عن الفكر أساليب جمة، ولكن لا يصلح للكاتب الواحد إلا أسلوب واحد، وهو الذي يتفق مع ذاتيته. إن أفلاطون الذي اشتهر ببلاغته اشتهاره بفلسفته ظل ينسخ كتابه (الجمهورية) إلى عمر الثمانين ليزيده تحسيناً وإصلاحاً. ذلك لأن الكتابة التي يراها الكثيرون مسألة هينة أكثر الفنون دقة وعسراً. ولا أظن اكتشاف القطب أصعب على الرحالة من اكتشاف الأسلوب (هذا القطب الآخر) على الكاتب الذي عنده شيء يقوله لأن نفسه تفيض به وتحثه على إعلانه. كلمات النفس حركات خفيفة لطيفة. فكيف يتيسر نقل هذه الخفة واللطافة بالكلمات البشرية الكثيفة؟ وكيف تتبع أداة القلم خطوات النفس الوثابة كثيرة الأهواء في تموجها وتحنيها المباغت من الفرح إلى الحزن ومن التحنان المذيب إلى النقمة البركانية؟ إن ذلك لسر تملص من القواعد والنصوص وترفع عن أن تلقيه الضمائر إلى الألسنة. وهو كل مقدرة الكاتب أو كل ضعفه.

فإثباتها الصمت للحكم والعمق لليل والنبضان للحياة والأنين للشكوى والرنين للظفر والولولة للألفاظ والتموج للنفس وقولها إن من حملة الأقلام من له مؤلفات عديدة وهو ليس بالكاتب الكبير ولا بالصغير وأنه قد يكون بين سطور الكاتب لهب خفي ينشر بينها النور والظلام وإن البعض يستطيعون أن يرسموا بالحروف الوجوه ونوع استدارتها والشفاه وحدود ثناياها والآفاق واتساعها اللانهائي، وأنه لا يصلح للكاتب الواحد إلا أسلوب واحد يتفق مع ذاتيته ثم قولها: (إن من يحاول الوصول إلى هذا الأسلوب محاولة يهوى في دركات التصنّع والتكلّف وتتعثر قدماه وقلمه بذيول الزوائد والحواشي الحاضرة بين المتداولات كالحلوى على أطباق حلواني العبد أو يداهمهُ مرض الاختصار الجاف فيشعر قارئه الشقي بأنه حُكم عليه بسف التبن)، كل ذلك من المعاني التي تكاد تكون مبتكرة في العربية وقد أيدتها بأقوال أعظم شاعر فرنسي وأكبر فيلسوف يوناني.

حسبي هذا الشاهد من فصولها للدلالة على بلاغتها في التعبير عما في نفسها وعلى ابتكارها المعاني وإفراغها في قوالب جديدة واستعارات أنيقة ولا لزمني أن أثقل أكثرها ما كتبته تمهيداً وتعليقاً وشرحاً وتفصيلاً.

فهل قرأت كتب مشاهير الكتّاب في أوسع اللغات الأوروبية التي تحسنها فرسخ في ذهنها كثير من أساليبهم وتخيلتهم التي لم نألفها، أو نشأت نسيجاً وحدها، نظرها يخترق حجب الغيب وجواهر الهيولي فيري فيها ويؤلف منها بدائع الصور ونفائس التراكيب أو هي مجموعة من الاثنين: الخلقي والمكتسب.

قريحة وقادة تختلق الصور كما تشاء. وعقل مستقل يكره القيود إلا ما وقع عليه الإجماع. وذاكرة كثيرة الحفظ سريعة الاستحضار تسابق قلمها إلى تصور ما يتخيله ذهنها مبتكراً كان أو مقتبساً.

وإني أعدُّ الساعة التي اقترحتُ فيها على الآنسة ماري زيادة أن تجول في هذا المضمار من أسعد الساعات التي مرت في حياتي. وبهذه الكلمات أقدم كتابها إلى القراء.

يعقوب صروف

باحثة البادية

هي مَلَك هانم كريمة اللغوي المحقق المرحوم حفني بك ناصف الذي شغل المناصب العالية في وزارة المعارف والقضاء. ولدت بالقاهرة يوم الاثنين من شهر (ديسمبر) سنة ١٨٨٦، وتلقت مبادئ العلوم في مدارس أولية (مكاتب) مختلفة، ثم دخلت المدرسة السنية في (أكتوبر) سنة ١٨٩٣، وحصلت منها على الشهادة الابتدائية سنة ١٩٠٠ وهي أول سنة تقدّمت فيها الفتيات المصريات لأداء الامتحان للحصول على تلك الشهادة. ثم انتقلت إلى القسم العالي في المدرسة المذكورة وحصلت على الشهادة العالية (دبلوم) سنة ١٩٠٣. واشتغلت بعد ذلك بالتعليم في مدارس البنات الأميرية.

وفي ٢٨ آذار (مارس) سنة ١٩٠٧ اقترن بها صاحب السعادة العربي الصميم عبد الستار بك الباسل وجيه قبيلة الرماح بالفيوم.

وتوفيت بالحمي الاسبانيولية في القاهرة ليلة الخميس ١٧ (أكتوبر) سنة ١٩١٨.

(١)

كيف عَرفتهَا؟!

في مثل هذا الشهر (يناير) منذ سنوات خمس اجتمعتُ بباحثة البادية للمرة الأولى. كانت تقضي فصل الشتاء في حلوان وقد دعتني إليها على غير معرفة سابقة سوى معرفة القلم، بعد أن تبادلت وإياها بعض الرسائل في الصحف السيارة. دعتني على أثر رثائي ساعة فقدتها يومئذ فكتبت تقول: (إني وجدت ساعتك المفقودة والتقطتها. رأيتك ترثينها بحرقة فجئت لأمسح دموعك لأني أحب دائماً أن أمسح دمعة المحزون. تعالي إلى لتأخذيها فإنها أحست بشوقي لرؤيتك فأنت تقدمة لمجيئك وتعارفنا. عثرت على وعثرتُ عليها لنؤكد لك إنك وجدت الصديقة التي لا تخون).

تُرى ما الذي دفعها إلى ذلك؟ أهي النفس العلمية التي لا يفوتها سر من الأسرار ذكرت أنه قدر على أن أحمل القلم يوماً لأبكي المرأة الجذابة وأستخرج أمثولة من كتابات المرأة الخالدة؟

ذهبت إليها والشفق يضرم ناره في قلب الأفق والسحب قد انقلبت هنا لهيباً، وهناك أنواراً، وهنالك ألواناً، أي نفس لا ترتعش اغتباطاً أمام جلال الغروب؟ والغروب في مصر أبرع جمالاً منه في أي قطر آخر، وهو يبرز على أبدع ما يكون للسائر في قطار حلوان. مشهد رائع لا ينساه حياته من رآه مرة

واحدة. فيه تبدو الأهرام كأنها ما تحجر من فؤاد الأيام وبُعدها في أطراف الأفق يكسبها جمالاً غريباً شفافاً كجمال الأحلام.

على أن اغتباطي بمنظر الغروب في ذيَّاك المساء لم يكن ليلهيني عما ينتظرني من جديد ولا ليحبس عن ذهني أسئلة تتعاقب على فكر المرء قبيل اجتماعه بشخص غريب. إنما نحن نميل إلى الغريب ونميل عنه في آن واحد. وإذا دنت لحظة موعد ضُرب بينه وبيننا للمرة الأولى فإننا لا ننفك متسائلين على غير إرادة (وغالبا على غير معرفة) منا: (تُرى كيف هو؟ على أي قرار يوقع نغمة صوته، وإلى أي الألوان يقرب لون عينيه؟ كيف يبتسم ويتكلم ويتحرك؟ بل كيف يفتكر، وأي الأفكار متغلب عليه، وعلى أي الأساليب تتكوّن الفكرة في خاطره؟ تُرى هل يتفاهم منا الروحان بلغتهما المختلفة عن لغة الشفاه الإصلاحية، أم نحن الساعة ملتقيان ليعلم كل منا أننا لسنا من وطن معنوي واحد وأن بين مزاجينا هوة لا يزيدها التعارف إلا اتساعاً؟).

أسئلة إنما ينحصر الجواب عنها جميعاً في النظرة الأولى التي يتبادلها الغريبان رجلين كانا أو امرأتين أو رجلا وامرأة، أو خادماً ومخدوماً، أو نظيراً ونظيراً، أو كبيراً أو صغيراً، وتلك النظرة تُسفر دائما عن إحدي عاطفتين اثنتين تتفاوت كل منهما في الدرجات: فإما انجذاب وإما تقلص، والانجذاب ميل والتقلص نفور.

كنت أتدرج من هذه الأسئلة إلى غامض المعاني التي يحاول علماء النفس استكناه وأردفهما بهذا السؤال الواضح: (أهذه المرأة التي سأصافحها بعد هنية هي الباحثة التي تنشر على الناس أفكارها، أم صدق الزاعمون أن ليس لها من

فصولها إلا التوقيع كما هي الحال عند بعض السيدات الشرقيات اللائي تعمّدن التظاهر بالتفكير والتحيير؟).

والجواب عن مثل هذا السؤال قد يظهر في نظرة واحدة أو بسمة، أو حركة يأتيها الغريب فيستجلي منها اللبيب حياة ذلك الغريب وقواه الخفية وما يمكنه القيام به من الأعمال. هذا على شرط أن يكون الاثنان من درجة معنوية واحدة أو (Attanod) كما يقول الإنجليز.

وصلت إليها وقد تزركش رداء الليل بوشي الكواكب ثم نشرت في الغد وصف زيارتي في إحدى الصحف الفرنسية فأستعين الآن ببعض ما جاء في ذلك المقال لأني كتبته تحت تأثير المقابلة الأولى. وهاك وصف غرفة الاستقبال: قضينا ساعة ونيفاً في غرفة الاستقبال.

واللون المتغلب في تلك الغرفة هو الأحمر العقيقي تتخلله نقوش خضراء فستقية ومزيج ألوان أخرى تبدو واهية الخطوط تحت نور الكهرباء. ولم يكن ثمة ما يخبر عن عبوس الحجاب الإسلامي في تلك (الفيلا) الأوروبية بين أثاث دقيق الصنعة ومقاعد فصلِّت على أحدث طرق ما نشر على الطاولات النحيفة القوائم من الأشياء الفنية الصغيرة التي لا اسم لها وهي من صنع عمال المغرب أو من قلدهم من عمال المشرق الحاذقين.

كان هتافها الأول هتاف ترحيب وكلمتها الأخيرة كلمة حُب. واستغرقت الوقت بين طرفي الزيارة مناقشة ودية في بعض ما عالجته الباحثة من الموضوعات كتعليم البنات، والحجاب، والسفور، وكانت تحدثني بصوت أغن الرنين تملؤه لهجة الواثق مما يقول، المعتقد بصلاح فكره، العالم بأن آراءه كل الفائدة لو كان

لها الناس تابعين. وإذا وجدت الكلمة العامية ركيكة إذا ما عُبِّر بها عن بعض المعاني استعملت الكلمة اللغوية مكانها بنطق عربي فصيح مستشهدة بأبيات شهيرة وحكم سائرة تعزيزاً لآرائها، على وجهها هيئة المحقق الجاد وفي عينيها نظرة بعيدة. وإن نحن على هذه الحال إذا بقريبة لها قد هبطت علينا من الصعيد على غير انتظار. وكانت باحثة البادية قد سبقت وقالت لي حين وصولي: (رغب بعض صديقاتي في المجيء للتعرف بك على أني أردت أن نكون وحدنا في اجتماعنا الأول).

ولكنها لم تُبد انزعاجاً بل ظهر السرور في وجهها وتحولت المرأة المفكرة دفعة واحدة امرأة ضحاكة كأنما لم تكن هي التي كانت منذ هنيه تستشهد بالمعري والمتنبي. وقد ذكرت ذلك في مقالي الفرنسي:

(جاءت قريبتها من الفيوم فأخذتا تتكلمان عن أشياء يعرفانها وتهمهما معاً. ذكرتا الأقارب والأصدقاء والصديقات والجارات والمعارف وهما تحلفان تارة بالله وطوراً بالنبي محمد مشتركتين في الضحك والتنكيت بين جملة وأخرى. الزائرة تحدثت عن الديار والباحثة تستزيدها من التفصيلات عن نساء الحي والمواشي والخياطة المصدورة والحمى المتفشية في البلد.

ثم اتفقنا في الثناء على البقرة الحلوب وهبط صوتهما إلى قرار الأسف لذكر البقرة الصغيرة المتوفاة في الأسبوع السابق. فقلت وقد أسفت لأسفهما:

(أماتت تلك البقرة المسكينة)؟

أجابت باحثة البادية: (ماتت والله! وكنت أحبها كثيراً).

ولكن لا يغرننا هذا الانقلاب السريع من جليل المعاني إلى تافهها، ولا تخدعنا هذه الضحكة الشبيهة بضحكة فتيات المدارس. إن لهذه المرأة كما لكل من الأفراد النوابغ شخصيات متعددات تظهر كل منها في حينها. وهناك وصف ضحكتها في المقال الفرنسي السابق ذكره:

(إنها تضحك بسرعة وسهولة وفي صوتها رنين كرنين أصوات الأطفال. تضحك بكل قواها كمن يضحك من قلب لم يخالطه بعد معنى الكآبة ولم تنزل بساحة وطأة الهموم. وما أشد ما يسرّ السامع بهذه الضحكة المملوءة طيبة وذكاء ولو لا أن خيالات الفكر والكآبة تتمايل على جبهتها السمراء الجميلة لتساءل المرء: أهو في حضرة امرأة ذاقت طعوم اللوعة والألم؟).

نعم إنها إلتاعت وتألمت. أقول ذلك وإن لم أرها يوماً إلا بين مظاهر السعادة والهناء. بل لم أقابلها مرة إلا وهي صبيحة الوجه، طليقة المحيا، براقة العينين، والبسمة تلعب على شفتيها. لكن هذه كلها ستائر تنسدل على حركات الحياة الحقيقية حاجبة عن النواظر معانيها العميقة. وهل في وسع من ذاق مرارة الفكر وحلاوته أن يكون سعيداً بالمعنى الذي يقصده البشر؟ وإذا فرضنا أنه حاز السعادة على ذلك القياس المألوف، أتكفي هذه السعادة الاصطلاحية لحمايته من لهيب الألم النفسي؟

ولكن لم نتقمن على الألم فهو مغذي الذكاء ومهذب الشعور، ومنبه الإدراك إلى معان جمة وأساليب فكرية كثيرة. إنما صاحب العواطف القوية شقي إذا ما ذكرنا أن هذه العواطف تعذبه في كل حين وتظل هامسة له بالشكوى حتى في أعذب ما يناله من لحظات السعادة النادرة. لكن هذا العذاب بعينه هو ممزق غشاء الجهل والأنانية عن بصر فريسته، وهو مستنزل الوحي على فؤاد نهشته

براثنه حتى أدمته. هو مفجر ينابيع النهى. هو يعطي القلم قوة تُبدع من الكلام سيوفاً وبروقاً، ويحبو اللسان بلاغة تمتلك القلب لأنها تخابره مباشرة بلا وسيط. وماذا عسى ينفع الحديث إن لم يكن مصدره القلب؟ وما قيمة الإصلاح إن لم يكن ناشئاً عن إدراك تكوّن ليس في العقل وحده بل في العواطف المسحوقة وما تنبه إليه من احتياج كثير؟ ونظرة الكاتب إن لم يطل فيها خيال القلب المتوجع ليست إلا بالنظرة الباردة القاصرة التي لا تنفذ إلى ما وراء قشرة الظواهر ويظل باب النفس، باب الحقيقة، أمامها مغلقاً مجهولاً!

إن مزاج باحثة البادية العصبي الصفراوي وجنسها النسائي، وقوة عواطفها وحدَّة ذكائها كل ذلك كان مشتركاً في تكوين طبيعتها سريعة الانفعال وواضعاً فيها قابلية شديدة للألم واستعداداً كبيراً لمشاهدة الأشياء والحوادث من وراء غشاء قاتم. اقرأ كل ما كتبته تجد أنيناً متواصلاً يخترقه من أوله إلى آخره. وذلك الأنين الذي يكاد يكون ركزاً ينقلب ساعة الوجع الشديد زئيراً وعويلاً.

هذا المزاج النسائي وهذه الذاتية الأدبية، وهذه الكاتبة التي لم تدون أفكارها (على ما يظهر لي من لهجة فصولها) إلا تحت التأثير وفي ساعة الانفعال، هي ما أقصد درسه في هذا البحث الذي قسمته إلى أجزاء ستة هي: المرأة، والمسلمة، والمصرية، والكاتبة، والنافذة، والمصلحة. لأن في هذا التقسيم تسهيلاً كبيراً لتفصيل الصفات الأدبية والمميزات الكتابية. وسنرى في الفصول الآتية كيف تبرزُ (الباحثة) قيمة في كل جزء من هذه الأجزاء.

ولنا من كتاباتها ما يسند إليها الرأي ويستخرج منه التعليل. بل لنا منها ما يبعث بالأشعة إلى تلك الصفحات التي كُتبت عن البيئة المصرية ولها، فيمكننا أن

نقدر باحثة البادية قدرها ونحب من وراء حجب الموت تلك الذاتية النادرة التي مرت في الحياة كحلم جميل.

أعترف بأني في حاجة إلى بعض المجاهدة لأتغلب على نفسي مبعدة من أمام ناظري خيالها البسام، ومحاولة نسيان المرأة كما عرفتها كيلا أتأثر إلا بفكر الكاتبة المنشور على الصفحات البيضاء خطوطاً سوداء. غير أني أعود فأقول إن التأثر بمعرفة المرء الشخصية ليس بالأمر المذموم بل هو غزير الفائدة، لأن الذين يعرفون كاتبا خارج فصوله يستعينون بتلك المعرفة على قدر تلك الفصول، ويستخرجون من أحاديثه الشفاهية ما يؤيد أقواله الكتابية ويعزّزها.

وإني لشاكرة (للمقتطف) اقتراحه، فهو الذي أوحي إلى كتابة ما أراه الآن علي واجباً مقدساً.

فلتحضر الروح العزيزة جلسات أكون فيها وحدي منفردة للبحث عن آرائها واستخلاص درر معانيها. ولتقُد يدها الروحية القادرة يدي الجسدية الحائرة لأثبت ما تريد إثباته ولتنر حكمتها المكتسبة من ديار الخلود فكري الراغب في إدراك ما تعمّدته من المقاصد والساعي في تحديد غاية قُصوي رمت إليها وهي ترى فيها كل الخير لإصلاح الشئون.

(٢)

المرأة

إن في بعض الناس قوة لا تكيفها النعوت. ليست هي الذكاء، وإن كان الذكاء بدونها بلادة ولا الجمال وإن عدم الجمال ميزة التأثير بفقدانها، ولا هي توازن تراكيب الجسم وتناسب الأعضاء ونضارة الصحة، فكل هذه تافهة إذا حُرمت منها لأنها العنصر الخفي المحيي الذي ينفعل به الأقوام ويخضعون لسطوته مريدين كانوا أم غير مريدين. لقد دُعي ذلك العنصر مغنطيسياً وكهرباء، وجاذبية، ولطفاً، وخفة دم، وخفة روح، و(نغاشة)، ولكن جميع هذه المعاني ليست إلا أجزاء منه وتشترك معها في تأليفه معان أخرى شتى.

إنها لقوة عجيبة قد تحوّل ما هو في عرف البشر قباحة إلى جمال فتان: فهي بروق الذكاء المتألقة في العيون وسيال اللطف المتدفق في الابتسام وأغنية الروح المتماوجة في نغمة الصوت. هي سحر الحركة وهي وسم الامتياز، وهي جلال الهيبة، وهي قداسة السكوت. هي المقياس السري الذي يكيف الإشارة ويوقع الخطى، والشرارة التي تضرم نار الفكر، والنور الذي يجعل كثافة المادة شفافة: هي اليد العلوية التي إذا حلَّت لسان المتكلم كان بليغاً، وإذا أشارت إلى الناظر بدت نظرته عميقة، وإذا قادت قلم الكاتب كانت كلماته شائقة فعّالة يبقى صداها داوياً في أعماق النفوس.

وكل من عرف باحثة البادية شخصياً أي معرفة الجسد أو معنوياً أي معرفة القلم، عَلِم أنها كانت حائزة لهذه القوة التي حارت في تعريفها الأسماء. قد كان

يكفي أن يعرفها المرء ليشعر بانجذاب إليها وليحبها. وقد كان يكفي أن يقرأ إحدى مقالاتها ليرغب في مطالعة كل ما كتبت منفعلا على رغم منه بالنفس الحار المالي فصولها حتى لقد يتبين توهج اللهيب المعنوي بين سواد الحروف. عبثاً تبحث هنالك عن الكاتب الذي يعلو بك إلى قسم الإدراك والعرفان ويبتدع لك من روحه جناحين تطير بهما إلى الآفاق البعيدة.

إن مؤلفة (النسائيات) قانعة بالغرفة التي تسكنها، والحي الذي تسير بين منازله، والبيئة التي هي جزء منها. وحينما تعثر على ما لا يرضيها – وما أقل ما يرضيها! – تضرب بمؤلفات الباحثين وشروح العلماء عرض الحائط غير معتمدة إلا على ما تختبره بالمشاهدة. وسرعان ما تقابل بين ما تراه عند الغير وما يشبه مما طرأ عليها أو قد يكون مهدداً حياتها. هي عينٌ ترى ما هو كائنٌ فتذكر ما يجب أن يكون. على أن هذه العين لا تنسى لحظة أنها عين امرأة.

وإذا طرقت موضوعاً تهتز له طبيعتها النسائية من أقصاها إلى أقصاها سمعت منها هذه اللهجة الخلابة:

إنه لاسم فظيع (تعدد الزوجات أو الضرائر) تكاد أناملي تقف بالقلم عند كتابته. فهو عدو النساء الألد وشيطانهم الفرد. كم قد كسر قلباً وشوش لبا وهدم أسراً وجلب شراً. وكم من بريء ذهب ضحيته وسجين كان أصل بليته وإخوة لولاه لما تنافروا ولا تناثروا ففرقهم أيادي سبأ وأصبحوا تأكل الحزازات صدورهم ويضمرون السوء بعضهم لبعض يثأرون ولا ثأر بني وائل وكانوا لولاه متفقين.

إنه لاسم فظيع ممتلئ وحشية وأنانية. كم أحرج رجلاً وعلمه الكذب فأفسد عليه خلقه وكم بذر مالاً كان يعده البعض رزقه وكم أحفظ قلب والد على ولد وكم علم الوشاية والحسد. فإذا ما لهوت أيها الرجل بعرسك الجديد فتذكر وراءك بائسة تصعد الزفرات يتساقط من مآقيها أمثال لؤلؤ عروسك لكنه صهرته نار الحزن فظهر سائلاً. واخش الله في صغار يبكون لبكائها علمتهم الحزن فاستعاروا يواقيت عروسك أعيناً. أنت تقرع سمعك الطبول والمزامير وهم لا يسمعون إلا دق الحزن في طبول آذانهم وكانوا من قبل ذلك جذلين.

قد ينظم الشاعر هذه الزفرات أبياتاً عامرة وقد يطلعك العالم الاجتماعي على سلسلة علله ومعلولاته مثبتاً لك شر تعدد الزوجات. ولكن قلما تجد في قصيدة ذاك وأبحاث هذا تأثيراً يهز نفسك كما تفعل هذه السطور القلائل، ليس ما قرأته هنا بمنحدر من الفكر أو بناتج عن الملاحظة والتنقيب. بل هو اضطراب قلب جالت فيه المرارة مكوّنة انات ما لبث القلم أن وقعهن على وفق ضربات القلب الخافق. إن هذه الفقرة لا يكتبها إلا قلم امرأة.

نحن الذين اعتدنا أن نرى في والدتنا سيدة البيت الدائمة وربة المنزل المطلقة لا نستطيع إدراك ما هي عليه طائفة كبيرة من أخواتنا من الشقاء تحت التهديد المتتابع. ولايمكننا تفهم الانفعال الذليل المنحدر بهن إلى مهبط الخوف والقلق واضعاً بين المرأة وبين تقديرها لكرامتها واعتبارها لنفسها هوة عميقة. وقد فطن أحد مقرظي (النسائيات) إلى عجز الأمم غير الإسلامية عن إدراك ذلك فلام الباحثة لوماً لطيفاً إذ قال:

(لقد صورت في ذلك الباب (باب الازدراء بالمرأة) المرأة في نظر الرجل اليوم على نحو ما كانت عليه في الجاهلية الأولى، وهذا أمر قلما طابق الواقع

وهل كان من حرج على السيدة أن توسع المسألة بحثا وأن ترقب اليوم الذي تترجم فيه مقالاتها إلى اللغات الأجنبية فتنشر أحكامها على هذه الأمة في العالم الأوروبي الذي يجهل معنى الغلو البدعي، وأنه من المحسنات في اللغة العربية حيث يعتقد الأوروبيون . لاسيما نساؤهم . أننا اليوم على ما كانت عليه جاهليتنا منذ أربعة عشر قرناً وناهيك بما يحدث هذا القول في العالم المتحضر من الآراء وما يجلبه علينا بعد ذلك من البلاء).

غار حضرة المنتقد على سمعة قومه فأراد ألا تقال الحقيقة كما هي حتى ولا في فم من لا يبغي إلا الإصلاح. ولكن إذا تعمدكتم ما هو جار وسدل الحجاب على شقاء فئة كبرى فلا يكفي تنبيه الباحثة إلى ذلك بل عليه أن يكسر جميع الأقلام الشاكية وأن يسكت زفرات القلوب المكلومة. عليه أن يثلج دماء الشبيبة الطامعة في توطيد دعائم الأسرة وحفظ كرامة المرأة.

عليه أن ينتزع الأفئدة من الصدور لتكف عن الشعور بلوعة التقهقر العائلي. نعم ليكسر الأقلام، وليمزق الطروس، وليسل الألسنة ليجهل الغرب عُلَّة دامية في الشرق. أما باحثة البادية فلم تفكر قط في ذلك بل أثبتت الواقع بصراحة ناشدة الإصلاح فقالت:

(أي ازدراء للمرأة وعبث بحقوقها أشد من أن تخرج كلمة من فم الزوج ساعة غضبه فتفرق بينهما وتشتت ملئتمها وأي أمل لها في مستقبل مظلم لا تدري متى ينهار بنيانه؟ إن الدين لا يسمح بتعدد الزوجات وبالطلاق هكذا على غير شرط كما يفعل الآن رجالنا وإنما جعل لهما شروطاً وقيوداً لو اتبعت لما أنَّ منها النساء البائسات).

أين (الغلو البديعي) الذي يشكو منه هنا الأستاذ المنتقد؟ أين (الغلو البديعي) فيما تقرره الباحثة من ازدراء الشرقيين، مسلمين كانوا أم مسيحيين، بالبنت في جميع أدوار حياتها وتفضيل الصبي عليها قبل ولادته وبعدها؟ وأين ذلك (الغلو) من مسألة الطلاق كما هو شائع الآن؟

نعم إن سهولة الطلاق كادت تلغي من الطبقة العليا ويندر وجودها بين من يغارون على سمعتهم ويفهمون معني احترام الأسرة من الطبقة الوسطي، ولكن هؤلاء هم الأقلية. والطلاق شائع عند الأكثرية شيوعاً كبيراً. وهاك ما كتبته باحثة البادية بعد الاختيار الشخصي:

(وهذه البادية التي أقطن لا أبالغ إن قلت إن جميع نسائها جربن الضرائر. طالما سألت مرأة الحي هذا السؤال: (ترين هل تحبين زوجك الآن كما كنت تحبينه قبل زواجه من غيرك)؟ فكان جواب كل من سألت سلباً. وسمعت عن آخريات أنهن يفضلن أن يرين نعش أزواجهن محمولاً على الأعناق من أن يرينهم متزوجين بآخريات. فيا الله! أإلى هذا الحد يبلغ بغض المرأة للضرة).

إن هذا الموضوع يفتح باب الفصاحة عندها. وإذا قالت حيناً بوجوب الطلاق فما ذلك إلا لأنها تري فيه ما يخفف شقاء المرأة. قالت:

(والطلاق على مذهبي أسهل وقعاً وأخف ألماً من الضرة. فالأول شقاء وحرية والثاني شقاء وتقييد. فإذا كان الشقاء واقعاً على كل حال فلماذا تلتزم المرأة الصبر على الشدة ترى بعينها ما يلهب قلبها ويدمي محجريها؟ ألا إن حزيناً حراً خير من حزين أسير! وبعضهم يخادع المرأة الأولى بأن يجعلها حاكمة

على البيت معها مفاتيح خزائنه. ولكن ماذا تفيد مفاتيح الخزائن والحكم على السمن والعسل وأين هذه من مفاتيح القلوب وحب الزوج)؟

ألا يخيلُ إليك أن هذا الرجل الذي يدور على زوجاته وفي يده حزمة مفاتيح يفرّقها لهو من رجال القمر أو سكان المريخ، أو على الأقل من أشباح الأقاصيص والأساطير؟ ولكن لا! إن ذلك مع الأسف واقع على مقربة منا. ومن إخواتنا من هنَّ ذكيات الفؤاد جميلات الوجه والنفس لطيفات الشعور شريفات الميول، وعليهن أن يحتملنه وأن يصبرن على مضضه لأنه أمر داخل في عادات قومهن! إن باحثة البادية لا ينضب ينبوع إجادتها في هذا الموضوع وما أكثر ما تصيب في نقده مستخرجة منه دروساً أخلاقية كقولها:

(تعدد الزوجات مفسدة للرجل. مفسدة للمال. مفسدة للأخلاق. مفسدة للأولاد. مفسدة لقلوب النساء. والعاقل من تمكن من اكتساب قلوب الغير فكيف بقلوب الأهل والعشراء).

ثم تشرح كلا من هذه شرحاً وافياً في مقال هو من أجمل ما كتبت. بل هو في تقديري أتم فصولها وأبدعها.

على أن مطالبها لا تتوقف عند قلة الضرائر والتفرد في المنزل. بل هي تنكر زواج هذا العصر القائم على الطمع وحب المال وتتطلع إلى تلاؤم الأذواق والتفاهم المعنوي. اقرأ هذا التهكم الممزوج بالغيظ:

(إذا اجتمعوا (المصريون) بسائحة أفرنجية أو امرأة غربية تلطفوا لها كثيراً فساعدوها على النزول من عربتها وأمسكوا لها حقيبتها ورفعوا الطرابيش إجلالاً لها في حين أن أحدهم يستنكف الركوب مع امرأته في عربة واحدة. وإذا سافرت

أو انتقلت إلى محل آخر تركها ونفسها كأنه لم يكن صاحب الأفكار الحديثة القائل بمساعدة المرأة. وإذا ازدحمت الطرقات في موكب أو مولد مثلا رأيت الرجال يدوسون النساء ويضربونهن بالمناكب كأنه زحام الحشر. فهل هذا مبلغ احترام النساء عندنا)؟.

كتبت هذه السطور منذ سنوات عشر. وإذا بقي هذا الوصف منطبقاً في يومنا على جمهور من الرجال فإن هناك عدداً كبيراً من الطبقتين العليا والوسطى قد تغيرت منهم العادات تحت تأثير المدنية، وفعل السفر إلى أوروبا ومشهد الوحدة العائلية (ولو في الظاهر فقط) عند الغربيين. فصاروا يركبون مع زوجاتهم وبناتهم ويرافقونهم في السفر والنزهة. فكثيراً ما يرى الآن الرجل المصري في مركبة أو سيارة وبقربه زوجته ونقابها الأبيض الشفاف يضاعف جمالها الشرقي. ولا يندر ذلك على طريق الجيزة والأهرام وفي الجزيرة، حيث يكثر الازدحام أيام الجمع والآحاد خصوصاً، وفي الأعياد والمواسم الكبرى.

ولئن حملت كاتبتنا على الرجل بلا مجاملة فهي لا توفر المرأة، على أنها تعطف عليها غالباً حتى في خطئها وعثرتها. وتلوم الرجل لأنه القوي ومنه تنتظر المساعدة والقدوة الحسنة. وبدلا من أن يستبد بسطوته فيصير سيداً رهيباً هي تريد أن يستسلم لعوامل الحنان فيصبح صديقاً مؤدباً. قالت:

(وفي اعتقادي أن الرجل لو خفف قليلاً من كبريائه وعلم أن امرأته مساوية له في جميع الحقوق المشتركة وعاملها معاملة الند للند أو على الأقل معاملة الوصي لليتيم لا معاملة السيد للعبد لما رأى منها هذا العناد الذي يشكوه ولا طاعته حباً به لا خوفاً منه. فبنات العصر الحالي حتى الجاهلات منهن يفهمن الحياة أكثر من أمثالهن الغابرات. فأصبحن لا تغريهن الكسوة والطعام فقط

كإحدى خدم المنزل ولكنهن يقدرن اليوم السعادة الزوجية أكثر من ذي قبل ويعلمن أنه إذا لم يكن الحب أساس المعاشرة بين الزوجين فلا معنى للجمع بينهما).

الحمد لله! لقد آن لهن أن يفهمن ذلك ولو تجرّعن في سبيله من العلقم كئوساً! أليس أفضل للمرء أن يسير نحو إدراك المعاني واستكناه الحياة ولو مخطئا ضالاً من أن يظل مستكناً في ليل الذل، راضياً بقيوده، قانعاً بجهله وهو يحسبه عقلاً وطول أناة؟ إنما المرأة في موقف الاستعباد دون الجوامد حسا لأن هذه تستعمل أقصى ما عندها من قابلية الحس، أما المرأة فإن لم تجاهد في تهذيب ما عندها من الملكات كانت قاتلة قواها بيدها. والقوة التي تتبعثر مؤدية إلى الفوضي إن لم تعرف لنفسها قانوناً هي ذاتها إذا دُربت كانت عنصر الارتقاء الرفيع. ولئن عزّ السير بانتظام بعد ليل العبودية الدامس لأن العين التي اعتادت الظلام يبهرها الضياء في بادئ الأمر، لكنها لا تلبث أن تألفه فتتمتع به لاجمة فوضاها مصلحة أحوالها. ليس هذا رأي الباحثة. وسننظر فيما تشير إليه يوم ندرسها مُصلحة. غير أنها لا تنفك عن العودة إلى شعور المرأة ليعتد به الرجل ويجعله مقياساً لأعماله وأقواله.

فقد تختلف عندها ألفاظ الشكوى غير أن معنى الأنين ثابت لا يتغير. كل شيء في نظرها أفضل من (إيلام نفس المرأة وتنغيص حياتها. يا لله! أليس لها من قلب يتأثر وشعور يحس وعواطف تثور)؟

هي امرأة بكل معنى الكلمة. ومن دلائل ذلك أنها تبدي يوماً خلاصة ما يجول في نفسها وتضطرب له جوانحها ثم يشبُ فكرها في يوم آخر فثبت عكس ما جاءت به قبلاً على خط مستقيم. فهل هي مناقضة ذاتها؟ كلا!

بل هي مفصحة عن نفس كثيرة النزعات جمة الميول كأنما هي جوهرة ذات سطوح شتى تلمع في كل منهن ألوان جذابة وأشعة فتانة، بينما عنصر الجوهرة يظل واحداً. رأيت أنها كثيراً ما تستعطف الرجل بلهجة المتوسل المتعمد تنبيه الاشفاق في نفسه. والآن اقرأ واضحك:

(ولا يعطيني أكثر من أن يزعم الرجال أنهم يشفقون علينا. إننا لسنا محلاً لإشفاقهم إنما نحن أهل لاحترامهم. فليستبدلوا هذا بذاك. والإشفاق لا يتأتي إلا من سليم لعليل أو من جليل لحقير فأي الصنفين يعتبروننا؟ تالله إنا لنأنف أن نكون أحد هذين).

بل قد يتأتي الإشفاق من صديق لصديق ومن محب لمحبوب، وحذف الرحمة من القلب يعني حذف الوداد معها في آن واحد. لأن الإشفاق من العناصر الجوهرية المؤلفة عاطفة الحب. والقلب الذي لا يشعر مع من يحب ولا يشفق عليه إلا قليلا إنما هو محب حباً ملأه الجفاف والأنانية والبرد الزئبقي.

لماذا يشفق الرجل على المرأة؟ لأنها تقضي حياتها تائهة في لجج هوّة لا يعرف هو منها إلا الشاطئ، وهو هوة العواطف. للرجل كبرياء الجولات الفكرية والأطماع المتزايدة والقوة البدنية. أما المرأة فمهما ارتقت وتناهت نشاطاً ورغبة في ذرى الفكر ليست بقادرة على أن تستخرج من نفسها آثار ذلك الإرث الذي أودعتها إياه يد العصفور. وهو قوة الشعور، قوة الحب التي تخلق من الكائن الترابي العادي آلهة سامية جليلة.

والمرأة القوية القادرة بإرثها النسائي ضعيفة جداً إزاء نفسها. وفي ذلك ما يستدعي الإشفاق والإجلال معاً. وليس الإشفاق بقاتل الاحترام وتلاشيه، بل قد

يجتمعان متساندين متعاضدين. فكم تشفق المرأة الضعيفة على الرجل القوي وكم تكون قوته ذاتها موضوع عطفها. وذلك لا يقلل من إعجابها به بل كثيراً ما ينتبه حبها وينمو ساعة الشعور باحتياجه إلى مساعدتها. فلماذا لا ينمو كذلك حب الرجل تحت فعل الإشفاق، وكم كان الإشفاق مقدمة الحب، وهل في القلب المغلق في وجه الرحمة العذبة مكان للحب الأكيد؟ ولكن لا يجفلن القارئ لهذه الوثبة الكلامية من الباحثة! إنه سيسمعها بعد حين عائدة إلى الابتهال.

لن أحاول وضع رسم معنوي لها، لأن كل رسم يظل واهي الخطوط إزاء الصورة التي جمعت فيها نفسها بيدها في السطور الآتية:

لماذا يا مي تدعين على بالعذاب المعنوي؟ ألا إنما العذاب البدني أخف منه وطأة وأعفى أثراً. على أني جربت كليهما وذقت الأمرين معاً. تقولين (لأنه النار المقدسة). نعم لقد أعطاني من القداسة مقداراً أكثر مما يجب لمثلي حتى جعل البون بعيداً جداً بيني وبين هذا العالم غير القديس. تقولين إنه (النار التي تطهر). حقيقةً. إنه تلقي وجداني بالتطهير منذ أن كان لي وجدان حتى صيره شفافاً يظهر كل شيء ويتأثر لأقل شيء وهذا فيه من الضنى ما فيه. تقررين أنه (النار التي تحيي). نعم إنه أحيا روحي حتى أحرقها لأنه كان كمصباح سيال كهربائه شديد ولكن فتيلته لا تحتمل (هو النار التي تلين). هذا ما أبديت، ولكن ألا تعتقدين أن اللين يؤذي خصوصاً في هذه الدنيا التي كلها صدام وعراك وأنه لا يفل الحديد إلا الحديد.

إنه ألانني حتى صيرني ماء وما أشد عبث الطبيعة والناس بالماء مع أنه أصل الحياة! وختمت حسن تعليلك لعذابي بقولك إنه (النار التي ترفع النفس

على أجنحة اللهيب إلى سماء المعاني السامية). نعم أنني الآن على أجنحة اللهيب ولكني لم أصل بعد إلى السماء، وإذا وصلتها فلن يعود العالم يراني).

يومئذ حسبت هذه الجملة الأخيرة زهرة من زهرات البيان ولم أكن أدري أنها تبوءة فما تلقيتها إلا اليوم بالتصديق فجاء تصديقي متأخراً! لقد وصلت الآن إلى (السماء) فماذا وجدت هنالك حيث احتجبت عن أبصار البشر متفرغة لاستقبال وجه البقاء؟ إنها أردفت الفقرة السابقة بهذه الجملة: (فهل يا ترى ستعجبني السماء؟ إني أشك في ذلك).

أما أنا، فأعلم أنها هي التي كانت ذات قابلية للتكيف بقالب الأحوال المارة لم تكن راضية عن (الأرض) وسخطها على هذه الكرة هو الذي جعلها تشك في هل (ستعجبها السماء) لقد كانت كجميع ذوي المزاج العصبي، والعصبي الصفراوي المستسلمين للكآبة، شديدة الشعور مع ميل إلى الحزن. وقد قوى ذلك فيها تأثير المطالعة واعترفت به حيث قالت: (أول ما حفظت من الشعر المراثي وأولها رثاء الأندلس. وكنت في حداثتي اقرأ كثيراً ديوان المتنبي وأعجب بنفسه الكبيرة وأظنه هو الذي عداني في ذلك وسمم آرائي. رحمه الله إني ألذ كثيراً بهذه العدوي).

وقد تكون مدينة له كذلك ببعض الحكم المنشورة في فصولها كهذه مثلاً: فالتجربة أرشد معلّم والليل والنهار كفيلان بتأديب من لا مؤدب له.

من الأدوار الثلاثة المهمة التي تستغرق حياة المرأة أي أدوار البنوة والزوجية والأمومة، كانت تحت تأثير الدور الثاني يوم كتبت (النسائيات) لخروجها من دور البنوة الصرف. ولما لم ترزق ولداً ينال نصيبه من عنايتها فقد

ظل اهتمامها محصوراً في موقف الزوجة ومركزها في العائلة والأمة. نعم إنها بحثت في جميع أدوار المرأة المصرية من الطفولة إلى الشيخوخة ولكنها كانت بالزوجية أكثر اهتماماً منها بأي دور نسائي غيره. أما في أحاديثها فكانت تكثر من ذكر أبيها وقرينها مما يدل على مقدار احترامها لهما وتعلقها بهما.

زرُتها مرة وسيدة إنجليزية فوجدنا صالونها مملوءاً بالزائرات المسلمات من والدات وفتيات ودارت بينهن مناقشة فيما إذا وقع خلاف بين أب المرأة وزوجها فأيهما تتبع. فكثرت الأقوال واحتدم الجدال إليأن قالت شابة عروس: (مات أبي منذ سنوات فحزنت عليه حزناً شديداً وما زلت أبكيه إلى يومي هذا، ولكن إذا مات زوجي أموت معه ولن أعيش بعده لحظة لأبكيه). فاعترضت والدة هذه السيدة بلهجة جعلتني أظن أن بينها وبين صهرها سوء تفاهم في أمر من الأمور، وأنها تود استمالة ابنتها إليها، لكن باحثة البادية دخلت بينهما قائلة بلهجة جمعت بين الجد والمزاح: (مكثتُ في دار أبي عشرين سنة ولما تتم لي هذه المدة عند زوجي..) فقاطعها هنا بعض الزائرات قائلات: (ما هذا؟ أتجعلني طول الإقامة ميزاناً للحب)!

قلت إن باحثة البادية امرأة بكل معني الكلمة، فهي لا تريد أن يعرف الجميع خفايا ضميرها ولا تريد أن تجرح زائرتها. وقد كان لديها مع قلمها (الذي كان صريره يشبه أحيانا وخز حربة صغيرة غمست في مداد إنما هو مزيج من مرارة ولهيب) سلاح آخر نسائي محض، وهو الضحك، وما يتقدمه من نظرات لطيفات المعاني وما ينتج عنه من إرضاء الجميع دون إغضاب أحد، والتخلص من المواقف الحرجة بمهارة وبساطة.

لو قالت (تتبع المرأة زوجها) لغضبت الأمهات. ولو قالت (تتبع والدها) لسخط الآخريات. فلم تقل هذا ولا ذاك بل ضحكت في وسط الضوضاء والاحتجاج والاعتراض ضحكة فضية كرنين البلور على البلور، أعقبتها بنكتة صغيرة أقفلت باب الموضوع وأرغمت جميع الحاضرات على الاشتراك في الضحك. وما كان أجمل ضحكة ثغرها، بينا شفتاها القرمزيتان تتلامسان بألفاظ مصرية التركيب واللهجة والمعني!

(٣)

المسلمَة

لئن أجملت هنا ما فصَّلته في النبذة السابقة من حيث إن باحثة البادية (امرأة) في جميع ما كتبت، فيحسن بي الآن المجاهرة بأنها إزاء صفاتها الأخرى (مسلمة) قبل كل شيء. وأي مسلمة هي! مسلمة شغوف بدينها تغار عليه غيرة محب مدنف يقدس الاسم المحبوب، ويرى في كل حرف من حروفه عالم بهاء وعظمة ومجد لا يفني. إن إسلامها لظاهر. في كتاباتها ظهوراً جلياً وأقدر أنها كانت معروفة بالورع بين أخواتها المسلمات. وقد ذكرت ذلك الآنسة نبوية موسي – التي كانت رفيقتها في المدرسة – في خطبة بعثت بها إلى لجنة التأبين وألقيت في الاحتفال المهيب الذي أقامه لها رجال مصر.

هي مسلمة إلى حد إدخال الدين في كل أمر من الأمور سياسياً كان أو اجتماعياً أو أخلاقياً، حتى مسائل الأزياء والزينة والاصطلاحات والأحاديث السنوية. ومما قالته في أسلوب المحادثة بين الزوجين.

(هناك أخرى تقول لزوجها حضرتك وسعادتك فما هذا التكلف البارد! إننا بتسميتنا فلاناً صاحب العزة وتلقيبنا أحد الملوك بصاحب الجلالة لنكفر ونلحد. فما صاحب العزة وذو الجلالة إلا الله الواحد القهار. ولو أنصف كتابنا لحذفوا تلك الألفاظ الدالة على الشرك في كتاباتهم وأقوالهم).

إذا ما وقفت على بدعة مستحدثة ورأت أمراً جديداً سارعت إلى استجواب نفسها هل في ذلك ما يغاير الأوامر الدينية. وإذا ساد نظام بين القوم واستحكمت روابطه بفعل المران والاستعمال والملاءمة لشروط الزمان والمكان دون أن يكون مقرراً في نصوص الشريعة السمحاء فهي لا تحفل به كثيراً، حتى إذا ما أرغمت على قبوله قبلت منه أقل مظاهرة ابتعاداً عن الفكرة الدينية.

ويا ويلمّها عادة لا تروق لها! إنها تثور ثائر غضبها وتتلسح باسم الدين لمكافحتها، ويا لحدة سنان براعها الذي يصبح في تلك الساعة حربة وخَّازة! قالت منتقدة الذين يعلمون بناتهم الرقص والتمثيل.

(لا أعلم عند الافرنجية عادة تساوي (الزار) إلا مخاصرة الرجال في الرقص وما يتبع تلك العادة من التهتك والتصنع والميل عن جادة الصواب وما ينشأ عن إباحتها المطلقة بلا قيد ولا وازع من الضرر البليغ والإخلال بالشرف. وأدهي من ذلك أن ينتشر بينهن مذهب حرية الاعتقاد وهو مذهب من لا يصدق بالله ولا باليوم الآخر فيزعمن إنهن يجتنبن الرذائل بمحض إرادتهن وتربيتهن. ولكن هل إذا منعت الفضيلة امرة عن اتيان ما لا يرضي فهل يصح أن تطبق هذه النظرية على كل امرأة؟ إن النفس لأمارة بالسوء ولقد تقدم على كثير من الموبقات لولا الضمير الحي وهو ثمرة الوازع الديني. أفلا يعقلون؟ أرانا لا نتمسك شديداً بديننا الحنيف وهذا بدعة وعدوة أتتنا من الغرب. أوكلما رأينا إنساناً يفعل شيئاً حاكيناه، وإن كان في ذلك خسارة ديننا ودنيانا معاً؟

(إن ذلك (أي الرقص) مناف للدين الإسلامي هادم للفضيلة مدخل لضار العادات بيننا، فعلينا أن نحاربه ما استطعنا ونظهر احتقارنا لمن تفعله من المسلمات القليلات اللاتي إذا شجعناهن بسكوتنا لا يلبثن أن يعدين الغير منه).

لست أدري هل كَثُر العاملات بهذا الرأي؟ إني شهدت من الهوانم كثيرات ممن اتقنَّن خطوات (البولكا) و(المازركا) و(الفالس) و(التانجو) يراقصن صاحباتهن في اجتماعاتهن اللطيفات. فأي مانع يمنعهن؟ وأي (عار) على امرأة في مراقصة زوجها أو أخيها في المجالس العائلية، أو مراقصة صديقاتها في اجتماعات نسائية؟ إن فن الرقص شرقياً كان أم غربياً، رياضة مفيدة للصحة إذا استعمل باعتدال، فضلا عن أنه يمرن أعضاء الجسم فيكسبها ليناً ونشاطاً وخفة ويحفظها من النشوفة والتصلب، كما أنه درس نافع جداً لتحديد الحركة وتسهيل انسجامها، وهو أفضل مقياس لها.

ويجوز مثل هذا القول في التمثيل. إني عرفت سيدات مثلن في اجتماعات نسائية وسهرات عائلية، لم أرهن رأي العين ولكن قلن لي إنهن يفعلن. ومنهن واحدة تعجب بالباحثة إعجاباً شديداً بل هي من أعز صديقاتها اللاتي يحبنها حباً جماً، وقد اجتمعت بها للمرة الأولى في صالون باحثة البادية نفسها. زرت هذه السيدة منذ عامين أو ثلاثة وأخذنا نتحدث عن بعض الروايات التمثيلية فذكرت رواية مثنية على حسن تأليفها وبراعة تنسيقها، ثم قالت: (لقد تقاسمنا أدوارها في الأسبوع الماضي ونحن منهمكات في هذه الأيام بدرسها لأننا سنمثلها أنا وصديقاتي أمام طائفة من معارفنا وزائراتنا).

كانت الباحثة في الفيوم يومئذ إلا أنها كانت تراسل صديقتها هذه كل أسبوعٍ تقريباً، ولا أدري هل علمت بما كان يشغل صاحباتها مما أنكرت اتيانه بالحدّة التي تعلم.

أما مسألة (الشرف) فيصعب حلها جداً لأنها من الكلمات التي يستعملها البشر غالباً في غير محلها، ولها رنين يقرع السمع كالأجراس ولكنها في الحقيقة

أمر نسبي- كجميع المعاني البشرية. الشرف في اعتقادي أسمى وأنقى كثيراً من أن يتلوَّث بالغبار الذي تثيره خطوات (الفالس) بل هو أرق لطفاً وأصفى جوهراً من أن تدانيه يد الإنسان. على أني أفهم أن الباحثة لم تقصد الرقص على الاطلاق لأنها لم تذكر الرقص الشرقي، بل هي عنت مراقصة الرجال للنساء على الطريقة الإفرنجية.

والآن أشعر بأني جالبة على نفسي حكماً شديداً من أبناء الطرز الحديث لما أنا مجاهرة به. إنهم ينحنون أمام المرأة المحجوبة ولكنهم لن يكونوا لي من الراحمين. أنا فتاة سافرة تسري على عادات مجتمع هو أقرب إلى (التفرنج) منه إلى أي نزعة أخرى. وقد تعلمت الرقص واشتركت مع قومي في السهرات الراقصات ولم أر فيها شيئاً أن يسمي (إخلالاً بالشرف) ولكني.. ها قد وصلت إلى الخطوة الرهيبة.. ولكني لا أريد للمرأة اختلاطاً كبير بالغرباء وأكاد أقول إني لا استحسن مراقصة الرجال للنساء.

أما الآن وقد فُهمت بهذا الإلحاد الاجتماعي الهائل فقد (نمرني) أهل العصر وحشروني في فصيلة المتقهقرين والرجعيين. اللهم لك الحمد والشكر على كل حال! وإذا نادت بالإصلاح العائلي استشهدت بالله متهددة الظالمين وقالت:

(الا فلينتبه الرجال وليتقوا الله في نسائهم وليعلموا أن التقوي مطلوبة في السر والعلن وإن الله يرى). (يا قوم تداركوا الأمر.. وسنّوا سنة صالحة لأبنائكم وبناتكم من بعدكم يكن لكم آخرها إلى يوم الدين ولله عاقبة الأمور).

وقالت في إصلاح طريقة الزواج ووجوب اجتماع الخطيبين قبل عقد الخطبة استناداً إلى ما كان يتم وقوعه في الماضي:

(يرى أكثر عقلاء الأمة أنه لابد للخطيبين من الاجتماع والتكلم قبل الزواج وهو رأي سديد لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة يعملون غيره).

مما يجعل مسألة الزواج عندنا (أي المسلمين) هينة لينة إباحة الدين الحنيف الطلاق وتعدد الزوجات، ولكن حاشا أن يكون قصد الشارعُ ما نراه الآن من الفوضى في أدق الروابط الاجتماعية ومن نقض عهود الأسر وقلب نظاماتها. فإن الأديان لم تخلق لجلب البؤس وإنما خلقت لإسعاد البشر. (طريقة العرب على عهد النبي ﷺ وما بعده في أمور الخطبة والزواج طريقة شريفة معقولة إذ لم يكن الحجاب حينذاك كما هو الآن. وإني أجاهر بأن حجابنا مقلوب ونظام اجتماعنا فاسد أشد الفساد لا يصلح ولن يصلح أن تتبعه أمة متمدنة)(١).

وإذا قرّرت بعض مساوئ الرجل وأشارت بأمر عمدت إلى وصية الشارع العربي كقولها:

(اللهم إن رجلاً هذه أخلاقه مع زوجه وهذا مبلغ جشعه لخليق بأن يفارق ولكن المداراة، مما أوصى به النبي ﷺ فلتداره ما أمكن فلذلك خير لهما من الخلاف).

وقد قالت بتعليم المرأة أصول الدين مرة بعد مرة فصرَّحت بمطالبها في الخطبة الأولى التي ألقتها في نادي حزب الأمة ثم جعلتها أساساً لاقتراحات قدمتها إلى المؤتمر الإسلامي المصري، وخلاصتها وجوب تعليم البنات (تعاليم القرآن والسنة الصحيحة) وأن يباح للنساء الذهاب إلى المسجد لسماع الوعظ والخطب والإرشادات الدينية وحضور ما يقام من الصلوات والاحتفالات كنساء

الأديان الأخرى من مسيحية ويهودية. وكان لهذه الاقتراحات صدى استحسان عند الجميع عند أرقى المسلمين فكراً وأوفرهم علماً.

فكتب الأستاذ لطفي السيد بك في مقدمة (النسائيات) مستصوباً مؤيداً فقال: (ولو صح نظري لكانت قاعدة بحثها في تحرير المرأة قاعدة الاعتدال ورائدها في ذلك الشرع الإسلامي). إلى أن قال: (وقصارى القول إن باحثة البادية قد أجادت كل الإجادة في أن جعلت أساس بحثها تقرير المساواة لا على جهة الإطلاق بل في حدود الاعتدال والدين).

ووردت الأبيات التالية في ردِّها على قصيدة شوقي بك المشهورة:

أما السفور فحكمه ... في الشرع ليس بمعضل
ذهب الأئمة فيه ... بين محرّم ومحلَّل
ويجوز بالإجماع منهم ... عند قصد تأهل
ليس النقاب هو الحجاب ... فقصري أو طولي
فإذا جهلت الفرق ... بينهما فدونك فاسألي
من بعد أقوال الأئمة ... لا مجال لمقولي
لا أبتغي غير الفضيلة ... للنساء فأجملي

وإن لها في مدارس الراهبات رأياً صارماً جائراً.

قالت: (وهذه الفئة الجاهلة الدعية في العلم هي ولا شك فئة خريجات مدارس الراهبات وكثير من المدارس الأهلية الأخرى. وحسبك وقوفاً على مبلغ هؤلاء أن تسألهن سؤالاً بسيطاً عن بعض ما يلقينه على مسامعك مثل البغاء فلا يحزن جواباً. ثم إن إحداهن لتسمعك تاريخ فرنسا ولا تكاد تأخذ نفسها من

سرعة الإلقاء. وإذا سألتها عن عمر بن الخطاب أو صلاح الدين الأيوبي أو محمد الفاتح وأضرابهم من حماة الإسلام قالت لك لا أدري). و(مدارس البنات كلها في مصر خلا مدارس الحكومة الثلاث لا أثر فيها للنظام وليس فيها إلا تظاهر بالعلم ورياء وهي في اعتقادي لا تصلح مطلقاً لتربية البنات المصريات. وبالجملة أقول إن أحسن مدارس البنات في مصر هي مدارس الحكومة أخلاقاً وعلماً على أنها لاتزال تقبل الإصلاح والرقي).

حسبنا شهادة لمدارس الحكومة أنها أنجبت باحثة البادية ومن حذَون حذوها. أما المدارس الأهلية التي قالت فيها الباحثة ما قالت فأنا لا أعرفها إلا بالاسم فلا يمكنني تولي الدفاع عنها. ولكني أعرف بعض مدارس الراهبات حق المعرفة وإني لأجاهر بأن انتقاد الباحثة لا ينطبق عليها. وقد تكون الباحثة عثرت صدفة على فتيات (تخرجن في مدارس الراهبات وهن لا يعرفن إلا العزف على البيانو والرطانة ولسن من العلم والتهذيب في شيء، وهن على جهلهن هذا شامخات بأنفسهن نحو السماء فيقضين وقتهن بين حديث خرافة وخروج من الشوارع وهنَّ على العموم أكثر النساء إسرافاً وتبذيراً فضلاً عن البهرجة وقلة الحياء). وكن سبباً في تكوين حكمها هذا الشديد.

ولكن إذا وُجد مثل هؤلاء بين خريجات مدارس الراهبات فلا تعدم أضرابهن المدارس الأخري، ويوجد مثلهن بين اللائي لم يتخرجن إلا في منازل آبائهن على يد أمهر الأساتذة وأفضل المؤدبين. كذلك أنجبت مدارس الراهبات نساء كن سعادة ذويهن ونور محيطهن كما أنه قد يرى من أفضل النساء في طائفة لم تتلقن العلم إلا من ذكائها الفطري ولم تتناول قواعد التهذيب إلا من الوجدان السليم.

إن تأثير المدرسة وتأثير الوسط عظيم جداً ولكنه ليس له القدرة المطلقة. والأهمية الكبري إنما هي في قابلية التلميذ واستعداده. لقد قال أرسطو مرة: (إن عقل الطفل كالشمع اللين يكيفه المعلم كيفما أراد). فاقتبس هذه النظرية قوم من علماء الأخلاق وجعلوها أساساً لتعاليمهم لكن ما أكثر الذين قاموا يناقشونهم ويدحضون أقوالهم من المعارضين! ومن البدهي أن المدرسة لو كانت ذات فعل مطلق شامل متماثل لما رأينا الفروق الكبيرة بين طلبة المعهد الواحد والاختلاف الجوهري بين تلامذة الفرقة الواحدة المستقين العلم من أستاذ واحد المنفعلين بتأثير مؤدب واحد. ترى لماذا لم تخرج لنا تلك المدرسة العزيزة وذلك القسم الدراسي المبارك إلا (باحثة البادية) واحدة لا ثانية لها؟

لستُ بمدافعة عن مدارس الراهبات لمجرد الدفاع، ولكني تربيت فيها سنوات أربع فاختبرتها بنفسي كما أني اختبرتها في غيري من بنات عمي وقريباتي ومعارفي اللاتي تهذَّبن وتعلمّن فيها. لم أجد فيها العيوب المذكورة في (النسائيات) بل ما يناقضها على خط مستقيم منها الترفع الكثير عن الدنايا، والجري وراء مثل أ على قلما يتراء في سبُل الحياة العادية، ورفع النفس إلى ما وراء المرئيات، والإكثار من الصلاة والتطرف في العبادة مما يؤهل الفتاة لاعتناق الحياة الرهبانية فتظل مدة بعد رجوعها إلى البيت. حائرة في دوائر الهيئة الاجتماعية، غريبة بين هؤلاء البشر الذين يجهلونها ولا تفهمهم.

وعلى رغم تلك العيوب مازال الآباء يتهافتون على هذه المدارس، ورجال من أفضل المصريين حصافة وأوسعهم علماً يأتمنونها على بناتهم واثقين بأن نوع التربية الذي ينلنه بين تلك الجدران الصامتة لهو من خير الأساليب التهذيبية.

أما النقص الشائن في إهمال تدريس التاريخ الإسلامي والتواريخ الشرقية الأخرى وإتقان اللغة العربية فإن اللوم فيه عائد على الأهل. إذ أي شيء يمنعهم عن تعليم ما يريدون لبناتهم بعد خروجهنّ من المدرسة؟ وذلك يسهل عليهن يومئذ لأنهن يدرسن مختارات لا مرغمات فيجدن لذة تخلو منها أكثر الدروس المدرسية الجبرية ويقفن على كثير في وقت قليل. إن الأجانب يهبطون ديارنا لترويج لغتهم ونشر علومهم وتاريخهم.

وفي معرفتنا للغاتهم وآدابهم وتاريخهم وعلومهم سلاح في يدنا وقوة نجاهد بها في ميدان المسابقة المفتوح لنا ولهم وهم فيه غالباً – غالباً فقط؟! – فائزون، وهل يكتفي المرء في هذا العصر بكونه حافظاً لتاريخ الشرق مستظهراً متون سيبويه وحواشي الصبان إن لم يكن له إلمام بمعارف الغير مع إتقان لغة أجنبية واحدة على الأقل؟ إنَّ ناموس تنازع البقاء ليقضي علينا بذلك وإن أحكامه لنافذة سواء شئنا أم لم نشأ. فإن لم نسر بحكمة مع النظام سرنا جهلاً ضده. ومن ذا الذي يستطيع معاندة ما لا يعاند ومغالبة ما لايغالب؟ فإن لم تجر مع دولاب الحياة انقلب علينا فكنا فريسته المنسحقة تحته.

لندرسن علوم الأجانب من جهة ولندرسن تواريخنا من جهة أخرى نكن جامعين بين المعرفتين أقوياء بالقوتين. ومن لم يكن مهتماً بشئونه فكيف يتوقع من الغير بأحواله اهتماماً؟

سيرى فريق أن باحثة البادية كانت متعصبة. ذلك مما لا ريب فيه وكيف ينتظر أن تكون غير متعصبة؟ أليست بشراً، أو ليس التعصب من أشد العواطف ملاصقة للنفس؟ حدِّثوني عن تسامح من لم يكن متعصباً لأضحك قليلاً! مَن هذا

الشخص ومن أي مُذنب مجهول في فيافي الفضاء قد هبط علينا؟ العالم في مكتبه، والمحسن في كرمه، والشاعر في عزلته، والفيلسوف في تأملاته كل من هؤلاء متعصب تعصباً يتفاقم شره كلما كان خفياً تحت مظاهر الحلم والتساهل.

وإني لأرى استعمال المفرد في التعصب سخيفاً بل هناك تعصبات يجوز عليها جمع الجمع وجموع الجموع إلى ما لا نهاية له. فالتعصب الجنسي والقومي والعلمي والفلسفي والأدبي والاجتماعي والحزبي والفردي وتعصبات أخرى لا أسماء لها تسير موكباً هائلاً سرياً لا يبرز فيه إلا التعصب الذي نعته بالديني. قال قائل إن التاريخ سلسلة حروب وإن الشاب الذي لا حروب له لا تاريخ له، ولو قلنا إن الحروب إجمالاً وتفصيلاً ليست إلا حكاية تعصّب البشر لكنا معبرين عن الفكرة نفسها بكلمات هي أقرب إلى معنى الصدق. كثيراً ما أسائل نفسي: ترى هل يهدأ يوماً ثائرُ العواطف المتطرفة وتتوازن قوى الإنصاف فيرتفع المرء بإدراكه إلى أفق يشرف منه على جميع النزعات الإنسانية؟ تُرى هل يفطن البشر يوماً أن كلا من الميول وكلا من الأديان ينطبق دون غيره على مطالب فئة واحتياجاتهم، فلا تطمئن منهم النفوس إلا بالتمشي مع نصوصها؟ لو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة، فمتى يذكرون؟ وما يسمونه عند الآخرين تعصباً يدعي عندهم غيرة قومية ونخوة وحمية، فمتى يذعنون؟ ومتى يقولون مع الشاعر:

هذه المذاهب كلها دين الهدى كأشعة الشمس افترقن إلى مدى

والملتقى في مصدر الأنوار

كانت العاطفة الدينية مختلطة عندها بالمعاني القومية والاجتماعية كما هي حالها عند أكثر البشر، وإن كانت عند المسلمين أوضح منها عند غيرهم. فإذا

تكلمت في اجتماعاتنا في مسائل إسلامية كنت أرى يدها تشير ببطء وعظمة ورأسها يرتفع مفاخراً. فأذكر إزاء هاتين الحركتين كلمة الشاعر الإسباني القائل: (إنما في عروق الشرق جميع الدماء ملوكية) ويا طالما لمحت على تلك الجبهة السمراء الجميلة خيالات عز الإسلام تموج بين عقارب شعرها الأسود! فأحدّ قإذا ذاك في شفتيها الصامتتين وأراهما تتكلمان بلا حراك، وجمودها يعبّر عن كلمات حائرات عليهما. وقد حسبتهن قول الشاعر:

(توّزِع قلبي حبكم وهو غـــالبٌ وحقـــدٌ علـــى أعـــدائكم يتســـعرُ

ولو كان لي بأس على قدر غيرتي لكـان لكـم منـه حصـون وعسـكرُ

أجـود بروحـي غيـر أن ســـبيلها إلـيكم كمـا شـاء الهـوي متعـذّرُ)

(٤)

المصرية

المصرية من باحثة البادية مصريتان: مصرية بظُرفها ومصرية بوطنيتها.

مَن لا يعجب بالظُرف المصري الذي يبدو أدباً وحسن مجاملة في المعاملات، ويتناقله المتحادثون نكاتاً تمر في الحديث فتجعله ذلذعة لطيفة تشرح القلب وتبهج الخاطر؟ إن لكل من الشعوب صفة كهذه التي يسميها الفرنسيون (**esprit**) والأنجلو وأمريكيون (**thumour**) وهو رسم جولة الفكر منهم ما مع ما تتضمنه من وخز (يفلفل) الأحاديث والمناقشات فيحميها من الملل الذي يتهدد جميع العلائق البشرية إذا استمرت على وتيرة واحدة.

تتكوَّن الشخصية الجاذبة من عنصرين اثنين: أولهما ثابت لا يتغير وهو الطبع، والآخر يرفرف متنقلاً وهو الظرف. ولئن كانت قيمة المرء الأخلاقية وكرامته وعظمته في العنصر الأول وهو القوة الأصلية الجاذبة، فإن الظُرف (إذا كان طبيعياً لا تكلف فيه) ينقذ الانتباه من تعب التوتر إذ يمزج الطبع الجدي العبوس بشيء خفيف رشيق وثَّاب يرضي دائماً إذا كان خاضعاً للذوق السليم.

وجميع الأقطار العربية تعترف للمصريين بالمقام الأول في عالم الظرف (كما في آفاق معنوية أخرى) ويساعدهم على التفرد به لفظهم ولهجتهم ونكتهم اللاذعة. وقل مَن من الأوروبيين يفهم ذلك لأن فكرهم على توقده وانتباهه لا

يستطيع الوصول إلى الدقة الشرقية الخفية. أيكفي التوقد والانتباه لمن يطلب التفهم؟ أليست هناك صفة أخرى تصيب جوهر المعاني والأغراض بوثبة واحدة، وهي البداهة التي كانت وستظل دائماً قوة النفس الشرقية؟ وهذه الدقة المتوارية إزاء النظر الغريب أليست هي البادية في السلّم الموسيقي عوارض كثيرة التجزئة غريبة الأوضاع؟ تلك العوارض أخذ بعضها نفر من كبار الموسيقيين في الغرب ونظمها بياناً فنياً جميلاً، على أن الجمهور الأجنبي مازال يحسبها خطأ وخللاً موسيقياً في حالتها الشرقية الصرفة. مع أنها هي الجاعلة لموسيقانا سذاجتها وفعلها الأليم المستحب.

للسان المصري سلطان يحنو له الكلام، وللمصري سرعة خاطر مدهشة لا تكلّ ولا تنضب وألفاظ كالسلسبيل حلاوة، ولكن هذه الميزة تظهر على أتم ما تكون في المصري الراقي الذي يرفع المعاني المتداولة إلى أوج فكره ثم يظهرها جديدة الأنس والسلاسة تتبعثر فيها الملح الحسناء ورءوس حراب صغيرة تتهدد بالوخز كثيراً ولا تفعل إلا نادراً.

كل ذلك في باحثة البادية محدثة وكاتبة. خفة الروح ترفرف على جميع سطورها. إنها تستوقفك الوقت بعد الوقت بنكتة غير منتظرة وتهكُم شائق يناسب الموضوع. كقولها في انتقاد الشراسة العابسة التي يستعملها بعض الشرقيين في منازلهم:

«زرت مرة سيدة ممن ابتلين بمثل هذا الزواج القاسي وكنا نتكلم، وأولادها الصغار يلعبون قريباً منا وبناتها الشابات يضحكون وإذا بهن سكتن فجأة وارتبكت أمهن وغارت أعينهن وعلاهن الإصفرار وقامت إحداهن تهرول إلى الصغار لتسكتهم والثانية تتسمع على السلم والأخري تري ماذا يمكنها ترتيبه في

حجرة والدها. تعجبت من هذه الحركة الفجائية، وسألت عن الباعث لها فأخبرتني السيدة والحزن باد عليها وتكاد لا تنطق إلا همساً (إن البك ربما يكون قد حضر). فقلت في نفسي إذا كان كل هذا الاضطراب وفي حضوره شك فماذا يفعل هؤلاء النسوة إذا قيل لهن (إنه قد والله حضره؟).

ظرفها يبدو في الغالب تهكماً سليماً لا مرارة فيه ترطبه البسمة التي لا تبعد عنه كثيراً، ويعجبها أن تستعمله لإيضاح أغلاط الرجل. ولو كنت رجلاً لجزلت لشراستي المزعومة، وضاعفتها أحيانا لتوحي إلى الباحثة مثل هذه النكتة المليحة:

(فما أقدر زوج الضرتين على التفنن! ولو أنصفوا لعينوا زوج كل اثنتين سياسياً أو ناظراً للمستعمرات! (ولكن الذي يؤسف له أنا ليس لنا مستعمرات).

وهذه غيرها:

(يقول لنا الرجال ويجزمون إنكن خلقتن للبيت ونحن خلقنا لجلب المعاش. فليت شعري أي فرمان صدر بذلك من عند الله). (إنهم لو أنصفوا ولم يتحزبوا لما عيرونا بأننا قليلات النبوغ وأنه لم يسمع بأن إحدانا غيرت قاعدة في الحساب والهندسة مثلاً. وليتفضل أحدهم بإخبارنا عما استنبطه من تلك القواعد. فنحن نعترف لرجال الاختراع والاكتشاف بعظيم أعمالهم ولكني لو كنت ركبت المركب مع كريستوفر كولومبس لما تعذّر على أنا أيضا أن أكتشف أمريكا).

ودونك هذا الوصف الحي في غاية الحياة لأنه ينطبق على بعض مشاهدات واقعي. ولكنه يتناول المرأة هذه المرة:

(تسافر المرأة الأفرنجية الآن أو البدوية وحدها فتركب القطار أو الجمل وسرعان ما تحمل متاعها أو تحضر من يحمله لها بلا ضوضاء. أما المصرية فلا تسافر إلى محطة قريبة إلا ومعها من الخدم والأقارب من تعطلت أعمالهم من أجلها ثم تجدها لا تكاد تحرك رجلاً لتنزل حتى يتحرك القطار وإذا ساعدها الله (والأولياء!!) ونزلت فما أكثر ما تفقده ولا تجده. ضاعت حقيبة المصوغات وانسكرت القلة فبللت حبرتها واشتبك برقعها بمفتاح العربة فانقطع خيطه، وإذا لم يسرع حشمها في التقاط أطفالها فقد يقع أحدهم تحت العجلات صريعاً)

صدقت الباحثة. إن طائفة من النساء الشرقيات لم تتهذب منهن الحركة فإذا مشين شعر الرائي بأنهن منتبهات لحركاتهن مرتبكات فيها. وربما سرن على غير هدى فيصطدمن بما حولهن من أثاث وجدران ويقلبن مرغمات ما على الطاولات من إناء ومزهرية وكتاب. قد يكون هذا راجعاً إلى دور الانتقال الذي نحن فيه من القديم المنبوذ إلى الجديد المحبوب ودور الانتقال يظل أليف الحيرة والتخبط والتردد إلى أن يقوّمه المران وتألفه العادة، ولكن من الشرقيات عموماً والمسلمات خصوصاً من هن موزونات الحركة موزونات الكلمة يعد ما ينقضي معهن من الأوقات لحظات أنس وهناء.

ينتشر ظُرف الباحثة غالباً في سطور كما رأينا في النبذ السابق ويجتمع أحيانا في كلمة واحدة أو جملة مختصرة كقولها في نقد الحبرة العصرية:

(إن نصف إزارنا السفلي مرط (جونيله) لا يتفق مع كلمة حجاب ولا مع معناها ولا مع الحكمة منه. أما نصفه العلوي فهو كالعمر كلما تقدم قصر. أما البرقع فأشف من قلب الطفل).

كذلك تظل يدها سائرة على هواها والنكتة جزء من معانيها. وقد تدري بها فتضحك لها بعد رسمها على القرطاس، وقد لا تلتفت إليها مطلقاً. فتبقي في إعراضها والظرف يتسرَّب بين مقاطع الخطاب حتى يجيء الانفعال الشديد يهزها فتتطاير إذ ذاك من حول صحيفتها أسراب الملح والنكات والتهكم ويتفرَّغ البراع لصب مقذوفات العاطفة المشتعلة والشعور المُعاني.

أما المصرية الوطنية فمضمرة دائما وإن لم ترفع القناع إلا الوقت بعد الوقت. وربما تكلمت الوطنية أحيانا باسم الإسلام وتارة باسم الشرق بأسره كقولها:

(إننا لو سلمنا بما يقترحه الكتّاب من ضرور تقليد الغربيين في أمور معاشنا ولباسنا وزي بلادنا مما قد لا يوافق روح الشرق فإننا نندمج فيهم ونفقد قوميتنا بمرور الزمن وهذا هو ناموس الكون إذ يفني الضعيف في القوي وإنه لمن المعار أن نهمل هذا الأمر يجري مجراه. فأدعو الكتّاب والباحثين للتفكير فيه وفي إيجاد مدينة خاصة بالشرق تلائم غرائزه وطبائع بلاده ولا تعوقنا عن اجتناء ثمار التمدن الحديث).

رأي في منتهى العقل والاعتدال وأخاله يتفق غرضاً مع الجمعية النسائية التي تألفت في هذه الأيام لمقاومة تيار المدنية الأوروبية في هذا القطر. أنا الشرقية المُحبة لكل ما هو شرقي أتمنى لكل من أقطارنا طابعاً شرقياً، لكن حسن أن يبسط المرء مدى فكره إلى ما وراء حدود ما يتمنى، لأن جدران (التمني) ضيقة أحيانًا. ثم إذا مال الإنسان إلى أمر ووجد من نفسه دافعاً يحمله على طلب ذلك الأمر بقوة كان ملبياً سرياً منبثقاً من أعماق مزاجه. وكأن خفايا المزاج تعلم

أن في الأمر المطلوب ما يكمل منه قوي لم يبرز إلا بعضها أو أن في ذلك الأمر اقتداراً لتنبيه قوي جديدة مجهولة.

إذ ذاك ما تنفع الآراء، وهل يستفيد المرء منها حقيقة ولو تظاهر بالإصغاء والطاعة؟ إن كان من قوة الإرادة بحيث يتيسر له التملص من هذا الانجذاب فهل في ذلك خيره أم كان خاسراً ظرفاً من الظروف النادرة التي تهيئها الحياة لتوسيع الممكنات وإنماء الملكات؟ تُرى هل فنيت قوة اليابان منذ احتضنت المدنية الأوروبية واستخدمت مظاهرها أم تحسب اليابان من الرابحين؟

أما ساعة تتكلم الباحثة بلسان المرأة فهي تحذف اسم الشرق والأقطار الإسلامية ولا تهتم إلا بالمرأة المصرية دون غيرها كقولها:

(إن من يتصفح تاريخ المرأة المصرية الحديثة يرى أنها كانت دائماً مظلومة مهضومة الحقوق. ففي عصر إسماعيل هجم علينا جيش من الشركسيات انهزمنا أمامه خرج ظافراً منا بأحسن رجالنا فلم يكن شرف ولا نابه بمصر إلا وأم ولده جارية شركسية من شراء إسماعيل. ثم ابتدأ رجالنا بعد ذلك الزمن يتزوجون بالأوروبيات). (أما وقد صار الآن بمصر من المتعلمات من يصلحن للزواج بأبناء جلدتهن أفليس من العار أن تقدر على أن تجعل ابنك شريفاً من أم ذات حسب فتختار أن يكون ابن جارية شركسية أو راقصة أوروبية؟). (ألا رب معترض يقول: إن قد بطل الرق الآن وإن من يصاهر الترك يصاهر اكفاء. هذا صحيح ولكن الأم تغذي الطفل بأميالها وطباعها كما تغذيه بلبنها فإذا ما حنت التركية لوطنها (وكل يحن بالطبع لوطنه) نشأ مُتشبعاً بأميالها يحب تركيا ويميل عن مصر وهو معدود من رجالها. (وسبب فشل المصريين وعدم ميلهم الفطري للاتحاد هو على ما أري ناشئ عن تشعب أجناس أمهاتهم. فابن الفرنسية يحب فرنسا وابن الزنجية يذكر

خصب السودان وابن العربية يفتخر بمحتده وولد المغربية لا يفتأ يذكر بلده، وهكذا أضعنا وطنيتنا المصرية عن طريق المصاهرة بالأجانب).

(ثم أجدني محقة إذا قلت إن الدم يحن إلى نوعه فإذا تكافأ الرجل والمرأة في العلم والتربية وكانا مصريين مثلاً فإن الحب بينهما يكون أصدق وأمتن منه لو كانا مختلفي الجنس).

عندي اعتراض صغير على كلمتي (أصدق وأمتن). إن للحب درجة واحدة من المتانة والصدق وتلك الدرجة كعبة تدركها قلوب المخلصين قبل أن يفطنوا لها، بل إن الإخلاص المجرد من انتباه الشخص المخلص لوقوع إخلاصه كان دائماً من الصفات الودادية الأولية. ثم إن الحب هو العالم الأنور والأفق الأطهر الذي تتلاشى عنده كل جنسية وكل تحزبٍ، ولا يخطو بابه إلا المخلصون. كلا لا تكون الحب (أصدق وأمتن) بين مصري ومصرية منه بين مصري وفرنسية أو إنجليزي وزنجية، إلا إذا أرادت باحثة البادية أن أبناء الوطن الواحد والطبقة الواحدة يكون لهم في الغالب أذواق متشابهة متقاربة فلا يولّد الاحتكاك فيما بينهم نفوراً. وهي نظرية أصادق عليها نصف مصادقة فقط لأن أخوّة الجنسية والطبقة لا تعني أخوة النزعات. كم من الناس رأوا أنفسهم منعكسين في مرآة نفوس الغرباء المختلفين عنهم جنسية وعقيدة وأطماعاً ومصالح، فكانوا معهم متفاهمين متفقين لأنهم وجدوا أن بينهم وبين هؤلاء الغرباء علاقات معنوية وقرابة روية لم يربطهم مثلها بذويهم وأقرب الناس إليهم! ذلك لأن للنفوس والميول وطناً غير وطن الجسد. على أن هذا لا ينفي أن أبناء الوطن الواحد أقرب إلى الاتفاق فيما بينهم إزاء المصلحة الوطنية.

باحثة البادية تحب كل ما هو مصري. ما ألطف هذه الكلمة في وصف اللون المصري:

(وما أحلى السمرة الجاذبة لو فهمنا معناها. إنها جميلة لأنها جميلة ولأنها مصرية ولو لم يكن فيها غير المصرية والطبيعة لكفي).

وكم من رجل وامرأة في مصر يستحقان هذا التعنيف:

(إننا في مصر ولكننا لا نعرفها. أرأيت أغرب من مبصر أعمى؟ إن الأهرام على قيد فلتة العيار من القاهرة ولكن كثيرات منا لم يزرنها والآثار تخبرنا عنها السائحات الأجنبيات فنبدي جهلاً مزرياً ونعجب مما يقصصن علينا وتاريخنا مبعثر في الأرض من قديم وحديث ولا من تلم به حياً من غير الكتب الجامدة الخالية من الروح).

على أن وطنيتها أتم وضوحاً عندما تعِالج الموضوع الذي يكثر عودها إليه وهو ألا يأخذ أبناء هذا الوادي من مدنية الغرب إلا ما لا بدَّ من أخذه، على شرط أن يصطبغ بالصبغة المصرية ويتسم بالطابع الوطني، كقولها:

(فانصراف شبابنا لتلقي العلوم الحديثة في أوروبا يجب أن يكون لخير البلاد لا لشرها. فكما يتعلمون لنفع أنفسهم يجب أن يقرنوا ذلك النفع بنفع مواطنيهم أيضاً. فواجبهم الوطني يقضي عليهم أن يدخلوا كل ما يرونه صالحاً في بلادهم مع الاستغناء عن الأجنبي على قدر الإمكان. فصانع الحرير الوطني إذا رأى معامل أوروبا وسرعتها وجب أن يشتري لبلاده الآلات اللازمة لسرعة إنجاز العمل لا أن يدخل تلك الصناعة بعينها ويقضي على صناعته الجميلة فيكون قد

اقتبس شكلاً وأبطل آخر، فنحن إذا اتبعنا كل شيء قضينا على مدينتنا. والأمة التي لا مدنية لها ضعيفة هالكة لا محالة).

(إذا أردنا أن نكون أمة بالمعنى الصحيح تحتم علينا ألا نقتبس من المدنية الأوروبية إلا الضروري النافع بعد تمصيره حتى يكون ملائماً لعاداتنا وطبيعة بلادنا. نقتبس منها العلم والنشاط والثبات وحب العمل. نقتبس منها أساليب التعليم والتربية وما يرقينا حتى نبدل من ضعفنا قوة. وإنما لا يجوز في عرف الشرف والاستقلال أن نندمج في الغرب فنقضي على ما بقي لنا من القوة الضعيفة أمام قوته المكتسحة الهائلة).

ما أجمل هذه العبارات معنى ومبنى وما أوفاها حصافة وحكمة! إنها لتستفز الحمية وتدعو إلى التصفيق وها أنا أُصفق لها بقلبي وراحتي.

ليس بين المعاني الاجتماعية ما هو أدعى إلى التحمس والطرب من اسم الوطن لأن الوطن كل شيء. فهو الأهل والأحباب، والدموع والابتسامات، وهو القبور الغاليات ومهدُ الذراري المقبلات. هو مجموعُ الوارثات الأثرية والتاريخية والأخلاقية والعلمية والعملية، كما أنه الفجر وأجواق بدائعه الذهبية والغروب بسرادقه المهيب المنصوب فوق جيوش السحب المتلمعة.

هو العلَمُ الذي ترتعش لتلاعب النسيم بأهدابه ذرّات القلوب.

نحن الذين أحببنا من مصر جمالها الطبيعي وجلالها التاريخي وعظمتها الأثرية وعذوبة بنيها وبناتها، نحن الذين أحببنا من مصر كل شيء نعلم أن مصر الحقيقية، مصر الصميمة، كانت تلك السائرة عالية الجبهة وراء أعلامها المنشورة. مصر هي تلك الشبيبة الطامح إلى الارتقاء وتلك الأمة التي لها من

فطنتها ما يذكرها أن طريق التقدم ليس بالتخريب والتشويش والتدمير، بل الهدوء والعمل والتفكير. مصر هي المرأة المصرية التي أرتنا في هذه الأيام أن فيها ما كنا نتمناه لها وهو ينتظر أن تنبه يد الأحوال ليبدو مُطوراً. ما كان ألطف البسمات النسائية أيام المظاهرات وراء النقاب الأبيض، وما كان أبهج الأعلام المصرية المثلثة الأهلّة الموحدة الصليب تلوحها الأيدي النحيفة! وما أحب الأصوات الشجية الخافتة تنشد أناشيد العز وتهتف هتاف الحماسة!

لترقد الباحثة بأمان وسلام إن لإخوانها أهلية وطنية كأهليتها. أحيي هنا ما كان عندها من مصرية صادقة وأحيي بعدها كل امرأة مصرية، ولا أخشى هذا الفصل بهتاف واحد: لتحيا مصر!

(٥)

الكاتبَة

(أما انتقاد رسائلها من جهة صناعة الكتابة فحسبي أن أقرر من غير محاباة أنها أكتب سيدة قرأنا كتاباتها في عصرنا الحاضر، بل هي تعطينا في كتاباتها صورة الكاتبات الغربيات اللاتي تفوقن على كثير من الكتاب).

أحمد لطفي السيد بك

(إني رأيت في كتابة هذه السيدة حدة في بعض الموضوعات وكأنها معذورة في حدتها لامتلاك الموضوع نفسها وحواسها فكتبت فيه وهي ممتلئة حنقاً).

الشيخ عبد الله الكريم سلمان

(إنها أعادت لنا ذلك العصر الذهبي الذي كانت فيه ذوات العصائب يناضلن أرباب العمائم في ميداني الكتابة والخطابة)

أحمد زكي باشا

(لله درك أن نثرت ودر حفني أن نثر)

حافظ إبراهيم بك

وما حاجتي إلى الكلام عنها كاتبة؟ إننا لو ضربنا صفحاً عن شهادة من شهد لها بالمقدرة الكتابية مكتفين بما ورد من أقوالها في الفصول الماضية، لأثبتنا على الورق ما قد سبق وقرّره حكمنا الصامت. وهو أنها كاتبة كبيرة.

يطلقُ الناس عادة اسم (الكاتب الكبير) على من كتب كثيراً وهم في ذلك مخطئون. إن من حملة الأقلام من له مؤلفات عديدة وهو ليس بالكاتب الكبير حتى ولا بالصغير، لأنه ليس كاتباً على الاطلاق. إنه ينقصه ما يسميه الإفرنج (قماش الكاتب) أي السر الذي يقود الفكر إلى اختيار الألفاظ الصائبة، ويعلِّم اليد صياغة الجملة الملائمة، وينقصه خصوصاً ذلك اللهيب الخفي الذي ينشر بين السطور أشباح النور والظلام.

ما هي الكلمة؟

والكلمة التي تعين الحركة والإشارة والصوت واللون والانفعال، الكلمة التي تعني أمراً دون آخر وتوقظ عاطفة دون غيرها، ما هي وما سر انتخابها؟ الأبجدية لجميع البشر والناس لا يتفاهمون عادة إلا بالكلام، فما تلك القدرة المعطاة للبعض ليرسموا بالحروف الوجوه ونوع استدارتها، والشفاه وحدود ثناياها، والآفاق واتساعها اللانهائي، والليل وعمقه وكواكبه، والنفس وعجائب خفاياها؟ كيف تنبض في الألفاظ المجردة الجامدة حياة سريعة متَّقدة بثورة الشعور وهيجان الغضب، وأنين الشكوي ورنين النجاح والظفر؟ لماذا تهتز الألفاظ تارة كالأوتار وتُوَلولُ طوراً كأمواج البحر العجاج وتهمس حيناً همساً عجيباً كأنما هو منطق من سحيق الذراري ومبهم الآمال القصوى؟

قال فكتور هوجو إن الكلمة كائن حي وقد تكون خالقاً ساعة تجعل المخيلة ترى ما لا يرى، وتنظم القرطاس أفقاً مفعماً بالكائنات الجميلة، وتصبح سحراً يصير الغائب حاضراً والعدم وجوداً.

إن للإفصاح عن الفكر أساليب جمة ولكن لا يصلح للكاتب الواحد إلا أسلوب واحد، وهو الذي يتفق مع ذاتيه. كلنا عالم ذلك. وكلنا باحث عن

الطريقة التي.. فأجارك الله، يا أيها الباحث، من الطريقة التي.. إنك لتهوى قبل الوصول إليها في دركات التصنع والتكلف والتعمل، وتتيه في فيافي الخلو والتقعر والجفاف. وإذا حاولت النهوض من الدركات أو العودة من الفيافي تعثرت قدماك وقلمك بذيول الزوائد والحواشي الجاهزة بين المتداولات كالحلوى على أطباق حلواني العيد. أو داهمك مرض الاختصار الجاف فيشعر قارئك الشقي بأنه حُكم عليه بسف التبن لجريمة مجهولة منه ومن البشر أجمعين.

إن أفلاطون الذي اشتهر ببلاغته اشتهاره بفلسفته ظل ينسخ كتابه (الجمهورية) إلى عمر الثمانين ليزيده تحسيناً وإصلاحاً. ذلك لأن الكتابة التي يراها الكثيرون مسألة هينة أكثر الفنون دقة وعسراً. ولا أظن اكتشاف القطب أصعب على الرحالة من اكتشاف الأسلوب (هذا القطب الآخر) على الكاتب الذي عنده شيء يقوله لأن نفسه تفيض به وتحثه على إعلانه.

كلمات النفس حركات خفيفة لطيفة، فكيف يتيسر نقل هذه الخفة واللطافة بالكلمات البشرية الكثيفة؟ وكيف تتبع أداة القلم خطوات النفس الوثّابة كثيرة الأهواء في تموجها وتحنيها المباغت من الفرح إلى الحزن ومن التحنان المذيب إلى النقمة البركانية؟ إن ذلك لسر تملّص من القواعد والنصوص وترفُّع عن أن تلقيه الضمائر إلى الألسنة. وهو كل مقدرة الكاتب أو كل ضعفه.

كذلك فيه الحكم بالإعدام أو بالخلود. وهناك معيار للوقوف على مقدرة الكاتب ومعرفة النقطة المتغلبة لديه ودرجة إدراكه للسر المكنون، وهو المقابلة بين ما كتبه هو وما كتبه آخرون في الموضوع نفسه.

لنخضعن بعض صفحات الباحثة، بل جميع فصول (النسائيات) لهذا الحكم نجد اللغة في يدها آلة دقيقة ماهرة في تدوين ما تريد. ولا أعرف من هو أقدرُ منها على وضع الكلمة في مكانها، بحيث أنك لو تعمدت حذف لفظة من جملة كنت باتراً مجموع المعنى. هي تخبرك عن أحقر الأشياء برشاقة وبلاغة لأنها مصرية كل المصرية، أي أن الرشاقة والبلاغة طبيعتان فيها سبق وجودُهما عندها قلم الكاتب. وقد وضَعت (للكاتب) وصفاً وما كانت واصفة إلا نفسها في هذه الفذلكة التي هي من أدلّ ما كتبت على جمال أسلوبها:

(اللسان والقلم رسولا القلب إلى الناس أو هما جدولان صافيان تنعكس عليهما صور النفس وما حواليها من الصفات. وإن شئت فقل هما سلك كهرباء بين ذهن المرء ومن يخاطبهم أو يكتب لهم. تنقل عنه رسالة أخلاقه حرفاً حرفاً بلا زيادة ولانقصان. والفضائل والرذائل كامنة في الأشخاص لا يوري زنادها إلا الأقوال والأفعال. فالمتكلم والكاتب تظهر أخلاقهما جلياً فيما يقولانه أو يخطانه وإن حاولا إخفاءها لأن الطبع غالب والتطبع سهل بال قليل الستر أن وأرى شيئاً تظهر منه أشياء والفكرة وإن جانبتها لا تزال تحوم حواليك وترفرف إلى أن تجد لها مقراً تستقر فيه من الجولان والاضطراب).

(الفكرة التي تحوم وترفرف) لا تجد عند الباحثة (مقراً تستقر فيه من الجولان والاضطراب) إلا البيئة التي جعلتها موضوع اهتمامها. وإذا خرجت من هذه الفكرة بالفكر حيناً جاء ذلك للمعارضة وتقوية الحجة ووجوب قياس القريب على البعيد كتمثيلها الطبيعة هذا التمثيل المترسّل:

(فالسماء معقودة على الأفق في مصر وهي كذلك معقودة على الأفق في اليابان وفي جرينلاند. لم يضع الله لها عمد المرمر في إيطاليا ولا قوائم العاج في

السودان ولم يقرّها على حوائط البلور في النمسا، تنيرها الشمس نهاراً (إلا في القطبين) والقمر ليلاً وقد نثرت فيها النجوم نثراً إلا قليلها فهو مظلوم.

ولم يشأ الله وهو قادر أن يجعلها في شكل عقود وتيجان أو يرسمها دوائر مثلثات مرصوصة رص البلاط الملوّن وهي مع ذلك يأخذ جمالها بلب المتأمل المتفكر. والأرض بسيطة أيضاً لا تحوّل لنظامها. فالصخر يفتنه توالي الريح والمطر فيصير رملاً والرمل تسفيه الريح ويعجنه المطر فيكون صخراً. والبذر ينبت إذا لقي رياً وأرضاً صالحة. وما أبسط سوق النبات تظل قائمة ولكنها تميل مع الريح ويثقل عليه ثُمرها فيتدلى أو يسقط إلى الأرض).

وما الذي تظنه موجباً لهذه السطور المنمقة بقلم قدير، كما أنها تنم عن نفس منبسط الأرجاء توزَّع فيها حب الطبيعة وتفهم الجمال؟ أتحسبه مشهد شروق أو غروب أو وقفة على جبل شاهق، أو جوبة بين ضلوع الوادي المخطَّطة بالمياه المتعلمّات؟ إنها استهلت النبذة السابقة بهذا المطلع: (بين الزوجين الحضريين من أهل مصر تكلف لا يتفق مع يريده الله لهما من سكون الواحد إلى صاحبه ويشذ عن شواهذ الطبيعة وآثارها المرسلة إرسالاً من غير تعقيد ولا إبهام. فالسماء معقودة على الأفق في مصر.. إلخ).

إذا أرادت انتقاد الكلفة بين الزوجين المصريين ليس غير! وإن ذلك ليذهلني قليلاً. لأن الفكر الذي يبقى ضيق الحدود ما ظل مستقراً على الجزئيات ينفتحُ منه الجناح بانطلاقه إلى الكليات. فيستنسر محلقاً في آفاق بعيدة، ويتسع منه الكيان ممتداً في تمدّد الكون الذي هو جزء منه. وحينما يصل إلى هذا المقام من النشوة المعنوية ينسحر لثام الظرفية عن صغائر الحياة، ويتموج الجزء الحقير غارقاً في الكل العظيم فيبدو للمفكر بوجه آخر ومعني جديد عميق.

ولكن باحثة البادية بعد هذه الطيرة الفكرية تهبط إلى ضرب مثل عن أحد ملوك الصين لتثبت قبح التكلف وحلاوة البساطة، ولتنتقد المرأة التي تقول لزوجها (يا سيدي) أو (يا بك) فيناديها هو بقوله (يا هانم)! ترى.. ألم تكتب النبذة الأولى في يوم ثم عادت فألحقت بها ما يليها في يوم آخر؟

إنها كجميع النفوس التي أثقل فكرها ما خلا منه فكر الآخرين فكانت، بذلك منفرزة عن محيطها، تتجنب جلبة الجمهور ما استطاعت وتستهويها العزلة، حيث يختمر الفكر وتنضج ثمار التأمل. تحب عيشة القرى والخلاء بقدر ما تنفر من المدن ميادين الكذب والمشاجرة والضوضاء. وقد أبدت ميلها هذا في الفقرة الآتية الحسنة:

(قَلمَّا أنقى الهواء وأعذب الماء وأصفى السماء في القرى، وما أكذب الحياة وأقرب الوفاة في المدن. القري جميلة لأنها على الفطرة. أما المدن فلا تعدم أثراً للتكلف والرياء. أين دوي الكهرباء من خرير الماء، والدخان المتعاقد فوق المداخن من جو لا ترى فيه إلا تحليق الصقور وإلا رءوس النخل الباسقات؟ وأين وحل الشوارع وعثيرها من أرض كسيت ببساط النبات؟ وأين الرائحة المنبعثة من مقاذير المنازل وروث الدواب من شذى أزهار الحقول؟ بل ما أوصل البصر يريد الجولان فيرده من هنا جدار ومن هناك سور من نَظَر تسرحه، حيث شئت فلا تجد إلا اللانهاية في الفضاء).

(اللانهاية في الفضاء)! في المدن مجد النشاط وجلال العمران لكن عين المفكر في حاجة إلى تسريح النظر في المدى الواسع كأنماه هي تبحث في أبعاده المتراميات عن حل ما غمض عليها من مشاكل الحياة، أو كأن القلب

الحزين يستخرج من عصير الألوان الجوية بلسماً إن لم يكن شافياً لسآمته، ففيه ما يجلب التلطيف والتسكين.

سمعت مرة فتاة تقول: ومَن ليس جميلاً من هنا (مشيرة إلى العينين)؟ وقد كانت مُصيبة. إن من جميع أعضاء الجسم وتقاطيع الوجه ليس أكثر من العينين شفوفاً عما يألفه الذهن من الخواطر وما يلتصق بالنفس من رغبات.

العين مرآة السريرة تطل منها جميع الخيالات والأشواق فإذا عرفت عين امرئ عرفت ما هو إجمالاً وبعض ما طوى عليه. ولئن كان بعض العيون جميلاً دائماً فإن جميع العيون جميلة في أوقات معينة، والمعنى النفسي الأقوى تغلبا على الملكات ينيل العينين تعبيرها المقيم.

لم يكن في عيني باحثة البادية ما يدل على أنهما اعتادتا النظر إلى داخل الوجدان ووراء الجراح والدماء والآمال المهشمة، حيث يلمع بصيصُ النور الذي لا يخبو وهو السعادة الحقيقية الوحيدة، لأنه من الروح، وللروح، وفي مأمن من كل شاردة وعادية. إن الباحثة لم تكن على شيء من الروحانية. وكانت تقدّر الظواهر وتتكئ عليها في أشياء كثيرة، حتى في تدينها. وعلى رغم ذلك فإن إدراك (اللانهاية في الفضاء) كان يتألق أحيانا في عينيها الباسمتين الكئيبتين، في العينين القاتمتين لوناً ومعنى، لأن الاحتياج العنيف المندمج في مطاوي النفس البشرية . ذاك الاحتياج الدائم إلى قوت أثيري . ليس ليقوم مقامه ما تقدمه الأرض من غذاء وعزاء. وأكثر الذين لا تسمح لهم شواغلهم بالشعور بذلك الاحتياج، يطلقون عليه اسم (الخيال) وهو في الواقع خيال بالنسبة إليهم. لكنه بالنسبة إلى الآخرين حقيقة ثمينة قد ائتمن عليها أصفى جواهر الإنسان.

كلنا معجب بفصاحة القرآن ونعزو إليه فصاحة العربية عند المسلمين. واستقامة لفظهم وجمال منطوقهم، وفخامة أسلوبهم الكتابي، لأنهم يستظهرون آيه صغاراً ويستشهدون بها كباراً، إلا أن فصاحة الكتاب الحكيم وجماله قد عوَّدا القوم الكسل الفكري. فصاروا إذا ما أرادوا الإفصاح عن رأي أو نظرة أهملوا إجهاد القوى المولدة مطمئنين إلى ضرب آية قرآنية – أو حكمة شعرية – مثلاً، تاركين قرائحهم في حالة الجمود مستكنات، وعليها خيوط العنكبوت تخيم آمنات. بيد أن هذا الانتقاد الذي يصح على الأكثرية لا ينطبق على أقلية لبيبة، إن هي استعملت الآية القرآنية عند الحاجة، فإن لها أسلوبها الخاص. وقد تنتج عبارتها على وزن القرآن بنزعة فطرية، واضعة ألفاظه لمعنى شخصي وبشكل جديد يسترق السمع ويستأسر المخيلة قبل أن يبلغ أفق الإدراك. وعند الباحثة مثل ذلك أحياناً، كهذه الجمل ذات التفصيل القرآني والموسيقى القرآنية:

(ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه، فكيف ورجالنا على هذا الاستبداد يأملون صلاح الأمة وتربية أبنائها على حب الاستقلال والدستور؟ أما والله لو أرانا رجالنا عناية واحتراماً لكنا لهم كما يحبون. فما نحن إلا مرآة تنعكس علينا صورهم ولنا قلوب تشعر كما يشعرون، فإذا أرادوا من إصلاحنا فليصلحوا من أنفسهم وإلا فلينظروا ماذا هم فاعلون).

أظنني قلت قبل اليوم إن أحد أجزاء شخصيتها لانفصل عن الأجزاء الأخرى ولاتعمل إحدى قواها إلا بمعاونة جميع القوى، لذلك ترى المصرية ممتزجة دائماً بالكاتبة، وتتكلم الناقدة والمصلحة بلسان المسلمة والمصرية، كأنما هي لا تستطيع تجريد نفسها من نفسها. وترتسم المرأة في كل كلمة تخطّها

الكاتبة وما هي إلا امرأة في البدء، وامرأة بالتالي، وامرأة دائماً. فإذا ذكرت إحدى مزايا النساء ترنح القلم ثملاً بين أناملها وهو يقول:

(البشاشة مفتاح ما أغلق من السعادة، ومعوان على قضاء الأشغال يصل نورها إلى قلب صاحبها فيفعمه غبطة. وكذلك (إني أحذف بسرور هذه الكذلك الزائدة هنا) يلقي شعاعه الكهربائي على من حوله فتنتعش به أرواحهم. وهي جميلة في الكهل كما تجمل في الطفل، إلا أنها أبهى وأشد تأثيراً في المرأة تلك التي تسيطر على القلوب ولا تدري).

أو تدري، وهذا لا يقلّل من جمال البشاشة.

ولو جاز لي تحديد هذا الأسلوب الكتابي لقلت إن له من المزاج العصبي الصفراوي الحرارة التي تكون حيناً حدّة وحيناً نعومة، ومن الإسلام التنميق والبلاغة، وهو بالجملة مصري أسمر (نغش) جذاب.

ولا يسوغ لي أن أختم هذا الفصل دون التنويه بأمر آخر اشتهرت به دون غيرها بين المسلمات، وهو الخطابة، لكن كيف أتكلم عن أمر أجهله؟! وكيف أحكم على خطيب ولم أكن يوماً بين المستمعين إليه؟ إن غاية ما أعلم أنها كانت جامعة لصفات لابد من توفرها لكل مقدم على ارتقاء المنابر:

أوَّلها وأهمها: السمبائيا (**Sympathy**) وخفة الروح، ثم عذوبة الصوت المنطلق من الصدر، لأن كل صوت ينحدر من الرأس إلى الأنف يكون ذا نغمة شائكة مزعجة فيفقد قوة التأثير. وإن لم يكن الخطيب مؤثراً فلماذا يتكلم؟ ثم وضوح اللفظ وبلاغة النطق، وأخيراً الشجاعة الأدبية اللازمة لإبداء الرأي بكرامة وسذاجة.

كثير من مقالاتها مكتوب بكيفية خطابية وهي كيفية فعالة. غير أنها في خطبها تتبع خطة المحدث البسيط، لأن خطبها لم تكن في الواقع إلا محاضرات، وهذه تشغل الدرجة الواقعة بين الحديث المألوف والخطابة الصرفة. وقد تركت بعض المنظومات لأنها كانت تحب الكلام الموزون، وكل ما نثرت موزون منسق، ولا أعرف في كل ما كتبت نبذة أبدع من هذه التي تبدو فيها مقدرة مزدوجة كتابية وخطابية يختلط بها شيء من الشجن الشعري وكآبة المرأة غزيرة العواطف ودامية الشعور:

يصبونه (الماء) فينصب ويرتقونه. فيختفي في الأرض ويضعونه في كل آنية معوجة وملونة فيأخذ كل شكل ويصطبغ بكل ما يراد به من الألوان. تبخره الطبيعة زارية هازئة فتارة ترفعه إلى السحاب وطوراً تقذف به إلى الأرض وآنة تعاكسه بصقيعها فيتحول برداً، وآونة تحمي عليها براكينها فيخرج ملتهباً. وحينًا تحبث رائحته بكبريتها وزرنيخها فيلعنه الناس إذا أحسوا منه غير ما يريدون وهو بريء، ثم أليس هو رمز الطاعة والامتثال يضعون فيه سكراً فيحلو ويذيبون به الحنظل فيمر. وهم مع ذلك لا يقيمون له وزناً ولا يعترفون له بجميل. وهو بلا ثمن في أكثر بقاع الأرض وأرخص الأشياء في أقلها. إنه مثلي يا مي يذهب ضياعاً!

ما أوجع هذه الكلمة وأوجع المرارة التي أملتها! لقد فعل الحزن هنا ما يفعله في كل نفس صالحة، فكان اليد منبهتة الخصب جانية الخيرات. إنَّ لهف أيام ولواعج عمر أنتجت أبحاثاً قليلة ولكنها فريدة من نوعها في الآداب العربية. وستقف على زبدة هذه الأبحاث في الفصلين المقبلين، إذ نعالج الباحثة ناقدة ومصلحة فنجد ثمة أكثر الآراء تعقلاً ورزانة. لو لم يكن للحزن من منفعة سوى انتباه ضحيته إلى ضرورة الإصلاح وعثورها على مواطن الضعف والسقام من

بيئتها، ولو لم يكن له من منفعة سوى تمزيق حجب الزهو والغرور عن محيا الرصانة والحكمة.. لكفى به قوة تسكب عليها البركات على كر الدهور!

كلا لم تمض أتراحك جزافاً، يا روح العزيزة، إذ لا يتلاشي شيء في هذا الوجود العظيم، ولا ذهبت منك القدرة ضياعاً لأن الحياة والموت العوبتان في يد النظام المطلق نظام التحول الشامل. وما كان قومك بذلك التحول فيك إلا القوم الرابحين!

(٦)

الناقدة

أليس النقد من تلكم الملكات الفطرية المتسلسلة أدوارها في الطفل وفي الرجل على نمط واحد؟ فتكون في دورها الأول نظراً بسيطاً يعقبه انتباه إيجابي أو سلبي، أي الانتباه لوجود شيء أو لعدم وجوده. ثم يجيء دور المقابلة بين ما هو كائن وما يجب أن يكون، حتى إذا اكتمل فعل التمييز والمقابلة، وحكم الذوق بأفضلية أحد الوجهين وأنقصية الآخر، كان ذلك الحكم ما نسميه نقداً.

كان الجمهور بالأمس يتخيل وجود نصوص ثابتة مترفعة عن التحرير هي سلاح الناقد، فرداً كان أو أقلية قادرة. فإذا أثبت الناقد أو نفى احتضنت رأيه الأكثرية بلا تمحيص ولا ارتياب في أنها ماثلة أمام الحقيقة بعينها.

ويا لهول روعة تجمد المفكر إزاء ما قاساه الأنام من جراء هذا الاعتقاد الفاسد والاستسلام الذليل، وفي ماض ما أكثر ما أورث الحاضر من الحفائظ والضغائن! أما الآن فالرأي العام، كالرأي الخاص، لا ينقاد إلا إلى من شاء الانقياد إليهم، حافظاً لنفسه حرية النقض والتأييد والمناقشة.

والحقيقة أن عصرنا عصر انتقاد بلا نقدة، لأن النقد أصبح جزءاً مدركاً من شخصية كل فرد، وانحصاره في أفراد دون غيرهم ينافي الروح النقدية وينافي الواقع، إذ أي الناس لا يحب أشياء ويكره أشياء؟

على أن للنقد شرطين اثنين لابد منهما ليكون صائباً مفيداً.

الشرط الأول أن يكون قوة فطرية مكتملة لا جزئية، والشرط الثاني أن يكون الاطلاع والملاحظة والاختبار قد أوسعته تهذيباً وتصفية. والشرطان لازمان متماسكان إلا أن الملكة الفطرية أكثر ضرورة لأن وجودها يقبل المزيد والاتساع. وإن لم توجد فجميع المطالعات والأسفار والاختبارات تعمل في محق القليل الذي أفلت من أصابع الطبيعة وهي تقذف إلى الحياة بمن لم تشأ أن تجعله من أهل الذوق.

لو نفينا عن الباحثة كل صفة كتابية وجرّدناها من جميع نعوت الإنشاء لظلت ناقدة في كل كلمة خطّها يراعها. كانت ناقدة بفطرتها التي ثقفها الدرس والألم والاطلاع على مناطق البيئة المصرية مما لم يكن ميسوراً لسواها.

لأنها بمركزها الاجتماعي كانت ذات صلة بجميع الطبقات. فبينما هي بوجاهة أبيها وزوجها من عشيرات الطبقة العليا إذا بها صديقة الطبقة الوسطي برفيقاتها في المدرسة وبتعاطيها التعليم قبل زواجها. ولما كانت تذهب إلى قصر الباسل في الفيوم كانت تجتمع بنسوة البادية والفلاحات المحسوبات، بما يأتينه من الزراعة واللقاط والخدمة المنزلية، إحدى أمتعة الرجل وجزءاً من ثروته.

فتحادث تلك النفوس الخشنة بجهلها وتربيتها وعاداتها، الرقيقة بأنثويتها وإحساسها وأوجاعها، وتقابل في سرها بينهن وبين الأخريات ذوات الدلال واليسار، فتجد أن المرأة إن تغيرت منها الأثواب والإشارات فإن وجوه الشقاء في حياتها متشابهة ومواضع الخلل واحدة في جميع الطبقات. فأدركت وجود الانتقاد والمعالجة ابتداءً بأكثر الأعضاء سقماً ومبعث الصحة والمرض في جسم

العمران. يجب أن يبتدأ بتعليم المرأة لأنها الأكثر جهلاً، يجب إصلاحها السريع ليتيسر إصلاح الرجل. يجب أن يباشر بتحرير المرأة كيلا يكون المتغذون بلبنها عبيداً. يجب أن يحسر غشاء الخزعبلات والأوهام عن عينيها ليدرك الناظر فيهما، من زوج وأخ وولد، أن معنى الحياة عظيم. هي المظلومة المنحنية أمام الرجل العسوف، هي مهضومة الحقوق الساكتة على مضض الهوان، وترى أي إله أو شيطان أباح الجور عليها من بدءأيامها إلى منتهاها؟ منذ بدء أيامها؟ كلا بل قبل ذلك! وهاك حجة الباحثة:

(المرأة المصرية مسلوبة الحق ومظلومة في كل أدوار حياتها. نراها يتشاءم منها حتى وهي جنين فإذا ظهرت مولودة تستقبلها الجباه مقطبة والصدور منقبضة والثغور صامتة. ترى القابلة تحملها وهي منكمشة لا تبدئ ولا تعيد كأنما كان لها بعض الذنب في ولادتها. ترى أقارب النفساء وصديقاتها يكثرون لها الهدايا حتى إذا كان مولودها ذكراً ويقللون منها عداً وقيمة إذا كانت بأنثى. نرى كل من نقل الخبر يطمح اليأس من عينيه ولسان حاله يقول ناقل الكفر ليس بكافر. فإذا انقضت ستة أيام كان سابع أيام الصبي عيداً توقد فيه الشموع نهاراً وتجلب أنواع الحلوى وتعزف آلات الطرب. أما الصبية فيكتفي لها ببعض النقل ويحسب تفضيلاً).

حق انتقاد تفضيل الصبي على الصبية ليس عندنا نحن الشرقيين فحسب، بل عند أهل المغرب كذلك، لاسيما في هذه الأيام بعد أن فقدوا في الحرب ملايين الرجال فصاروا يطلبون الأبناء ليسدوا ما ثلم من صفوفهم وخوفاً على البلاد من حروب مقبلات. غير أن هذا شيء موقوت، وتشاؤم الناس من الفتاة قديم، فما أسبابه؟ يقولون بأفضلية الصبي لأنه يحفظ اسم العائلة. لست لأناقش

ما إذا كان في وسعه الاحتفاظ بذياك الاسم بدون معاونة المرأة. ولست لألفت نظر أحد إلى أن هذه مسألة اصطلاحية صرفة، وإلي أنها كانت موكولة إلى المرأة أيام كان قانون الأمة (Matriartat) نافذاً عند بعض الشعوب القديمة (ومازال نافذاً في بعض الجهات من أفريقيا الجنوبية)، وإلا أن صاحبات العروش ما زلن يتمشين عليه، إذ إن الأنثى التي ترث صولجان أبيها تناول أولادها اسم عائلتها دون اسم أبيهم. اللهم إن أسباب التفضيل عند الأهل كثير. منها أن الفتاة تأخذ نصيبها من ثروة أسرتها وتعطيها لرجل غريب، بعكس الفتى الذي يزيده ثروة أبويه بزواجه وبأرباحه جميعاً. أما المقامرة، والسياحات، والمضاربة وجميع أساليب التبذير التي يبتكرها الولد ليلتهم ثروة الوالد الكئيب فلا حساب لها ولا بأس بها، أليس إنه رجل؟ لقد امتدت يد النساء الآن إلى كثير من أنواع العمل مدفوعة بالحاجة ووجوب إعالة من لا معين لهم وضروة إشغال الأيام بفكرة جدية، ومنهن من أثرين كأعاظم الماليين وكان نجاحهن حسن العائدة على ذويهن. ولكن ما العمل؟ إنهن نساء! وربما كان سبب التفضيل الأكبر من تلك الأسباب الغامضة التي تذوب حيالها متبلورات المنطق الثابت. كل أعمال الرجل حسنات مادام (رجلاً) وكل الذنوب جائزة تغفر له (لأنه رجل)! ومقابل ذلك كل شيء يحسب على المرأة. تتدرج الناقدة في سرد حياة هذه المخلوقة المسكينة فترى نصيبها من العلم قليلاً وترى الطيبات عليها حراماً لأنها (بنت) لا تصلح لغير أعمال المنزل.

هذا في الصغر، أما في الشباب (فيحجر علينا حتى في استنشاق الهواء النقي حتى في اختيار لون الثوب الذي نلبسه). إن عدم حرية الفتاة في اختيار الثوب الذي تلبسه لا يرجع إلى ازدراء الأبوين بها، بل إلى نقص في تربيتهما الأصلية وعدم إدراكهما وجوب تربية الصغار على الاستقلال في الاختيار

والاعتماد على النفس. الشرقيون – كبعض الشعوب اللاتينية – متأخرون جداً في هذه الطريق التي قطعت منها الشعوب الأنجلوسكسونية شوطاً بعيداً. إن هذه تثقف الأولاد على التمييز والاختيار فيشبون أحراراً يعرفون ماذا يريدون ولأي سبب يريدونه، فكم من أم إنجليزية وأمريكية رأيتها مع طفل لها أو طفلة تبتاعُ لهما في المخازن أثواباً أو أدوات مدرسية أو لعباً يلتهيان بها، وتخيرهما في الانتخاب ضمن ما شاءت هي من حدود اقتصادية. وما أبهج مرأى الصغير ناظراً إلى تلك الحوائج يقابل بينها مناقشاً نفسه حتى إذا قرَّ رأيه على أحدها سألته أمه سبب اختيارها وأبانت له منها العيوب والحسنات بألفاظ مختصرة وحجة مفحمة وتأدب تام كأنما هي لا تحادث طفلاً هو ابنها، بل تحادث رجلاً غريباً عنها.

وما أجمل دوائر التيقظ تتسع قليلاً قليلاً في عيني الصغير! وما أعظم الفرق بين هذه الأم الرشيدة والأم الشرقية الفظة التي رأيتها البارحة تشد بذراع صغيرها قائلة بصوت أجشّ وعبوسة قبيحة: (امش يا ابن الكلب)! سيكبر هذا الولد واثقا من أن أباه كلب، وأمه امرأة كلب، يعني كلبة، وأن وسطه جحيم أسود لا متسع فيه لغير الضنى والمحن! كيف تستلم تلك اليد الخشنة نفس الطفل الطريئة، وإذا عاملته على هذه الصورة حين لا ذنب له سوى أن ذكاءه المتنبه ونفسه الطلعة وقفت تستعرض بضائع نُشرت في نوافذ الحانوت طالبة التفهم والمعرفة، فماذا تفعل به ساعة يجني إثماً ساهياً أو متعمداً؟ وهل يستطيع هذا أن يحب أمه ويحترمها كما يحب ذلك الغربي الصغير أمه الصالحة ويحترمها؟ كثيراً ما ينسى الأبوان أن الاحترام يولد الاحترام والحب يستدعي الحب، وأن معاملة أبنائهم لهما نتيجة لازمة لتصرفهما معهم. فكما أن لهما شخصية مستقلة، وإرادة ترغب في الخبرة، وميولاً تريد أن تنمو وتصلح، كذلك، بل أكثر من ذلك، للأبناء المتنبهين رويداً رويداً ليقظة الحياة المنبسطة أمامهم بهولها وجلالها.

وأي يد تحسن قيادتهم بين أدغال الحوادث بحكمة وإنصاف وحنان أكثر من تلك التي عينتها الطبيعة لتضمهم وتداعبهم وتهذبهم وتواسيهم؟ وهكذا تتبع الباحثة الفتاة خطوة خطوة في دور التربية فترى في الأم الجاهلة أكبر عثرة في سبيل النجاح وأن البيت يفتأ مفسداً من البنت ما تصلحه المدرسة، حتى إذا وصلت إلى عمر معين (ذكرت الأم لزوجها، والفتاة تسمع، أن البنت قد كبرت وأنه يجب أن تترك الدرس والمدرسة لتتزوج، وأن فلاناً وفلاناً أرسل والدته وأخته تخطبها) فإذا كانت الفتاة ذات عقل وشعور صغرت نفسها واغتاظت لجرأة الرجل الذي يهاجم حياتها الهادئة بمجرد استعذابه الزواج منها. غير أن السواد الأعظم يلتفتن لأمر الزواج وما فيه من لامع جديد فيهملن المدرسة والتعليم وتنتهي إمكانية التهذيب والأخلاق وهما قوام العائلة! غريب جداً.. إننا نتعلم جميع الفنون والأعمال قبل ممارستها إلا فن تهذيب النفوس الصغيرة! الفتاة التي ترعرعت على جهل وغرور في منزل هذه حاله، تحت مراقبة أم هذه درجة إدراكها، إذا صارت ربة بيت واستلمت نفوس الأطفال فكيف تتكفل بحل مشكلة إسعادهم وإعدادهم لحياة ينفعون فيها الغير وينتفعون؟ لا ريب أن هذا هو الأساس الأول لشقاء العائلة، أساس يقوم عليه سوء التفاهم والمشاجرة المؤدية إلى النفور المحزن بين أعضاء الأسرة الواحدة.

هنا تلمس الباحثة القفل وتفتح باب العائلة على مصراعيه لتجيل بنظرها في كل ما يختفي وراءه. فتبصر الفتاة في ذلك الدور الذي يسبق الخطبة.

الخاطب والأهل يبحثون دائما عما يرغب فيه من ثروة وهؤلاء عما ينشدون من جاه. والفتاة بين هؤلاء الأنانيين المستبدين كألعوبة لا صوت لها في الجماعة. يجب ألا ننسى أن فريقاً كبيراً من البنات لا يهم كلا منهن من الزواج إلا زخرف

الفرح والطمع بالاستقلال في منزله تصبح سيدته وتتصرف في تنسيقه وإدارته كيفما شاءت، سعيدة بأن لها (مملكة صغيرة) تنفذ فيها إرادتها، ربما كانت فكرة هذه الحرية المتواضعة من أهم المرغبات في الزواج، وقد يكون في هذا الفريق زوجات مخلصات وأمهات صالحات، إلا أن شح السعادة وتزايد الانشقاق في العئلات ينبآن بأن غير المسرورات من زواجهن كثيرات ومعظمهن عائد شقاؤهن إلى عبث الأهل برغائبهن، وحملهن على قبول من رضين به زوجاً بالترغيب، أو بالتوسل، أو بالإرغام الصريح. وليس هذا التحكم من خصائص الشرق وحده بل سمعت من أجانب وأجنبيات مختلفي الجنسيات أن هذه حالهم في بلادهم وقد يكون هنا كذلك العنصر الأنجلوسكسوني أكثر احتساباً برضي الأولاد من غيره.

لما كنت أدرس الإنجليزية أخذت يوما أتحادث وأستاذي بهذه المسألة الحيوية فأخبرني بأنه لما خطب، كانت الفتاة التي انتقاها ضئيلة في عيني أمه، لأنها ليست (ذكية ولا جميلة ولا متعلمة ولا غنية) فقالت له: (لك أن تبحث عن فتاة حائزة لصفات اجتماعية أكثر من هذه) أجاب: (صفتها الوحيدة أنها فتاة محبة وهذا يكفيني. أستطيع أن أبحث عمَّن تفضلها في نظر الغير ولكنها تحبني وأنا أحبها ولا أريد غير ذلك). فبعد أن قامت تلك الأم بواجبها نحو ضميرها ومطالبها الشخصية قامت بواجبها نحو ولدها فاحترمت عواطفه وأذعنت. إني بكلامي عن العائلة عندنا واستبداد الأهل لا أعني الجميع على الإطلاق، بل أعني الأكثرية، لأن النفوس النيرة الكبيرة موجودة في كل مكان لا تقيدها الحدود الجغرافية ولا يسطو عليها مناخ الإقليم، حدَّثني نابه من أعاظم المصريين أنه بعد أن اختطب ابنته أحد أبناء العائلات الوجيهة رأت الفتاة خطيبها وهو داخل فلم يعجبها مع أنه كان جميل الطلعة حسن الهندام، وحملت أباها على استرجاع وعده. وبعد مدة وجيزة جاء خاطب آخر يماثل ذلك مقاماً ويقل عنه جمالاً

فأرادت أن تراه قبل البت في الأمر فأعجبها لأن (دمه خفيف) وتزوجت منه. وهو من أشهر رجال مصر في هذه الأيام.

وقد تكلمت الباحثة عن الزواج خصوصاً في فصل جعلت عنوانه (يا للنساء من الرجال ويا للرجال منهنَّ)! ملقية الخطأ على الرجل وعلى المرأة، لاسيما على طريقة الزواج نفسها. وحصرت شقاء الزوجين وعدم الوفاق بينهما في الأسباب الآتية:

١- جهل أحد الزوجين بالآخر.

٢- زواج مختلفي الطباع كعالم وجاهلة وبالعكس أو غني وفقيرة ومختلفي الدين والبلد.

٣- الطمع في الغني بغير نظر إلى الأخلاق.

٤- الزواج القسري.

٥- تأويل الدين الحنيف على غير ما أريد منه في أحكام الزواج والطلاق. وهذه الأسباب كلها شعب لأصل واحد وهو عدم الحكمة. (فإذا روعيت شروط الحكمة فقل أن نرى هذا الشقاء المخيم على البيوت المصرية الهادم لمعنى الزوجية، وخير للفتاة والفتي أن يعيشا أعزبين من أن يتزوجا بثالث هو البؤس والعذاب).

ثم أخذت بتفنيد صنوف شقائهما فعدَّدت عيوب المرأة الجاهلة كعدم الثقة بالزوج وتصديق وشايات صويحباتها وجاراتها به، والغيرة الشديدة على حاضره وماضيه جميعاً، والتحزب لأقاربها وافادتهم من مال زوجها ما استطاعت في حين

أنها تبغض أهله وتسيء معاملتهم، والإثرة، والمباراة، والإسراف، والبطالة، والاهتمام بالزينة والزيارات، وإهمال الأولاد للخدم والمربيات، وتقليد الأجانب في اللباس والحركات بلا تروّ، والثرثرة والتداخل بأمور الرجل. أي شيء لم تذكره؟ أي شيء لم تنتقده؟ إنها لم يفتها حتى ولا التدخين، ولا الضحك، ولا العبوسة. انتقدت كل ما استطاعت انتقاده في تلك الصفحات القلائل ثم وقفت طويلاً عند سرعة غضب المرأة وتهديدها بالفراق فقالت:

(كل شريكين قد يختلفان اختلافات بسيطة لكنهما لا يذيعانها ومن أحق بكتمان السر من شريكي الحياة أعني الزوجين. والحازم من لا يجعل للاختلاف الصغير محلاً من اهتمامه بل يزيله بمجرد الفراغ من التكلم فيه). (بقيت لي كلمة عن هؤلاء اللاتي يغضبن ليقبضن ما يبقي لهن من الصداق عند أزواجهن وهي عادة شائعة كثيراً عند بعض الطبقات. أما قبحها فجلي لأن المرأة بذلك تبرهن على أنها تقدر النقود أكثر من الحياة والسعادة وهذا جشع لا يليق إلا بالمرابين ومهووسي المال، والمرأة يجب أن تكون ملك اللطف ومثال الرقة والنزاهة. وبعضهن يتذرعن بالغضب والاحتماء بالأهل ليصالحن الرجل والعادة أن يصالح الرجل زوجه بقطعة حلي وثياب كثيرة فما أسخف هذه العقول. تفدي المرأة راحتها وهناءها وسعادة أولادها بذلك المتاع الفاني).

(والمنزل لا بهاء له إلا بالمرأة كما أن قوامه الرجل فترك المرأة بينها يمسخ ذلك الهناء المرفرف عليه ويسبب حزن الأولاد وانقباضهم، كما أنه يتلف وتعبث به أيدي الخدم فيخسر الرجل خسارة مضاعفة).

وبعد فراغها من وخز المرأة التفت إلى (الآخر)، إلى الرجل، ونضدت منه المساوئ المرعبة، جاعلة الطمع في رأس القائمة، ثم الاستبداد بمال المرأة بعد الحصول عليه فقالت:

(بعض النساء يهددن بالفراق إذا لم يعطين أزواجهن ما يطلبون ويذكر لهن الزواج إرهاباً فأي الأمرين تختار المرأة البائسة؟). المرأة مظلومة دائماً إذا كانت فقيرة لا يرغب فيها وإن كانت وارثة يطمع في مالها. والوراثة مظلومة أيضا فإما ألا تتزوج لتأمن الطمع والطماعين، وإما أن تتزوج على غير بصيرة كعادتنا). ما أكثر مساوئ هذا (الآخر) المخيف عدا! وليس الظلم أقلها. تتبعه الأنانية وعدم مؤاساة المرأة في حزنها، والزواج من غيرها، والازدراء بها، والتكبر عليها والضغط على جميع أنواع حريتها، وكتم أسراره عنها كأنما هي شيء لا قدر له ولا قيمة.. عديدة، مديدة ذنوبك، يا إسرائيل!

وأما ما تغتاظ منه الباحثة بوجه خاص فهو عدم امتزاجه بذويه وإفادتهم من معرفته وعلمه، فهي تحتمل الجهل من الغني الصريح لكنه يحزنها جهل امرأة العالم وابنته وأخته. وتنسب ذلك إلى الخشونة التي يضيع بها الرجل تأثيره الحسن في أسرته. قالت ساخطة:

(لا أحب الأب يتكبر على أهله وأولاده فيظهر لهم بمظهر الجبار العنيف ويظن أن ذلك استجلاب للهيبة وهو لا يعلم بما يشعرون). (وهذا التجبر من جانب الأب يضعف الأخلاق في الطفل ويفسدها إذ يربي فيه الجبن والذل ثم الاستبداد متى كبر).

كانت من أنصار السفور مبدئياً. ومن رأيها أن كل ما تحتاج إليه المرأة ولا تجده بين النساء كالطبيب البارع والأستاذ الماهر.. إلخ، يجوز أن تستعين به الرجل، وجاهرت بأنها لو كانت واثقة من كمال المرأة وتهذيب الرجل لما ترددت في إباحة السفور للجميع كما أنها تبيحه للراقية من النساء. وقد أبدت فكرها في ردها على خطبة ألقاها زعيم السفوريين عبد الحميد أفندي حمدي في نادي حزب الأمة. قالت:

(لا، نساء مصر متعودات الحجاب الآن فلو أمرتهن مرة واحدة بخلعه وترك البرقع لرأيت ما يجلبنه على أنفسهن من الخزي، وما يقعن فيه بحكم الطبيعة والتغيير الفجائي من أسباب البلاء وتكون النتيجة شراً على الوطن والدين (لا أفهم كيف يكون السفور أو أي شيء آخر شراً على (الدين) – مي). وإذا أردت هدم بناء أفلا تهدمه قليلاً قليلاً إلى أن يتم الهدم فتبني على أنقاشه أحسن منه؟).
(ثم أفدني أيها القارئ بالله ماذا تقول امرأة جاهلة أو متعلمة تعليماً ناقصاً لشاب تجتمع به أباحثه في العلوم وهي لا تدرك أهميتها أو تعلم منها قشوراً لا يعتد بها. أم تناضله في السياسة وهي لا تعلم أين إنجلترا من جزائر الأرخبيل، ولا يمكنها أن تفسر لفظة دستور أو استعمار مثلاً. أم ماذا تفعل اللهم إنها لا تجد شيئاً تقوله له إلا ما قد تستحسنه من هيئته وحسن بزته وهناك الضلال الكبير. رأيي أن الوقت لم يأن لرفع الحجاب فعلموا المرأة تعليماً حقاً وربوها تربية صحيحة وهذبوا النشء وأصلحوا أخلاقكم، بحيث يصير مجموع الأمة مهذباً ثم اتركوا لها شأنها تختار ما يوافق مصلحتها ومصلحة الأمة).

من الناس من لا ينتقد إلا بمرارة وبقصد الإيذاء والإيلام والانقاص من قيمة المنتقد عليه. أما كاتبتنا فتنتقد بسردها الحكاية كمن تصف لك حالاً من الأحوال

دون تعمد الانتقاد والمرارة تنقل تحت قلمها ظرفاً فتبتسم حيناً، وتبكي أحياناً. وتخال قطرات الدم سائلات من يراعها ساعة تذكر شيئاً يوجعها في أعز عواطفها ويلمس من نفسها أرق الأوتار حساً، كموضوع تعدد الزوجات مثلاً الذي ترى فيه الظلم البحت والاستبداد الأقصى ولا تبرره إلا إذا تعذر عيش الرجل هنيئاً مع زوجته الأولى. هاك صورة الضرتين:

"أرى (القديمة) حزينة و(الجديدة) كذلك. فإذا قلت للأولى ماذا يحزنك أجابت يحزنني ذلي وانكسار قلبي، وأن على ما ترين لست أنقص عن الجديدة جمالاً ولا أدباً وكنت أبذل جهدي في مرضاة زوجي، أما الآن فلا، على أنه لا يزال يسترضيني فيقول لي أنت أحب إلى من الأخرى وأنت أول من ملك قلبي وأنت جميلة وأنت أنت.. إلخ.

وأنا لم أتزوج عليك لنقص فيك وإنما كان ذلك مقدوراً، وإذا ما سألت الجديدة عن سبب انقباضها قالت يحزنني أن أرى لي شريكة ومنافسة على أن زوجي يحقق لي أنه لا يعبأ بها وأنه لو كان مقتنعا بها لما تزوج عليها وأنه يريد طلاقها ولكنه يبقيها رحمة منه لتربي أولاده فقط. (فزوج الاثنتين غير سعيد كما قد يخيل له) الإكثار من الزواج داء إذا تأصل صعب استئصاله).

في الضر ترى جميع أنواع المتاعب للرجل، وأكبر أسباب الغم والتعاسة للمرأة، فهو عندها مفرق العائلة وأظلم مشتت لسلامها. قالت (هو اسم فظيع تكاد أناملي تقف بالقلم عند كتابته)، و(هو اسم فظيع مملوء وحشية وأنانية). إذا شقي الرجل مع زوجته الأولى له أن يتزوج عليها. في هذا الظرف تسمح بالضر وتحرمه فيما عداه. أما إذا كان يعد بقاءها (القديمة) معه منغصاً لحياته أو كان

كارهاً لها فليطلقها بتاتاً فربما يجد مع غيرها راحة وتجد هي كذلك مع غيره. (الطلاق شقاء وحرية والضر شقاء وتقييد. إلا أن حزينا حرا خير من حزين أسير)!

أكتب هذا الفصل وبي عاطفتان قويتان. عاطفة الحزن وعاطفة العجز. فالعجز يجعلني قاصرة دون تشخيص هذه العلل الغريبة عني، لأني فتاة مسيحية أرى الضر شيئاً وهمياً لاوجود له في قومي. وقد ألغيت بغيابه ميع صنوف الرزايا اللاحقة به. ومهما تفهمت هذه الأوجاع بقلبي النسائي فإنها تظل عندي خيالية ليس غير، أما عاطفة الحزن فمتأنية من أن العائلة التي وجدت لتكون مستودع السعادة الطاهرة تصير على قولها مستنقع الحسرات والكوارث والقنوط. وهل يجدي إصلاح المصلحين نفعاً إزاء ناموس الألم النافذ على جميع الكائنات؟ لماذا يعذّب الأب ابنه والولد أمه، والغريب الغريب، والحبيب الحبيب؟ من أين تهجم جيوش الألم الدقيقة غير المنظورة مصادمة أشرف الميول، جارحة أصفي النوايا، ساحقة أخلص القلوب؟ ما هذا ما نسميه ألما؟ وما الغاية منه؟ إذا كان كما يزعم الروحانيون نتيجة ذنوب سابقات وإننا نكفر اليوم عن آثام الأمس وسنكفر في عمر آت عن آثام هذا العمر، إذا كان ذلك صحيحاً فقد كان يوم بدء أعمار الإنسان فيه تألم هذا مظلوماً لأنه تألم بريئاً. وإذا سلّمنا بالمعنى الشريف الذي جعله الروحانيون للألم فقالوا إنه النار المطهرة من الفساد والواسطة المثلى للتهذيب والارتقاء، فماذا نفكر إزاء من يتألمون ولا يستفيدون بل يتقهقرون مجدّفين على قوى الطبيعة والألوهية، بل ماذا نقول فيما يقاسيه الحيوان من آلام جسمية دون أن ينتفع به؟ إن الذي تروعه معاني الألم يتقطع قلبه إزاء أوجاع صغار الحيوان، فيرى الألم كما هو شيئاً هائلاً وحكماً صارماً تخضع له الموجودات مرغمة مقهورة وتخترع له البشرية مخفّفات المعاني لتؤاسي يأسها وتنقص من بلواها. يخاف الناس ويرجون، ويكرهون ويرغبون وظلام الألم مخيم

عليهم أبداً، فيبحثون عن الأصدقاء والمساعدين والمؤيدين والمحبين ليأمنوا شر ذلك السواد القاسي.

ولكن، ولكن! أليس هؤلاء الذين نحبهم ونحتمي في قلوبهم من مكابد الأيام هم الذين يسكبون سيال الألم في كؤوسنا صرفا ويتفنون في التعذيب كأنما الطبيعة ائتمنتهم على أسراره؟

ما الألم ؟ من أين يأتي؟ وما الغاية منه؟ هل يتغلّب عليه المصلحون يوما فتعيش العائلة الجزئية بسلام وتترابط العائلة البشرية الكبري برباط الأمان؟

أم سنظل أبداً على ما نحن فيه كأنما الباري جلّ وعلا ينشئ وراء سماواته عالماً جديداً لا يتغذى إلا بعنصر الألم المتجدد مع الثواني في حياة أبناء الأرض؟

(٧)

المُصْلحَة

قدم يوما أحد وزراء روسيا إلى نقولا الأول تقريراً ضمَّنه اقتراحات توسَّم فيها خيراً للإصلاح والارتقاء فلما انتهى القيصر إلى هذه الكلمة كتب على هامش التقرير: (الارتقاء؟ أي ارتقاء؟ فلتحذف هذه الكلمة من اللغة)!

للأوامر الهمايونية أن تقضي على اسم الارتقاء في معاجم اللغة والتقارير الرسمية، إلا أن المعنى منه يبقى بنجوة عن الإلغاء والتكبيل عاملاً عمله في الأفكار وفي القلوب. أيظن ذوو التيجان والقابضون على أعنَّة الأمم أنهم فائزون في مكافحة القُوى الحيوية والقضاء عليها. وما هم فائزون إلا بارتدادهم خاسرين، حظر القيصر على الوزير استعمال كلمة غاب عنه أن يحبس مجراها المندفع في نفوس الرعايا. ولما أن أقبل ذلك التيار الجارف على هاوية البلشفية اندك يهبط فيها من أعالي الملكية المطلقة مكتسحا معه رفيع العروش ومبطاش الصولجة، ولو سبقت اليد المدبرة ووزعته ترعاً وسواقي ترضع الحدائق وتروي المروج لما ظل شلالاً عصياً يولول مبعثراً على الصخور.

أكان ذلك لروسيا خيراً أم كان شراً؟ سؤال مازال الجواب عنه دفيناً في صدر المستقبل الجدير دون غيره بإصدار الأحكام التاريخية.

لئن كان النقد فطرياً في المرء فالإصلاح كذلك. النقد مزيج من كره وحُب: كره لما يرغب عنه من وجود، وحب لما يرغب فيه من مفقود.

وهذا المفقود المرغوب فيه هو عنصر الإصلاح بعينه. لذلك كان كل نقد إصلاحاً مضمراً، وكل ناقد مصلحاً محجوباً. أي شيء يحل بنا لولا الإصلاح؟ إنه إن لم يتبسم لنا بسمة التعليل والتسويق التفت حولنا أكفان الجمود وتاقت جوانبنا إلى أخشاب النعوش ومضاجع البلى، إنَّ جمال كل شيء قائم على الرجال بالتحسن والنمو والتقدم ليصير في الغد أفضل منه اليوم، وما مجد الإنسانية إلا في كونها اليوم أوسع قوة منها البارحة وأشمل إدراكاً. لا أمل بلا إصلاح، وإن لم يكن ثمة أمل فما معنى الحياة؟ كلنا عالم بذلك، على أن من الناس من يلحق به من صدمات الأيام ووخز الساعات من يلفته إلى ما لا يحفل به الآخرون، فيصبح النقد والإصلاح غاية حياته ومحوراً تدور حوله الأفكار منه والأقوال.

تلك هي باحثة البادية. قلتُ في فصل سابق إنها لا تعطي قارئها جناحين يطير بهما، ولا تسكب له من رحيق الفكر والخيال ما يعلو به إلى قوة الالمبس أو يحدو به إيغالاً في هياكل السر والألغاز، ولا يهمها من خفايا النفوس غير ما هو معروف تشترك الجماعات في تقاسم خيراته وشروره. إنها تبقى بين جدران بيتها إلا أن تحدق في مظاهر الأسى بعين يظللها خيال الدموع فتكتبُ متهيجة متأثرة كأنما هي تحارب ذرات الشقاء بكل كلمة تخطها.

رأت كل ما يتقيد به قومها من عادات دهرية وفروض دينية واصطلاحات اجتماعية، ورأت من جهة أخرى ما لابد من إدخاله من تحسين يؤهلهم للسير بكرامة في موكب القرن العشرين، فنسيت أو تناست تأثرها لتبسط رأياً معتدلاً يوفق بين القديم الجامد والحديث المتهوّر. كتبت للجميع لأنها أرادت أن يفهمها الجميع، ولم تقصد إلا الإفادة. يدلك على ذلك تصريحها هذا: (أريد مما

كتبت وأكتب للجريدة بعنوان النسائيات تخفيف ويلات الزواج على قدر الإمكان. ولست أقصد كل رجل على الإطلاق، كما أني لم أكن أقصد كل امرأة، وإنما الكلام على من فسدت أخلاقهم (وهم مع الأسف كثيرون) فسببوا شقاء النساء وهدموا بناء الزوجية).

وقد حاولت تخفيف تلك الويلات والتسوية بين الرجل والمرأة واختطاط الأسلوب لإصلاح شئونهما، بالقلم واللسان معاً. وهذا استهلال خطبتها الإصلاحية الأولى في نادي حزب الأمة:

(أيتها السيدات. أحييكن تحية أخت شاعرة بما تشعرون. يؤلمها ما يؤلم مجموعكن وتجذل بما تجذلن). (ليس اجتماعنا اليوم لمجرد التعارف أو لعرض مختلف الأزياء ومستحسن الزينات وإنما هو اجتماع جدي أقصد به تقرير رأي لتتبعه ولأبحث فيه عن عيوبنا فنصلحها. فقد عمت الشكوى منا وكثرت كذلك شكوانا من الرجال. كلنا متظلمون وكلنا على حق مما نقول. بيننا وبين الرجال الآن شبه خصومة وما سببه إلا قلة الوفاق بيننا وبينهم. هم يعزون هذه الحالة إلى نقص في تربيتنا وعوج في طريقة تعلمنا. ونحن نعزوها لغطرستهم وكبريائهم). (والأوفق أن نسعى للوفاق جهدنا ونزيل سوء التفاهم والتحزب لنحل بدلهما الثقة والإنصاف ولنبحث أولا في نقاط الخلاف).

إذن فغايتها صريحة وهي تريد إصلاحاً سريعاً لأن الشقاق بين الجنسين يؤلمها. قد وجدت الوسيلة، فلماذا لا يسير عليها الحائرون؟ إنها كتبت دواماً كمن يرسل أقواله من على منبر الخطابة، وعندها استحسان لرأيها وإقدام وشجاعة ملازمة دائماً لجميع المصلحين. كم من الجرأة والثقة بالذات في هذه الجملة: (هو اجتماع جدي أقصد به تقرير رأي لتتبعه ولأبحث فيه عن عيوبنا

فنصلحها)! هذه المرأة تشعر بقلبها، إن لم تقرر بإدراكها، إن المتفوق بين ذويه رسول من لدن الله جاء يحمل إليهم رسالة إنما هي كل غايته في الحياة.

كل مقالاتها جديرة بالاهتمام، وكل انتقاد وإصلاح فيها يستحق البحث والنظر، غير أني أورد هنا وسائل الإصلاح التي لخصتها في بنود عشرة جعلتها خاتمة خطبتها الأولى في نادي حزب الأمة قالت:

(بقي علينا أن نبين الطريق العملي الذي يجب أن نسير عليه. ولو كان لي حق التشريع لأصدرت اللائحة الآتية:

(المادة الأولى) تعليم البنات الدين الصحيح أي تعاليم القرآن والسنة الصحيحة.

(المادة الثانية) تعليم البنات التعليم الابتدائي والثانوي وجعل التعليم الأولي إجبارياً في كل الطبقات.

(المادة الثالثة) تعليمهن التدبير المنزلي علماً وعملاً وقانون الصحة وتربية الأطفال والإسعافات الوقتية في الطب.

(المادة الرابعة) تخصيص عدد من البنات لتعليم الطب بأكمله وفن التعليم حتى يقمن بكفاية النساء في مصر.

(المادة الخامسة) إطلاق الحرية في تعلم غير ذلك من العلوم الراقية لمن تريد.

(المادة السادسة) تعويد البنات من صغرهن الصدق والجد في العمل والصبر، وغير ذلك من الفضائل.

(المادة السابعة) اتباع الطريقة الشرعية في الخطبة فلا يتزوج اثنان قبل أن يجتمعا بحضور محرم.

(المـادة الثامنـة) اتبـاع عـادة نسـاء الأتـراك فـي الاسـتانة فـي الحجـاب والخروج.

(المادة التاسعة) المحافظة على مصلحة الوطن والاستغناء عن الغريب من الأشياء والناس بقدر الإمكان.

(المادة العاشرة) ليست هذه المادة إلا ملحة مصرية – على إخواننا الرجال تنفيذ مشروعنا هذا. وليتم مذهبها الإصلاحي أضيف إلى البنود السابقة اقتراحاتها العشرة في المؤتمر الإسلامي، وهذه خلاصتها:

الاقتـراح الأول: ذهـاب النسـاء سـواء فـي المـدن والقـرى لحضـور الصـلاة وسماع الوعظ في المساجد.

الاقتـراح الثـاني: جعـل التعليـم الأولـي إجباريـاً وتكثيـر المجانيـة علـى قـدر الإمكان في مدارس البنات الموجودة حاليا أو إنشاء غيرها.

الاقتراح الثالث: تلزم جميع المدارس أميرية وأهلية بتعليم الدين الإسلامي.

الاقتراح الرابع: تعين في كل مدرسة للبنات سيدة مسلمة عاقلة تـراقبهن كيلا تهملن واجباتهن الدينية ولا يخرجن عن عادة قومهن.

الاقتـراح الخـامس: توسـيع نطـاق مدرسـة الممرضـات الحاضـرة. والأولـى إيجاد مدرسـة للطب جديـدة لتعليم النسـاء الصـناعة تعليمـاً كـاملاً بدرجـة تسـاوي درجة الأطباء.

الاقتراح السادس: تكثير المستشفيات الخيرية والصيدليات للمرضى من الرجال والنساء والأطفال ويكون في كل مركز من مراكز المديريات وقسم من أقسام المدن واحدة على الأقل.

الاقتراح السابع: اتخاذ جميع الوسائل لمنع الحيف الواقع على النساء المسلمات فينبه البوليس بأن يراعي الآداب العمومية في الطرق والاجتماعات وأن يسوق كل مخلّ بالآداب إلى القسم.

الاقتراح الثامن: السعي في تقليل تعدد الزوجات لغير داع ماس بقدر الاستطاعة فإن شقاق النساء واختلاف الإخوة الناشئين من هذه العادة وما يتبع ذلك من الشقاق كل ذلك يدهور الأمة في مهاوي الفناء الأدبي.

الاقتراح التاسع: تعليم المرأة المصرية كل ما يلزم من الصناعات الضرورية لجنسها كالتفصيل والتطريز والقيام على تربية الأطفال والخدمة حتى لا يحتاج الوطنيات إلى غيرهن من الأجنبيات.

الاقتراح العاشر: منع النساء من المشي في الجنازات ومن الاجتماع للندب واللطم والصراخ والتعديد بالطريقة القبيحة التي لا وجود لها إلا في مصر.

عفواً يا سيدتي إن عندنا مثلها في سوريا..

هنا أطبق كتاب (النسائيات) شاعرة بأنَّ علامة استفهام كبيرة تتجسم في. أود أن أفهم كيف لم تفكر في وجوب اهتمام النساء بذوي الفاقة، وضرورة تكوين جمعية خيرية نسائية لجميع الطوائف والنحل إلا لمسلمات، مع أن المسلمين أغني عناصر القطر وأرحبها كرماً وأقربها إلى إتيان المعروف. وبما أنهم العدد الأوفر كان المحتاجون من فقرائهم كثيرين. إن أعمال البر أقرب الأشياء إلى قلب

المرأة ولو فقدت هذه جميع دلائل اليقظة الفكرية فإن حنوها يظل حيا جائلاً منسكباً على من يستحقه ويظمأ إليه، لذلك لا أفهم إغضاء السيدات المسلمات عن تأليف جمعية بر منهن.

وفي ما عدا ذلك. هل من معترض على صلاحية اقتراحات الباحثة؟

إني أرى شيئين بارزين من إطار هذا المذهب الصغير: أولاً وجوب فتح أبواب التعليم للمرأة. ثانياً وجوب انطباق كل إصلاح على التعاليم الإسلامية والعادات القومية. وتعصبها للأمر الثاني جعل أحدهم يقول عنها (إنه لا ينقصها سوى العمة لتصير شيخاً). على أني أتفاءل خيراً بتمسكها بالمصرية والإسلام ليكون المتعنتون أكبر ثقة برأيها، هي التي لا تقبل من الدخيل إلا ما ليس عنه غني.

إننا في زمن مطالبة عديدة واحتياجاته شديدة، وللمرأة كغيرها مكان تحت الشمس، وعليها واجبات لابد من تنميتها نحو نفسها ونحو الآخرين.

فإذا قدّر عليها أن تعول ذويها وهي ليست من أهل الخدمة والخياطة فكيف تحظر عليها فروع العمل الأخري؟ حتى إن لم تقدم على الدرس عن حاجة بل عن رغبة بحتة واحتياج إلى المعرفة والنور، ذاك الاحتياج المعذب المنبثق من أعماق الكيان، فبأي عدل يحكم عليها بالبقاء في سجن الجهل، وبأي إنصاف تُمنعن عن التصرف بما لديها من مشيئة تطالب القوة وذكاء يطلب الغذاء؟ كيف يحجر عليها في حريتها الشخصية البريئة، وهل أوجد الباري هذه الحرية والعدالة جنباً إلى جنب فكتب على كل منهما: (خصوصية للرجال) و(حقوق التمتع محفوظة للرجال)؟

وعلى ذكر التعليم أودُّ أن أقحم جملة معترض وأقول كم من عِلم ضروري للبنين والبنات على السواء يهمل بتاتاً بينما هم يصرفون الأعوام في تحصيل آخر لا ينتفعون به. نعم إن المرء يستفيد من جميع العلوم إلا أنه بحاجة ماسة إلى بعضها دون الآخر، وإني لأضربُ مثلاً بواحد منها. كلما طالعتُ في الصحف أخبار المحاكم والأحكام شعرتُ بأن علم القانون والوقوف على ما جاز وما حرّم من الأعمال، من أهم ما يتلقنه أفراد مجتمع منظم يسير تحت نفوذ تشريع واحد. إن المرء يجبهه القانون في كل خطوة يخطوها وفي كل أمر يأتيه. يرتكب المخالفة والجنحة لاهياً، وقد يفقد ثروة أو يرتكب جناية على غير علم منه، ويعاقب شديداً على جرائم لا وجود لها في تقديره ولا هو ينتبه لها إلا حين صدور الأحكام بها. كذلك في أعماله اليومية يحتاج أحيانا إلى إيضاحات صغيرة في ذاتها إلا أن جهله إياها جسيم النتائج. فيلجأ إلى السماسرة والمحامين وكتّاب المحامين والموظفين العديدين – وقد يبتغي إيضاحا فلا يلقي إلا تعقيداً. فتتعطل مصالحه وتربنك شئونه. ولايقف على ما يريد إلا ساعة تنقضي فرصة الاستفادة وتلافي الشر. وكل ذلك أساسه جهل أصول القانون وجهل أساليب التصرف المعينة في أحوال مخصوصة.

وما يقال في الرجل يزداد عليه في المرأة. لاسيما المرأة المسلمة التي يقوم حجابها جداراً بينها وبين دوائر الأعمال فيتاجر بجهلها الوكيل والقيم والحارس والكاتب ومن نحا نحوهم فيتلاعبون بمصالحها ما شاءت لهم الأطماع تلاعباً. فإذا كانت المدارس تعني الآن بتدريس علم الصحة البدنية لأهميته فأحر بها أن تدرس مبادئ القانون وهو علم الصحة الاجتماعية. وعلى اللبيب المتيقظ رجلاً كان أو امرأة، أن يدرس ما استطاع منه في وحدته كيلا تصادمه البلية ولات ساعة ندم.

رأي الباحثة في الخطبة والزواج معروف تقبله الأكثرية المتنورة إن لم يكن عملياً فمبدئياً. لقد قالت في لائحة خطبتها في نادي حزب الأمة – وفي جميع مقالاتها عن الزواج – باتباع الطريقة الشرعية في الخطبة فلا يتزوج اثنان قبل أن يجتمعا بحضور محرم. وقالت في الاقتراح الثامن من اقتراحاتها في المؤتمر الإسلامي بوجوب السعي في تقليل الزوجات. وهما رأيان في منتهى التعقل والصواب. ومما يبشر بالخير أن تعدد الزوجات أصبح نادراً في الطبقة الراقية وقلَّ من هؤلاء من يتزوجون بلا اجتماع وتعارف، وانتباه الآباء والفتيات لهذا الأمر والعمل به إنما هو في مصلحة المرأة المصرية كما أنه في مصلحة القومية المصرية، وإلا فما أسهل أن يتزوج الشاب من امرأة أجنبية تشربه روح وطنيتها فيتزوجها مبصراً بدلا من أن يقترن بالمصرية كفيفاً.

وقد ارتأت اتباع عادة نساء الأتراك في الاستانة في الحجاب والخروج. تُرى أتعني عادتهن منذ اثنتي عشرة سنة، أم عادتهن المتحركة مع الحياة، المتغيرة بتغيير الأحوال؟ إن المرأة التركية تحركت كثيراً في هذه الأعوام وقد كتب بعض مراسلي صحف الفرنجة في الأستانة أنها صارت تسير في الشوارع سافرة بزي باريسي كذلك تحركت المرأة المصرية. وكان أن قامت مظاهرات نسائية إبان الحركة الوطنية في الربيع السابق فلم يعترض الرجال ولم يقابلوا هذه النهضة الجميلة بغير الرضا والإعجاب. ثم كان أن لجنة ملجأ الحرية أعلنت في أواخر نيسان (أبريل) أو أوائل (يونيو) رغبتها في إقامة سوق خيرية تبيع فيها الفتيات المصريات أزهاراً مساعدة للملجأ، فهبت الصواعب والزلازل في وجه هذا الإعلان واستاء الجمهور استياء شديداً.

وأنا قرأت احتجاجاته بتعجب واحترام: التعجب لأن سخط اليوم لا يتفق مع رضا الأمس، مع أن أعمال البر لا تنقص عن أعمال الحماسة الوطنية شرفاً اجتماعياً، وإن فاقتها شرفاً أخلاقياً، أما الاحترام فلأن ذلك صادر عن طائفة كبيرة من المصريين، وجميع الآراء القومية جديرة بالاحترام لأنها تعرب عن نفسيات الأقوام وعقلياتهم، ولكنني عدت على رغم مني أتبين أحوال المرأة التركية. ففضلا عن أنها اشتغلت في مصالح التليفون والبريد والتليغراف وغيرها فإن الحركة لم تقتصر على طالبات المعاش.

إذ إن السلطانة حرم السلطان محمد الخامس ذهبت إلى إحدى مدارس البنات في الاستانة لتتصدر حفلة ختام الدراسة الثانوية، ووزعت بيدها الجوائز على المبرزات من الطالبات. ولما زار الإمبراطور شارل الهيسيوري الاستانة وذهب لمقابلة الحضرة السلطانية حضرت الحرم السلطاني تلك الزيارة الرسمية في قاعة التشريفات من وراء الحجاب. قد يقال إن هذا ليس سفوراً بحتاً، صحيح، ولكنه يشبه المقدمة ولم يسبق له مثيل، على ما أعلم، في تاريخ سلاطين بني عثمان. وإذا قيل إن هذه إلا أخباراً طيرتها البروق في ذلك الحين ولا يسهل التثبت من صحتها، فماذا نقول في السوق الخيرية التي أقامتها في الأستانة جمعية نسائية قبل نشوب الحرب بشهور قليلة وقد برزت فيها سيدات وأوانس البيوتات الإسلامية الكبيرة، ونشرت صور بعضهن يومئذ مجلة (الايلوستراسيون) الفرنساوية؟

ليس ما أورده إلا سوانح لا قيمة لها في الإصلاح المرجو، ولا أهمية لما أقوله إزاء ما يرتئيه أساطين المسلمين. ثم هل يجدي الاحتجاج والاقتراح نفعا إزاء التطور والانتقال المحتم من حال إلى حال؟ وباحثة البادية التي يعرف من قرأ

كتاباتها تعصبها للمصرية والإسلام وغيرتها في المحافظة على العادات الشرقية، تقول بالسفور ليس اليوم ولكن في المستقبل لأن المرأة ليست الآن على استعداد له لا هي ولا الرجل. ولقد سمعت منها ذلك شفاهاً بعد أن قرأته في (النسائيات) وأجده الساعة في مقالي الفرنساوي الذي كتبتُ تحت تأثير المقابلة الأولى. وفيه ما معناه:

(بعد تناول الشاي تحادثنا في تحرير المرأة والحجاب الذي يحاول بعضهم تمزيقه فقالت:

(سيمزق الحجاب عن قريب ونحن سائرات حتماً نحو السفور ولكن أيكون ذلك لخيرنا؟ أنا من القائلين بتحرير المرأة ولكن علينا ألا نحتضن الحرية دفعة واحدة لنأمن شرها. ليس من الممكن أن نخرج من الظلام الحالك إلى النهار الساطع دون أن تبهرنا الأنوار فتتضعضع البصائر ولا نعود نرى الأشياء في مكانها كما هي).

(قلت مصممة على إبقاء المناقشة في هذا الموضوع: حقا إن الأبصار تنبهر في الأوقات الأولى فتخطئ النظر والحكم ثم لا تلبث أن تعود إلى مقدرتها الطبيعية. ففي الاندفاع الأول للتحرير النسائي لابد من بعض الفوضى ثم تعتدل الشئون وتتبع صراطاً سوياً).

أجابت بقوة: (كلا! محجوبات اليوم يجب أن يبقين محجوبات دائما أما بناتنا الصغيرات..)

قلت: (نعم البنات الصغيرات اللاتي مازلن جالسات على مقاعد الدراسة ويلبسن البرنيطة الإفرنجية..).

قالت: (قلت نعم.. يستطعن متابعة السفور إذا عرفن حدود الحرية وتلقين تربية متينة. ولكن أنَّي لهن ذلك وأمهاتهن على ما هن عليه!).

الأمهات! نتوقف عند سماع هذا الاسم أمام كل صلاح وكل فساد، ونتطلع إلى حاملاته حيال كل تربية أخلاقية وكل إصلاح اجتماعي، لئن كانت الجنة تحت أقدام الأمهات فإن الجحيم بين أيدهن، ولهن أن يكن لذويهن ولوطنهن نعيماً أو جحيماً، عظمة أو هواناً، لو أدركت معني هذه الكلمات التي طال ترديدها كل فتاة، وبذلت مجهودها في إتيان ما في مقدورها، لضمنت للذراري تربية عالية ورفعة مقبلة. لو أدركت كل امرأة أن في قبضتها السعادة والشقاء لعرفت قيمة الواجب وكبرت في عيني نفسها، وفهمت هذا العناء العذب والمجد الخفي الحلو في أن تكون مليكة الأسرة. وإذن لأصبح الشرق شرق العلو والقدرة كما أنه شرق الشمس والقمر. عبثاً يقتحم الرجل منطق الذري. إن لم تكن رفيقته في أفقه المعنوي فإنها تقتل مواهبه بسخافتها وتعذبه بمطالبها. وتسيء تربية أولاده بتربيتها السيئة، وكلما حاول التحليق فوق جبل كانت هي جبلاً معلقاً في عنقه تشد به إلى الهاوية بدلا من أن تكون بتشجيعها وإعجابها جناحين لنفسه. كل إصلاح وكل نظام جدار لصرح العمران والعائلة، المرأة أساسه، لترتفع الجدران الباذخة المزخرفة ما شاء ذكاء الباني ومجهوده ارتفاعاً، ولكن إذا لم تقم على أساس خال من الضعف، سليم من الشقوق، تمر الرياح فتتداعى وتعصف العاصفة فتنقضها حجراً حجراً.

والوسيلة الوحيدة لإصلاح المرأة هي تعليمها. لأن العلم كما قالت الباحثة:

(منور العقل على أي حال سواء عمل به أو لم يعمل). (نحن نعلم أن نقص تربيتنا الأولى وتربية إخواننا لا شك نتيجة جهل أمهاتها فهل نعرف الداء ولا

نداويه، وقد قال الحديث الشريف لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين؟ إن المدارس مهما اجتهدت في تثقيف عقول النشء وتهذيبها فإن المنزل له تأثير خاص بالأطفال. وإذا شعر تلميذ إن أمه عالمة أو لها نصيب من علم فإنه يسعى جهده ليريها أنه أهل لحبها وتقديرها إياه فيجتهد ليحفظ سلسلة العلم لكون الصلة شديدة بينه وبينها، فتعلمنا الحالي ناقص يجب أن يزداد عليه لا أن ينقص منه. أما ما أشكل على الرجال من علة فسادنا فهو ما ينسبونه خطأ للتعلم وحقهم أن ينسبوه للتربية؟). (تلك التربية في الحقيقة يجب أن تكون من أعمال البيت لا المدرسة. ولما كانت بيوتنا لم تبلغ الدرجة التي تؤهلها لإحسان تربية الأطفال فقد وجب علينا أن نضاعف مجهوداتنا لإصلاح شأن أنفسنا ثم إصلاح النشء. ولا يتم ذلك في لحظة كما قد يتوهم).

كلا لا يتم ذلك في لحظة، لأن التربية كالعلم تكتسب شيئاً فشيئاً وتظل مكتسبة طوال الحياة. والعلم هو العلاقة الوحيدة بين الإنسان وبين الأشياء والسلك السمباثاوي الجامع بين الفكر الفردي والفكر الكوني. هو اليد القادرة الحاذقة التي تحسر اللثام عن أسرار الحياة، وبه وحده ينتبه المرء لقيمته كفرد وكإنسان. لا ذل إلا في الجهل ولا رفعة بدون معرفة. إنما هلاك النوع البشري في سد أبواب الإدراك وحذف إمكانية التعلم والتعليم، ولكن مازال الإنسان متناولا من بحار المعرفة والنور فهو سائر إلى الأمام مهما ألبست عليه السبل.

تقول الباحثة إن التربية من خصائص البيت لا المدرسة وفي فرنسا اليوم مشروع جديد لنزع الولد من حضن العائلة وهو في السنة السابعة من عمره، ليتلقي تربية أخلاقية. أليس هذا المشروع ناتجا عن ملاحظة عدم كفاءة الأمهات في التربية المطلوبة؟ على أن هناك تربية أخرى هي تربية الذات. وقد ذكرتها

المُصّلحة تلميحاً حيث قالت: (قد وجب علينا أن نضاعف مجهوداتنا لإصلاح شأن أنفسنا ثم إصلاح النشء).

إن الذين يسعدون بتربية متينة في الصغر قليلون في الشرق، ولعلهم ليسوا بالكثير في الغرب، ولكن يكفي أن يكون المرء حساساً راغباً في الرقي ليباشر إصلاح نفسه. هو يستطيع ذلك في كل أدوار الحياة وفي أي عمل من الأعمال. ولا يلبث الأمر المستهجن في بادئ الأمر أن ينقلب لذة كبيرة وقوة نامية. وربما كان أكثر الأفراد تأثيرا في المجتمع أولئك العاكفون على تربية ذواتهم، وهؤلاء يستفيدون من الكتب فائدة مزدوجة.

من اعتقادات الناس عامة أن العلم شيء والأخلاق شيء آخر، وقد يكون هذا ظاهرا في أحوال كثيرة إلا أنه لا غِ عند من يتعاطون إصلاح نفوسهم.

عندهم يمتزج العلم بالأخلاق وتتوحد المعرفة والتربية فتصير قوة رفيعة، وليس أقرب من العالم إلى الخلق السامي، لأن العلم يرينا عظمة الإنسان وجلال الوجود وقدرة الألوهية الشاملة، فيصبح العالم محبا ويتوق إلى الصلاح، إذ لا شيء يحث على الصلاح والرفعة الأخلاقية كالحب العميق الأكيد.

ألا فلتذكرن ذلك جميعاَ وأنتم أيها الجالسون على مقاعد المدارس فتياناً وفتيات، المطلون من وراء السطور على غرائب الحياة وخفاياها وممكناتها، أنتم الأمل الذي لم يذو بعد، والزهرة النضرة التي لم تلفحها السموم، لو ذكرتم أننا في عصر عظيم لكنتم شيوخ حكمة في شبابكم!

إننا في عصر لا مثيل له في التاريخ، فلا يغفر اليوم للفرد أن يكون ضعيفاً ضئيلاً لأن الأحوال تطلب الطبع الكبير والإرادة القوية ورجال الجد والعمل. فإن

لم يعد في نصوص الآباء ما يرضي مطالب الأبناء فما الواجب إلا أكثر خطورة على الذرية الحاضرة.

قد تغلط الذرية في تأويل معاني الارتقاء ولكن عليها أن تتجنب الخطأ بدرس أغلاط من كان لها سابقاً. وقد تلقى فشلاً مثلما لاقي السلف ولكنها ستجعل اهتمامها مملوءاً بثقة في الفوز والغلبة. وستجتهد على الأقل في فتح طريق الارتقاء للذراري المقبلات، وأي فخر أعظم من فخر من يهيئ السبيل؟ أليست قيمة الباحثة في أنها حفرت خط الإصلاح بدموع الإخلاص وإخلاص الدموع؟

(٨)

قاسم أمين وباحثة البادية

المقابلة بينهما

(فباحثة البادية – بين النساء المصريات بل المسلمات بل الشرقيات عموماً – لا يقل فضلها في الضرب على مساوئ الأسرة عندنا والحض على وجوب تعليم المرأة لتحرير عقلها وتقويم أخلاقها بالعلم الصحيح عن فضل قاسم أمين في وجوب تحريرها. وإن كانت لم تطلب لها هذا التحرير إلى الغاية القصوي مثله، لأنها لم تطلب إلغاءالحجاب بالكلية. وهو رأي في نظر البعض وجيه).

الدكتور شبلي شميل

(نحن لا نكتب طمعاً في أن ننال تصفيق الجهال وعامة الناس.. وإنما نكتب لأهل العلم وعلى الخصوص للناشئة الحديثة التي هي مستودع أمانينا في المستقبل فهي بما اكتسبته من التربية العلمية الصحيحة يمكنها أن تحل مسألة المرأة والمكان الذي تستحقه من العناية والبحث).

قاسم أمين

"حبذا لو تصفَّح هذا الكتاب النفيس "تحرير المرأة" كل من يغار على وطنه وأمته وساعد مؤلفه في بث آرائه بين الجمهور"

المقتطف

للحياة في أبنائها مآرب. تعطي بعضهم نفساً يكهربها الفكر والعاطفة وتلقي في أعماقها وديعة النبوغ فيصير بها صاحبها كأنما هو النقطة المركزية التي تتصل بها أسلاك جميع الشعورات والخبرات والفكرات والأعمال.

ما طغي ظالم في الأرض إلا اهتزت منه الجوانح حمية وحنقاً. ولا استبدت جماعة بجماعة أو جنس بجنس إلا انطلق صوته يدمدم كالعواصف، لأنه صوت انفجرت فيه أصوات من يتوجعون ولا يدرون كيف يتظلمون. ولا ضربت العلل الاجتماعية في بيئة عثواً إلا وحمل مشراط الجرّاح ولفائف المؤاسي وقام يبضع يوما ويضمد يوماً. تنزل به وبجاره نكبة واحدة في آن واحد فيئن الجار كفرد بشري، ويصرخ وهو في صراخه عويل جميع الذين قضوا وكانوا قبل الموت فريسة اليأس والهوان. وقد تكثر المحن على هذا (السعيد التعس)، لأنه كما أن البلسم الشافي لا تجود به الشجرة العطرية إلا بعد أن تقشر ثوبها ويتجرح صدرها فتجول حول كلومها اليد الشديدة ملتمسة السائل الزكي، كذلك لا تخرج المناداة بالإصلاح القومي والتقويم العمراني إلا من أعماق نفس شققتها نصال الرزايا وجالت يد الألم تجس فيها آثار الجراح بلا شفقة.

تشيخ الأمهات مناولات بناتهن قبس الحياة المنير ويظل الهاتف العتيد يتنقل محجوباً بين الأجنحة والمواليد من أهل الدار ونزيلها، والخمول الدهري مخيم على الجماعة إلى أن يجيء وقت اليقظة. إذ ذاك يبرز هاتفاً في الناس فيجفلون. فيلقاه بعضهم ساخطاً محتقراً، وغيرهم ناقداً متعنتاً، ويصغي آخرون بمسامع النفس والرغبة، وبدهشة الحب والإعجاب..وسواء صمّت آذانهم جميعاً أم كانوا من المنصتين فإن صدى الصوت يظل متردداً حول الأفكار والعادات حتى يندمج فيها، فلا يلبث أن يصير الرأي واقعًا والاقتراح إصلاحاً، لماذا يجيء

هذا الصوت الفعَّال من أفراد دون أفراد – مع أن الهاتفين كثير – وفي زمن دون آخر؟ ذلك سر من أسرار الحياة. وللحياة في الأمكنة والأزمنة والأفراد مآرب.

لم يكن قاسم أمين مصري الأصل وإن كان مصري المنبت والبيئة، وتام التمصر وطنية وإخلاصاً. لكن الحياة اختارته ليقول ما لم يقله أحد في مصر الحديثة قبله، وليترك في النشء أثراً جليلاً لم يكن لغيره. لقد قرأت كتبه بعد (نسائيات) الباحثة في عام واحد (١٩١٤) فبدهي أن يمتزج ذكراهما في نفسي، حتى إني لا أفكر في الواحد إلا تناسق اسم الآخر ومذهبه في خاطري. وإني لأحسب من واجب الإقرار بالجميل أن أكرّس له سطوراً في ختام هذا البحث، لأنه عمل لغاية سعت إليها الباحثة بعده، وإن كان عمل كل منهما مدفوعاً بفطرته الخاصة، سائراً نحو الكعبة المشتركة في طريقين يتحاذيان ويتباعدان على طول المسافة. لقد نفت الكاتبة عن نفسها اتباع مذهب قاسم، والتشيع له، بقولها في ردّها على قصيدة شوقي بك:

فعـــلام أكثـــرت الملامـــة وانضـــــممت لعـــــذّلي
وســقيتني مـــن مـــر قولـــك مثـــــل نقـــع الحنظـــــل
ونســـــبتني حنـــــاً لمـــذهب قاســــم وأبـــــي علــــى
تعنيـــــن ويلــــك أننـــي أمــــــــارة بتبـــــــذل

وهو إنكار يدل أيضا على أنها لم تنصفه – ولا أجرؤ أن أقول إنها لم تفهمه. وكيف أجرؤ على ذلك وأنا أعتقد على رغم مني بأن تأثيره فيها كان عظيماً، وإنها لم تتناول القلم بشجاعة إلا لأن قلمه أوحي إليها مهيئاً لها في النفوس سبيلاً وواضعاً في الأفكار قابلية واستعداداً. إنها لمست مثله نقطاً معينة وارتأت إصلاحها تقريبا على الوجه الذي يطلبه. وهل يمكن ألا تنفعل امرأة راقية

بكتابات هي الأولى من نوعها. ممن لم يرد للمرأة وللأمة إلا خيراً؟ لذلك أعود مجاهرة باعتقادي بأنها ابنته بالفكر والجرأة وتلميذته في المناداة بإصلاح شئون الناس. ولا ينفي ذلك ما بينهما من خلاف زهيد. لأن الأستاذ والتلميذ وإن اتحدت كلمتهما، فإن كلا منهما يظل جارياً وراء طبيعته يظهرها وينميها. وأبينُ شاهد على ذلك نجده بين ذروتي الفكر الإغريقي: أفلاطون وأرسطو. فإن كان أفلاطون زعيم الفلسفة الإيديالستية الكمالية الذي لا يباري فإن التلميذ أرسطو انفصل عن أستاذه حتى صار اسمه مرادفاً لاسم الفلسفة العلمية العملية.

هي تكتب كما تتكلم بفطرتها البسيطة، وهو كذلك يكتب كما يتكلم بفطرته البسيطة، إلا أن فطرتها هي نسائية فتنتقد وتنكت وتتألم وتشفق، وترتقي منبراً خيالياً تخطب بالإصلاح ثم تضحك وتبكي، وتأتي بجميع الأقوال والحركات التي تجعل المرأة محبوبة كالطفل، بليغة كالشاعر، خلابة كالسحار.. أما هو.. فقلب تثقله العواطف الطروبة وفكر شغف بالعدل والإنصاف والحقيقة. يحب الخير والصلاح كما أنه يحب اللفتات الحلوة والكلمات اللطيفة.. في ثنايا روحه شاعر ينشد وينوح ساعة يقول:

(يشعر العاشق بلذة ساحرة إذا كان محبوباً وإذا كان غير محبوب فيجد في ألمه لذة أخرى مشابهة للسكر). (أكثر الناس لا يفهمون من الحب إلا أنه أكلة لذيذة، إذا حضرت أكلوها هنيئاً وإذا غابت استعاضوها بغيرها، والحقيقة أنه إحساس عميق يستولي على النفس كلها ويجعلها محتاجة إلى الاختلاط بنفس أخرى احتياج ضروري كاحتياج العليل إلى الشمس والغريق إلى الهواء. نار تلهب القلب لا يطفيها البعد ولا يبردها القرب بل يزيدها اشتعالاً. ومرض يقاسي فيه العاشق عذاباً يظهر باحتقان في مخه وخفقان في قلبه واضطراب في أعصابه

واختلال في نظام حياته يظهر على الأخص في الأكل وفي النوم وفي الشغل ويجعله غير صالح لشيء سوى أنه يقضي أوقاته شاخصاً إلى صورة محبوبته مستغرقاً في عبادتها ذاكراً أوصافها وحركاتها وإشاراتها وكلماتها. نظرة في عيون محبوبته تملأ قلبه فرحاً وتجعله يتخيل أنه ماش في طريق مغروس بالورد أو راكب سحابة وطائر في المرتفعات العالية فوق فوق قريب السماء، وفي هذه اللحظة يكون سعيداً أسعد من أكبر ملوك الأرض فإذا انقضت عاد إلى ما كان فيه من العذاب والألم).

في هذا المزاج الذي جمع بين الزكاء الفطري والمعرفة المكتسبة والخبرة الواسعة، بين جدّ رجل القانون ودقة الأديب الطروب يتكوّن الاحتياج الشديد إلى الإصلاح، لأننا إذا أردنا إصلاحاً في التعليم مثلا فلا ننتظره ممن لا يحسنون القراءة، وإذا أردنا تعديل القانون وتنقية الأحكام فلا نطلبه من مستبد قانونه أنانيته. وإذا شئنا تصفية الذوق وتلطيف الشعور فلا نلجأ إلى الطبائع الخشنة والشعائر الضخمة، بل نأمل في الفكر المصقول والعقل الراجح والنفس المتّقدة عواطف، لتسوق بالناس إلى حب التحسن والرفعة المعنوية. ورفيق القلب نافذ الفكر يتعذّب بمعاشرة من لا يشبهه، ولا يميل إلا من تفاهم معه، فينتخب أصدقاءه انتخاباً لا يجعله متساهلاً فيه احتياجه المؤلم إلى خل وفي هذا اقرأ كيف يصور قاسم الصديقين:

(تأمل في مسامرة صديقين تجد أنها كنز سرور لا يفنى. متى تلاقيا يفرغ كل منهما روحه في روح الآخر فيسري عقلهما من موضوع إلى موضوع، وينتقل من الجزئيات إلى الكليات ويمر على الآمال والآلام والقبيح والحسن والناقص والكامل، كلّ عمل أو فكر أو حادث أو اختراع يكسب عقلهما غذاء جديداً

ويفيد نفسيهما لذة جديدة، كل مظهر من مظاهر حياة أحدهما العقلية والوجدانية وكل ما تحلت به نفسه من علم وأدب وذوق وعاطفة تنعكس منه على نفس الآخر فيكسبه لذة جديدة ويزيد في رابطة الإلفة بينهما عقدة جديدة).

فإذا كان هذا ما يطلبه من صديقه فماذا تراه يطلب من تلك التي هي زوجته؟! وقد قيل إن العاقل ينتخب لنفسه امرأة جامعة لكل الصفات التي يريدها في الصديق، ماذا يطلب من المخلوقة التي ينفعل الرجل مرغماً بتأثيرها في كل أدواره، وفي كل خطوة يخطوها سواء شاء أم لم يشأ، ينفعل بتأثيرها غريبة وقريبة، عابرة في سبيله أو شريكة له في حياته؟ ماذا يطلب، وهل عنده ما هو طالب بحق؟ هو يجيب عن هذا السؤال:

(وكل منا يذوق حلاوة الساعات التي تمر به دون أن يشعر حينما يطول الحديث بينه وبين صديق له وتختلط نفساهما ببعض حتى يذهل كل عن أيهما يتكلم وأيهما يسمع. فهذا السرور يتضاعف بلا شك، إذا وجد هذا التوافق بين رجل وأمه وأخته أو زوجته. ولكن يحول الآن بيننا وبينهن عدم التوافق بين عقولنا وعقولهن ونفوسنا ونفوسهن لهذا فإننا نشفق عليهن ونحن إليهن ونعذرهن. ولكن لا تكمل محبتنا لهن أن الحب التام هو ذلك التوافق وهو معدوم).

هو يعرف المرأة لأنه يعرف الرجل، ويعرفهما معا لأنه يعرف الطبيعة البشرية. ترى من يستطيع أن يكتب كلمة كهذه إن لم يكن قد خبر أحوال الناس، ونقدهم ثمن كل حرف من حروفها نقطة من أثمن دماء قلبه: (كلما قدرتُ على أن أقوم بخدمة طلبها مني صديق أسفت على خسارته وعددته عدوا جديداً). فلا عجب من أن هذا الذي ينفذ بنظره إلى أقاصي الوجدان طائفاً بين الغاز الميل والنفور يتمكن من لمس تفتت المرائر وإحصاء نبضات القلوب. وأي حدس

متيقظ مصيب في هذا البيان: (يوجد أناس متي رأيتهم أو سمعتهم تشعر بنقص في خلقهم كأنهم صنعوا بغاية السرعة فلم ينالوا حظهم من الإتقان المعهود).

وإذا حاولت إجمال شخصيته ووضع عنوان لها ما وجدت أفضل من سطوره الآتية:

(يظهر لي أن الارتقاء في الإنسان تابع على الخصوص لجهازه العصبي، فأكثر الناس استعداداً للرقي هم العصبيون الذين تبلغ منهم الانفعالات النفسية مبلغاً عظيماً وتهتز أعصابهم المتوترة بملامسة الحوادث فيظهر أثرها فيهم بكثرة وشدة أولئك هم السعداء التعساء الذين يتمتعون ويتألمون. أولئك هم السابقون في ميدان الحياة، تراهم في الصف الأول مخاطرين بأنفسهم يتنافسون فيما بينهم بمصادمة كل صعوبة. من بينهم تنتخب القدرة الحكيمة خيرهم وتوحي إليه أسرارها فيصير شاعراً بليغاً أو ولياً طاهراً أو فيلسوفاً حكيماً أو نبياً كريماً).

أو قاسماً أميناً..

لأني أظن على ما أرى من كتاباته وصورته الموضوعة في صدر (كلمات)، أنه إن لم يكن مزاجه عصبياً بحتاً ففيه شيء كثير من المزاج العصبي.

كل هذه العناصر النفسية تجمعت فكان أغلبها عنصر القضاء. هو يلاحظ الأشياء ويراقب الحوادث مدققاً ممحصاً ويحكم بفطرته لها أو عليها، وجاءت ممارسة القانون فزادت تلك الملكة ظهوراً. هو قاض في جميع كتاباته يجلس على منصة العدل غير ملتفت كالخطيب، إلا أنه أ على مكاناً من الجالسين، وأنه يجب أن يرفع صوته ليسمع السامعون. بل يجلس جلوساً طبيعياً لأن تلك المنصة مكانه، ويتكلم بلهجة بسيطة. يرى الأشياء حوله فيدوّنها ويقول: (أعرف قضاة

حكموا بالظلم ليشتهروا بين الناس). ويسمع الأقوال فيسجّلها، وهو الخبير بما فيها من رسم نفسية جمهور كبير من الناس، وبما تقيده على قائلها من وني فكري واستسلام ذليل: (سئل ح. بك: مارأيك في كتاب تحرير المرأة؟ فأجاب رديء! – هل قرأته؟ – لا – أما يجب أن تطلّع عليه قبل أن تحكم برداءته؟ ما قرأت ولا أقرأ كتاباً يخالف رأيي).

وإذا اهتم بموضوع ما أجري فيه تحقيقاً يتناول جميع فروعه العمرانية والسيكويولوجية والعلمية والوراثية والعائلية والوسطية، فيجاهر بما يراه حقا وقد لا يفهمه الآخرون، ولا يخشى لوماً بتسمية العيوب والأمراض بأسمائها. يجاهر غير متنبه للصواعق المنقضة عليه ممن لا يحسنون إلا مضع كلمات تلقونها يوماً فتجمدت معانيها في أفكارهم وفاخروا باحتكار الحقيقة.

إنه يبصر اللفائف البالية الفاسدة على قروح قديمة فيمد إليها يده الجريئة، وبينما العليل يغلظ القول محتجاً باسم الدين والأمة والشرف والعائلة ينزع هو تلك الأربطة هادئ الجأش، ويحلل الجراثيم الخبيثة الراكدة عليها فيحصيها واحداً فواحداً. إن نظرة المحب تلمع في عين هذا الأسى. ولا يروعه ضجيج الساخطين. بل يصمت عالماً بأن التمدد أول أدوار الشفاء وإذا تكلم قال بسذاجة:

(نحن نعلم أن رجلاً يعيش في عالم الخيال يكتب في مكتبه على ورقة: ليس على النساء إلا أن يقرن في بيوتهن خاليات البال تحت كفالة وحماية الرجال. نفهم ذلك على الورق لأن الورق يحتمل كل شيء).

وكما أن الطيب منه ودود كذلك القاضي مفكر. هذا يصغي إلى أقوال الشهود ويجمع حيثيات حكمه في حين أن ذاك يغوص في نفس المتهم ويقلب صفحات حياته حتى يصل إلى كلمة الاستهلال، حتى يصل إلى أمه. نعم أمه كيف كانت وكيف ربت هذا المسكين، وعلى أي وجه تربت هي قبل أن تلقى بالذي صار فيما بعد أباً له؟ ويتسلسل بحثه إلى نساء أخريات، وإلى جميع النساء، فيرى حالهن كما هي، ويعذر الذي يناقضه في الرأي لأنه لم ير ما رأى هو. فلا يجد ذاك صعوبة في أن يحكم على المرأة بالانزواء في المنزل. وإنما:

(يجد الصعوبة رجل اعتاد أن يحلل النظريات ويختبرها بقياسها إلى الواقع. فإنه إذا أراد مثلا أن يحصل لنفسه رأيا فيما هي حقوق النساء التي نحن بصددها يجب عليه أولاً أن يسوق نظره إلى الوقائع التي تمر أمامه. أعني أن يطبق نظريته على الواقع ويتصورها في ذهنه منفذة ومعمولا بها في قرية، ثم في مدينة ثم في إقليم، وتتمثل أمامه النساء في جميع أعمارهن وأحوالهن وطبقاتهن فيراهن بناتًا ومتزوجات ومطلقات وأرامل. ويراهن في البيت وفي المدرسة وفي الغيط وفي الدكان وفي الأماكن الصناعية. ويقف على سلوكهن مع أزواجهن وأولادهن والأجانب. ثم يعرف البلاد التي للنساء فيها شأن غير ما لنسائنا في بلادهن وكيف أنهن يستعملن حقوقهن والنتائج التي تربت على هذا الاستعمال. ويقف على حالة المرأة في الأزمان الخالية والتقلبات التي طرأت عليها). (فإذا توفر ذلك كله لم يتيسر له أن يحكم في المسألة حكماً قاطعاً. لأنه يعلم أن رأيه قائم على مقدمات ظنية فلا تكون نتائجها إلا تقريبية، لذلك تراه دائما على طريق البحث. لايركن إلى ما وصل إليه جهده إلا ليضعه قاعدة لعمل موقت، ولا يأنف من تعديل رأيه بحسب ما تقتضيه الحال ويظهره العمل).

لا يستطيع المرء أن يكون (قاضياً) عادلاً أكثر مما يظهر قاسم أمين في هذه الفقرة. وانك لتجد هذه النزاهة والأمانة والإنصاف في كل ما كتب، لذلك هو يخفي العواطف وينساها ما استطاع لأنها، كما يقولون، تحول بين الفكر والعدل. ويظل متكلماً بعقله، منادياً بالهدوء والرزانة والسير على القواعد العلمية والانتفاع بالمشاهدات الاجتماعية، ووجوب ضبط الانفعالات على الدوام. وعلى رغم ذلك فإن نفسه لا يفتر أبداً حتى إذا وصل إلى فكرة لمست من قلبه مكاناً حساساً أرسل كلمات تشبه في مؤاساتها لمسة التدليل والتحبب على جبهة رضيع عزيز:

(أليس من الغريب ألا يوجد رجل فينا يثق بامرأة أبداً مهما اختبرها ومهما عاشت معه؟ أليس من العار أن نتصور أن أمهاتنا وبناتنا وزجاتنا لايعرفن صيانة أنفسهن؟ أيليق أن لا نثق بهؤلاء العزيزات المحبوبات الطاهرات وأن نسيء الظن بهن إلى هذا الحدّ؟).

وفي وسط كل هذه الأبحاث الجدية، الخالي معظمها من التأثر والشعور، يشعر القارئ بأن قلب الرجل ليس بعيداً، أن قاسماً أحب المرأة حباً جماً. وقد خط لها رسماً يشرفها في هذه الألفاظ الوجيزة: (كلما أرادت أن أتخيل السعادة تمثلت أمامي في صورة امرأة حائزة لجمال المرأة وعقل الرجل) (٢)

امرأة يجد فيها:

(لطف الشمائل ورقة الذوق وبهاء الفطنة ونفاذ العقل وسعة العرفان وحسن التدبير والحذق في العمل مع المحافظة على النظام فيه ونظافة الباطن واظاهر وحنو القلب وصدق اللسان وطهارة الذمة وعظم الأمانة والإخلاص في الولاء،

ونحو ذلك من الفضائل المعنوية التي ترجح عند العقلاء على جميع المحاسن الجسدانية).

هذا هو مثله النسائي الأعلى، وبهذا المثل القاطن جوارحه يسير في سبيل الحياة مراقباً المرأة المصرية في خبرته القانونية، وفي العائلة والاجتماع والأمة جميعاً. فماذا يجد؟ يجد ما يدفعه إلى كتابة كل ما كتب في سبيل إصلاحها يجد ما يجعله يقول في التمهيد لكتاب (تحرير المرأة).

(أكتب هذه السطور وذهني مفعم بالحوادث التي وردت على بالتجربة وأخذت بمجامع خواطري. ولا أريد أن أذكر شيئاً منها لعلمي أنها ما تركت ذهناً حتى طافت به ولا خاطراً حتى وردت عليه. فإن مثار هذه الحوادث جميعها شيء واحد وهو المرض الملم بجميع العائلات لا فرق بين فقيرها وغنيها ولا بين رضيعها ورفيعها).

ويرى يوما فتاة صغيرة يعجبه منها الذكاء والجمال، فيشير على والدها بتعليمها ويجيب هذا بأنها تتعلم إدارة المنزل، وهذا يكفي. فيشفق قاسم على هذا الصلف والجهل وينطلق مفسراً.

(يعني هذا الأب العنيد بإدارة المنزل أن ابنته تعرف شيئاً من صناعة الخياطة وتجهيز الطعام واستعمال المكواه وما أشبه ذلك من المعارف التي لا أنكر أنها مفيدة بل لازمة لكل امرأة، ولكنني أقول ولا أخشى نكيراً أنه مخطئ في توهمه أن المرأة التي لا يكون لها من البضاعة إلا هذه المعارف يوجد عندها من الكفاءة ما يؤهلها إلى إدارة منزلها. ففي رأيي أن المرأة لا يمكن أن تدير منزلها إلا بعد تحصيل مقدار معلوم من المعارف العقلية والأدبية).

(والحقيقة أن إدارة المنزل صارت فناً واسعاً يحتاج إلى معارف كثيرة مختلفة. فعلى الزوجة وضع ميزانية الإيراد والمصروف بقدر ما يمكن من التدبير حتى لا يوجد خلل في مالية العائلة. وعليها مراقبة الخدم بحيث لا يفلتون لحظة من مراقبتها، وبغير هذا يستحيل أن يؤدوا خدمتهم كما ينبغي.

وعليها أن تجعل بيتها محبوباً إلى زوجها فيجد فيه راحته ومسرته إذا آوي إليه. فتحلو له الإقامة فيه ويلذّ له المطعم والمشرب والمنام فلا يطلب المفر منه ليمضي أوقاته عند الجيران أو في المحلات العمومية. وعليها – وهو أول الواجبات وأهمها – تربية الأولاد جسماً وعقلاً وأدباً). (ومن المعلوم أن الطفل لا يعيش من طفولته إلى سن التمييز إلا بين النساء). و(الأم الجاهلة ليس في استطاعتها أن تصبغ نفس ولدها بصبغة الصفات الجميلة لأنها لا تعرفها). (قد صار من المقرر عندنا أن الأمهات لا يفلحن في تربية الأولاد حتى صار من المثل في الحطة ورداءة السيرة أن يقال فلان تربية امرأة).

بل هو يذهب إلى أبعد من أن يحصر وظيفة الزوجة في إدارة المنزل وتربية الأطفال. هو يريد زوجة تقاسمه أفراحه وآلامه وكلامه وسكونه. يريد منها أختاً لروحه فيشكو ويقول إن الرجل أحياناً – ولست أدري هل كل رجل كذلك . يفهم بكلمة ويود لو يفهم بالإشارة. يسكت في أوقات ويتكلم في أخري ويضحك في غيرها). (له أفكار يحبها ومذهب يشغله وجمعية يخدمها ووطن يعزه. له لذائذ وآلام معنوية فيبكي مع الفقير ويحزن مع المظلوم ويفرح بالخير للناس. وفي كل فكرة تتولد في ذهنه وإحساس يؤثر في أعصابه يود أن يجد بجانبه إنسانا آخر فيشرح له ما يشعر به ويتسامر معه). (فإذا كانت امرأته جاهلة كتم أفراحه وأحزانه عنها، ولا يلبث أن يرى نفسه في عالم وامرأته في عالم آخر. ومن ثم تبتدئ

عيشة لا أظن أن الجحيم أشد نكالاً منها. عيشة يرى كل منهما فيها أن صاحبه هو العدو الذي يحول بينه وبين السعادة).

(والزوجة المصرية مهما كانت لا تعرف من زوجها سوى أنه طويل أو قصير أبيض أو أسود. أما قيمة زوجها العقلية والأدبية وسيرته وطهارة ذمته ورقة إحساسه ومعارفه وأعماله ومقاصده في الوجود وكل ما تصاغ منه شخصية الرجل منا ويصير به إلى أن يكون محترماً محبوباً ممدوحاً في أمته – فهذا لا يصل إلى عقلها شيء منه. وإن وصل فلا يؤثر في منزلته في نفسها. وعلى هذا أول من يجهل الرجل زوجته. فكيف يظن أنها تحبه؟). (أبغض الرجال عندها من يقضي أوقاته في الاشتغال في مكتبه. كلما رأته جالساً منحني الظهر مشغولا بمطالعة كتاب غضبت منه ولعنت الكتب والعلوم التي تسلب منها هذه الساعات وتختلس الحقوق التي اكتسبتها من زوجها. ومن هذا يتولد على الدوام نزاع لا ينتهي إلا بنزاع جديد ولا يدري الزوج المسكين ماذا يصنع إذا أراد الجمع بين هذين العدوين:

(الزوجة والعلم). (ومن البديهي أن الرجل الذي تكون هذه حاله ينتهي بفقد كل استعداد للعمل. لأن الرجل يطلب راحته وهي في يد امرأته لكنها تبخل بها عليه).

هذه حال المرأة فكيف يصلحها ويجعلها نافعة لنفسها ولغيرها؟ ما الذي جعل الرجل أفضل اليوم منه البارحة؟ وعلى أي شيء تنتصب أركان العمران؟ أمر أصبح شغله الشاغل فحمل قلمه ونظر إليه كمن ينظر إلى الأمل الوحيد في الدنيا وجرى به على القرطاس المطيع، ذلك القلم الذي قال فيه خليل مطران:

يــدك القبــيح ويبنــي المليــح رجـــوعاً إلـــى ســـنة الراســـمِ
يشعشــع نــوراً إذا مــا انـــبرى يســـيل بمـــاء الـــدجى الفـــاحمِ

باحثة البادية تصلح كامرأة، وقيل إن المرأة أكثر تشبثاً بالماضي. وقاسم أمين يصلح كرجل – أي يرسل نظره أبداً إلى الأمام. هي تسير بتحفظ بين تشعب الأفكار الجديدة والآراء المستحدثة، وكلما خطت خطوة التفت إلى الوراء لتثبت أنها تابعة السبيل الذي يربط الأمس بالغد. وكلما جاءت بتبديل في النصوص الاصطلاحية حاولت سبكه في قالب الاعتدال مع مراعاة العادات المألوفة ما أمكن، هي كثيرة التحذر في إصلاحها، عملية متواضعة في مطالبها، لا تبتعد فتراً واحداً عن حدود بيئتها وإن حامت فوقها بما أوتيت من شجاعة وذكاء، إلا أنك حينما تسمعها صارخة كثيراً ما تظن أنها تفعل ذلك لتؤكد لك أنها غير خائفة، ولك أن تقدّر كذلك أنها تصرخ لسماعها صوتاً إنسياً– وإن كان صوتها – يبعد عنها الرعب والوجل في وجدتها الفكرية. أما قاسم فلا يصرخ ولا يخاف ولا يرتعش. في فكره مقدار الكمال الكافي لاختطاط النظريات، وفي أصالة رأيه وحزمه من الجدارة ما يحوّل النظريات إلى ما يطابق الواقع، بل هي الواقع بعينه. وله جناحان يدفعان به إلى نقطة إدراكية يشرف منها على الماضي والحاضر والمستقبل، وعلى جميع البيئات والأمم والتواريخ. فيضع هناك كرسي القضاء– كرسيه – ويجلس متأملاً مقابلاً بين شعب وشعب وعصر وعصر، باحثاً في كل آن وزمان عن تلك السعادة الحلال المتمثلة له في صورة امرأة (حائزة لجمال المرأة وعقل الرجل).

وبين زرافات النساء المارة أمامه تستوقف خاطره امرأة بلاده، أمه وأخته وزوجته وابنته أولئك اللاتي أوجدتهن الطبيعة صديقات لحزنه وأنسه. وكأني به

يناديهن فيلبين النداء بطيئات متسكعات تعبات ويدنين فيري عليهن غشاء يمنع عنهن نور الشمس ونور الحياة: الحجاب!

لهذه الكلمة دوي مرعب في نفسه كما لدوي أبواب السجون في مسمع من حُكم عليه بالسجن المؤبد ظلماً. فيمسك بهذا الحجاب ويقلب معانيه من جميع الوجوه، ويدرس تاريخ نشأته وتأثيره في الشعوب التي اقتبسته ثم نبذته، ويحلل أسبابه ويتبصر في نتائجه، ويراجع أقوال الكتاب العزيز والحديث الشريف وعادات القوم، فيقرر بعد البحث والتعليل أنه ليس إسلامي الأصل ما دام أنه استعمل عند أمم سبقت الإسلام، وأنه ليس واجباً على المرأة المسلمة ما دام أنه ليس في الشرع نص صريح يقر بأنه. هو في نظره أثر من آثار الهمجية الأولى، بل هو (أقصى وأفظع أشكال الاستعباد. ذلك لأن الرجال في عصر التوحش كانوا يستحوذون على النساء إما بالشراء وإما بالاختطاف) ويتابع قائلاً:

(فلما بطل حق ملكية الرجال على النساء اقتضت سنة التدريج أن تعيش النساء في حالة وسط بين الرق والحرية حالة اعتبرت فيها المرأة أنها إنسان لكنه ناقص غير تام، أكبر على الرجل أن يعتبر المرأة التي كانت ملكاً له بالأمس مساوية له اليوم فحسن لديه أن يضعها في مرتبة أقل منه في الخليقة. وزعم أن الله لما خلق الرجل وهبه العقل والفضيلة وحرمها من هذه الهبات).

وقال إنه (يلزم أن تعيش غير مستقلة تحت سيطرة الرجل وأن تنقطع عن الرجال وتحتجب بأن تقتصر في بيتها وتستر وجهها إذا خرجت حتى لا تفتنهم بجمالها أو تخدعهم بحيلها، وأنها ليست أهلاً للرقي العقلي والأدبي فيلزم أن تعيش جاهلة). (وذلك هو السر في ضرب الحجاب وعلة بقائه إلى الآن). (ولما كانت تهمة المرأة بنقصان العقل هي الحجة التي اتخذها الرجال لاستعبادها

وجب علينا أن نبحث في طبيعة المرأة لنعلم إن كانت كما يقال أحط من طبيعة الرجل أم لا). (ولا ريب أن المرأة اليوم أحط من الرجل في الجملة ولكن علينا أن ننظر هل هذه الحال طبيعية لها أو ناشئة عن طرق تربيتها). (لأن الرجال اشتغلوا أجيالاً عديدة بممارسة العلم فاستنارت عقولهم وتقوّت عزيمتهم بالعمل، بخلاف النساء فإنهن حرمن من كل تربية، فما يشاهد الآن بين الصنفين من الفروق وهو صناعي لا طبيعي. لا نريد بهذا التساوي أن كل قوة في المرأة تساوي كل قوة في الرجل وكل ملكة فيها تساوي كل ملكة فيه، ولكننا نريد أن مجموع قواها وملكاتها تكافئ مجموع قواه وملكاته، وإن كان يوجد خلاف كبير بينهما لأن مجرد الخلاف لا يوجب نقص أحد المتخالفين عن الآخر).

(وبعبارة أخرى يوجد مذهبان أحدهما ينصح للناس بالتمسك بالحجاب والثاني يشير عليهم بإبطاله). (فأي المذهبين يتفق مع مصلحتنا وتتوفر به منافعنا؟ أما الحجاب فضرره أنه يحرم المرأة من حريتها الفطرية ويمنعها من استكمال تربيتها. ويعوقها عن كسب معاشها عند الضرورة. ويحرم الزوجين من لذة الحياة العقلية والأدبية. ولا يأتي معه وجود أمهات قادرات على تربية أولادهن. وبه تكون الأمة كإنسان أصيب بالشلل في أحد شقيه). (وأما الحرية فمزاياها هي إزالة جميع المضار التي تنشأ عن الحجاب وسبق ذكرها. وضررها الوحيد أنها في مبدأها تؤدي إلى سوء الاستعمال، ولكن مع مرور الزمن تستعد المرأة إلى أن تعرف مسئوليتها وتتحمل تبعة أعمالها وتتعودّ على الاعتماد على نفسها والمدافعة عن شرفها حتى تتربى فيها فضيلة العفة الحقيقية التي هي ترفع النفس المختارة الحرة عن القبيح، لا خوفاً من عقاب ولا طمعاً في مكافأة ولا لوجود حائل ليس في الإمكان إزالته بل لأنه قبيح من نفسه).

وبالجملة فإن (المرأة لا تكون ولا يمكن أن تكون وجوداً تاماً إلا إذا ملكت نفسها وتمتعت بحريتها الممنوحة لها بمقتضى الشرع والفطرة معاً ونمت ملكاتها إلى أقصى درجة يمكنها أن تبلغها. والحجاب على ما ألفناه مانع عظيم يحول بين المرأة وارتقائها، وبذلك يحول بين الأمة وتقدمها).

كم يخطئ من لم يعرف من قاسم أمين سوى أنه ينادي برفع الحجاب، وهو الأمر الذي اشتهر به! وأنه يريد للمرأة الحرية المطلقة بلا قيد ولا شرط، وهو ما يقوله الذين لم يقرأوا كتبه! أنه من أكثر من أعرف محافظة على أنثوية المرأة ومنزلتها في العائلة والأمة – وإن أنصفها في غير هذا الدور.

(٩)

قاسم أمين وباحثة البادية

المقابلة بينهما (تابع وخاتمة)

قال المقتطف في وصفه حفلة التأبين لقاسم، إنه ورد في خطاب السيد رشيد رضا الكلمات الآتية: (أخبرني قاسم أمين بأنه كان يوماً اطّلع علما كتبه الدوق داركور غافلاً عن حال النساء فآلمه ذلك النقد والتشنيع فاندفع إلى الرد بوجدان الغيرة وبعد أن شفي غيظه، وأرضى غيرته بذلك عاد إلى نفسه وفكر في الأمر، فرأى أن كثيراً من العيوب التي عاب الدوق بها البيوت المصرية صحيح في نفسه فبعثه ذلك إلى درس هذه المسألة). (وانتهى به البحث والتنقيب إلى تصنيف كتاب (تحرير المرأة).

والواقع أن من طالع الرد على الدوق داركور وعلى كتاب (تحرير المرأة) رأى أن فكر قاسم ارتقى واتسع وتسامى في الفترة التي مرت بينهما. وقد عزز هذا الكتاب بكتاب (المرأة الجديدة) رداً على معارضيه فجاء كالكتاب الأول، بل أقوى حجة وأوضح دليلاً.

فقسمه إلى حرية المرأة، والواجب على المرأة لنفسها، والواجب عليها لعائلتها، ثم التربية والحجاب، وخاتمة ترسم صورة الأفكار في تلك الأيام بالنسبة إلى المرأة. أما الحرية فلابد من منحها إياها لأنه لا يظن (أن عقلاً يقبل أن تعتبر

المرأة إنساناً كامل العقل والحرية من جهة استحقاقها لعقوبة الشنق إذا قتلت، ثم تعتبر أنها ناقصة العقل بحيث تحرم من حريتها في شئون الحياة العادية) فقال:

(على أن ما قيل ويقال من أن حرية النساء تعرضهن للخروج عن حدود العفة كله كلام لا أصل له تبطله التجارب وينبذه العقل إذ التجارب المؤسسة على المشاهدات الصحيحة تدل على أن حرية النساء تزيد ملكاتهن الأدبية وتبعث فيهن إحساس الاحترام لأنفسهن وتحمل الرجال على احترامهن).

ويرى واجب المرأة لنفسها في ترتيب أعمال الإنسان المنقسمة إلى ثلاثة أنواع: الأعمال التي يحفظ بها حياته، والأعمال التي تفيد عائلته، والأعمال التي تفيد المجتمع، مقرراً أن هذه الأعمال من خصائص الرجال والنساء على السواء، ولكنه يضرب صفحاً عن نوع الأعمال الثالث لا لقصور المرأة وعجزها الظاهر الآن فحسب بل لأنه يرى (أننا لا نزال إلى الآن في احتياج كبير إلى رجال يحسنون القيام بالأعمال العمومية). يسلم بأن الفطرة أعادت المرأة إلى العيشة العائلية ويردد أن (أحسن خدمة تؤديها المرأة إلى الهيئة الاجتماعية هي أن تكون زوجة ووالدة)، إلا أن هذا لا ينسيه الواقع وهو أن كثيرات ليس لهن عائل ولا واجبات عائلية، وأن عدد هؤلاء اثنان في المائة من مجموع النساء المصريات (فهل من مصلحة للرجال أو لعموم الهيئة الاجتماعية من أن يعيش هؤلاء النساء ضعيفات جاهلات فقيرات؟). ثم يتبسط في الشرح قائلا:

(يوجد في كل بلد عدد من النساء لم يتزوج وعدد آخر تزوج وانفصل بالطلاق أو بموت الزوج ومن النساء من يكون لها زوج لكنها مضطرة إلى كسب عيشها بسبب شدة فقره أو عجزه أو كسله عن العمل. ومن النساء عدد غير قليل متزوجات وليس لهن أولاد. كل هؤلاء النسوة لا يصح الحجر عليهن).

(يقول المعترضون إنهم لا يمنعون النساء الفقيرات من مباشرة أعمال الرجال والاختلاط بهم، كما أنهم لا يمنعون المرأة من التعليم إذا كان لازماً لكسب عيشها لأن الضرورات تبيح المحظورات). (ولا يخفى أن كل نفس حية معرضة لانتياب الحاجات ونزول الضرورات). ولما كان الاطلاع على الغيب أمراً غير ميسور للإنسان وجب أن تستعد كل امرأة لهذه الحوادث قبل أن تقع لها). فإذا تزوجت بعد ذلك فلا يضرها علمها بل تستفيد منه كثيراً وتفيد عائلتها وإن لم تتزوج أو تزوجت ثم انفصلت عن زوجها لسبب من الأسباب كثيرة الوقوع أمكنها أن تستخدم معارفها في تحصيل معاشها بطريقة ترضيها وتكفل راحتها واستقلالها وكرامتها). (يجب أن تربي المرأة على أن تكون لنفسها لا أن تكون متاعاً لرجل ربما لا يتفق لها أن تقترن به مدة حياتها. يجب أن تربي المرأة على أن تدخل في المجتمع وهي ذات كاملة لا مادة يشكلها الرجل كيفما شاء. يجب أن تربي المرأة على أن تجد أسباب سعادتها وشقائها في نفسها لا في غيرها). (وليس معنى ذلك إلزام كل امرأة بالاشتغال بأعمال الرجال وإنما معناه أنه يجب أن تهيأ كل امرأة للعمل عند مساس الحاجة إليه).

هذه النقطة من الموضوع ينساها كثير ممن يتعرضون لمعالجة تهذيب المرأة فيجزمون بأنها لا وجود للمرأة إلا بجانب الرجل. فكيف يحيا ذلك العدد الكبير من النساء الذي لا يعيش للرجل؟ لقد انصفهن قاسم. ثم تحوَّل إلى الوظيفة المباركة التي سمّاها واجب المرأة لعائلتها، مفصّلا كيف أن الناس عادة يسيئون فهم تلك الوظيفة إذ يجعلونها مقصورة على الأمومة الجسدية، ناسين أن المرأة الحرة هي التي يكون لها نفوذ عظيم صالح في أسرتها، وأن نفوذ الجاهلة المستعبدة لا يتعدى ما يكون (لرئيسة الخدم في البيت) وكم كان هذا النفوذ سيئ الأثر جالب الهم والغم! يلوم من كانت هذه حالها مشفقاً ناسباً انحطاطها إلى من

هو السيد، مُرجعاً أمره – كما فعلت الباحثة – إلى أصله الحقيقي وهو إهمال الرجل وأنانيته وبطشه. وما تتعلمه البنات الآن ليس بكاف في رأيه لأن:

(أكثر ما تعرفه المرأة التي يقال إنها متعلمة هو القراءة والكتابة وهذه واسطة من وسائط التعليم وليست غاية ينتهي إليها. وما بقي من معارفها فهي قشور تجمعها الحافظة في ريعان العمر ثم تنفلت منها واحدة بعد واحدة حتى لا يبقى شيء).

هو يريد شيئاً أفضل وأبقى من هذه اللوامع الظاهرة التي يعني الأهل بطلاء شخصية بناتهم بها من العزف على آلات الطرب. والغناء. ومبادئ الرسم، والكلام بلغة أو بلغات لا يحسن بها غير ثرثرة الاجتماعات وقراءة الروايات، وتظارف الدمى تصنعاً بالصوت والحركة. يزيد للمرأة شخصية قوية مستقلة، ولا يظنها قادرة على القيام بوظيفتها في العائلة والأمة إلا إذا حازت جانباً كبيراً من المعرفة وهي الوسيلة الوحيدة التي يرتفع بها (شأن الإنسان من منازل الضعة والانحطاط إلى مراقي الكرامة والشرف). وإن لم تكن الأم راقية بمعرفتها وفكرها فكيف تستطيع تربية ابنها على مثل ذلك؟ قال:

(غاب عنا أن الرجل إنما يكون كما هيأته والدته في صغره). (ويظن الجمهورالأعظم من الناس أن التربية من الهنات الهينات ولكن من يعرفها حق المعرفة يعلم أنه لا شيء من الشئون الإنسانية مهما عظم يحتاج إلى علم أوسع ولا نظر أدق ولا عناء أشق مما تحتاج إليه التربية. أما من جهة العلم فلأنها تحتاج إلى جميع العلوم التي توصل إلى معرفة قوانين نمو الإنسان الجسماني والروحاني. وأما من جهة المشقة والعناء فلأن تطبيق هذه القوانين على ما يلائم حال الطفل من يوم ولادته إلى بلوغه سن الرشد يحتاج إلى صبر ومثابرة في

العمل ودقة في الملاحظة والمراقبة قلما يحتاج إليها عمل آخر. لا يؤخذ من ذلك أني أذهب إلى أن كل أمّ يجب عليها أن تحيط بتلك العلوم الواسعة ولكن إن جميع الأمهات يجب عليهن أن يعرفن كلياتها وكلما زاد علم الواحدة منهن بأصول العلوم وفروعها زادت قوة استعدادها لتربية أولادها). (وليس تأثير المرأة في العائلة مقتصراً على تربية الأطفال، بل المشاهد بالعيان أن المرأة تؤثر في جميع من يعيش حولها من الرجال. فكم من امرأة سهلت على زوجها وسائل النجاح في أعماله، وأعدت له أسباب الراحة والاطمئنان ليتفرغ لأشغاله). (وكم من امرأة طيبت قلب الرجل وقوّت عزيمته في حال اليأس والقنوط. وكم رجل طلب المجد ومعالي الأمور طمعاً في ارضاء محبوبته فبلغ الغاية مما طلب).

(وأي رجل لمصلحة أعظم من أن يعيش وبجانبه رفيقة تلازمه في الليل والنهار، في الإقامة والسفر في الصحة والمرض في السراء والضراء، رفيقة ذات عقل وأدب عارفة بحاجات الحياة كلها، تهتم بكل شيء يمس بمصلحة زوجها ومستقبل أولادها تدبر ثروته وتحافظ على صبحته وتدافع عن شرفه وتروج أعماله وتذكره بواجباته وتنبه إلى حقوقه، وتعرف أنها باجتهادها تجد في منفعتها كما تجد في منفعة زوجها وأولادها. وهل يسعد رجل لا يكون بجانبه امرأة يهبها حياته وتشخص الكمال بصداقتها أمام عينيه فيعجب بها ويتمنى رضاها ويتوسل إليها بفاضل الأعمال ويدنو منها بعقائل الصفات ومكارم الأخلاق. صديقة تزين بيته وتبهج قلبه وتملأ أوقاته وتذيب همومه؟ هذه الحياة لا يشعر الرجال عندنا بشيء منها هي من أعظم الينابيع للأعمال العظيمة).

يا لبلاغته ساعة صيف المرأة المثلى! إنه يتوق إلى أن يلقي فيها زوجة وأماً وأختاً وصديقةً وحبيبةً وإلهةً ومهذبةً جميعاً. وهو جائع عطش إلى كل ما تكنه

ذاتها من رحمة وحنو وحزم وحب شامل. كم كان أميناً لخيالها في ذهنه ساعة قال: إنه كلما حاول أن يتصور السعادة رآها امرأة (حائزة لجمال المرأة وعقل الرجل).

في كتاب (تحرير المرأة) الذي هزَّ مصر يومئذ هزة عنيفة لم يطلب رفع الحجاب دفعة واحدة، بل هناك أقوال صريحة تدل على أنه ليس أقل من الباحثة اعتدالاً. مثلاً:

(إني لا أقصد رفع الحجاب الآن دفعة واحدة والنساء على ما هن عليه اليوم). (وإنما الذي أميل إليه هو إعداد نفوس البنات في زمن الصبا إلى هذا التغيير. فيعوَّدْن بالتدريج على الاستقلال ويودع فيهن الاعتقاد بأن العفة ملكة في النفس لا ثوب يختفي دونه الجسم. ثم يعوَّدْن على معامل الرجال من أقارب وأجانب مع المحافظة على الحدود الشرعية وأصول الأدب تحت ملاحظة أوليائهن).

بل يعتقد: (أنه لو استمر تخفيف الحجاب يتقدم بالسرعة التي سار بها إلى الآن – والنفوس على ما هي عليه – لعمت البلوي وزاد الفساد انتشاراً). (وليس الدواء في تغليظ الحجاب لأنه مستحيل. بل من متممات شئوننا أن نحافظ على هذه الحالة (حالة الاختلاط بالأجانب وقبول الصالح من عاداتهم) متقين المضار التي نشأت عنها. والطريقة الناجحة والحجاب المنيع هي التربية الصالحة). (والذي أراه أن هذا الموضوع هو أن الغربيين قد غلوا في إباحة التكشف للنساء وقد تغالينا نحن فيطلب التحجب). و(بين هذين الطرفين وسط – هو الحجاب الشرعي وهو الذي أدعو إليه).

يمكننا اليوم أن نتخيل بسهولة بأي حدة وغضب قوبلت هذه الدعوة الجسورة، وكيف هبّ البعض يدحضونها ويرمون صاحبها بالكفر. أما هو فقرأ تلك الانتقادات بتمعن ورد عليها بحصافة في كتاب (المرأة الجديدة) حيث قال:

(وعلى أننا بعد أن دققنا النظر في جميع ما قيل أو كتب في هذا الشأن، لانزال على رأينا ولم يزدنا تكرار البحث فيه إلا وثوقاً بصحة ما ذهبنا إليه).

(لو لم يكن في الحجاب من عيب إلا أنه مناف للحرية الإنسانية، وأنه صار بالمرأة إلى حيث يستحيل عليها أن تتمتع بالحقوق التي خولتها لها الشريعة الغراء والقوانين الوضعية فجعلها في حكم القاصر لا تستطيع أن تباشر عملاً ما بنفسها مع أن الشرع يعترف لها في تدبير شئونها المعاشية بكفاءة مساوية لكفاءة الرجل، وجعلها سجينة مع أن القانون يعتبر لها من الحرية ما يعتبره للرجل – لو لم يكن في الحجاب إلا هذا العيب لكفي وحده في مقته وفي أن ينفر منه كل طبع غرز فيه الميل إلى احترام الحقوق والشعور بلذة الحرية، لكن الضرر الأعظم للحجاب فوق جميع ما سبق هو أنه يحول بين المرأة واستكمال تربيتها).

ولعل هذا الرجل سلسل الأمير الكردي تسعى أبداً في مجاري دمه ومطاوي روحه تذكارات إغارات جدوده في جبالهم العصية وكل ما استشقه آباء آبائه من هواء نقي وتمتعوا به من حرية، فما ذكر الحجاب إلا هتف:

(أي نفس حساسة ترى بالمعيشة في قفص مقصوصة الجناح مطأطأة الرأس مغمضة العينين، وهذا القضاء الواسع الذي لا نهاية له أمامها والسماء فوقها والنجوم تلعب ببصرها وأرواح الكون تناجيها وتوحي إليها الآمال والرغائب في فتح كنوز أسرارها؟)

وللمعترضين بأن الإطلاق يجلب الضرر يجيب: (أما الإطلاق في نفسه فلا يمكن أن يكون ضاراً أبداً متى كان مصحوباً بتربية صحيحة. لأن التربية الصحيحة تكون أفراداً أقوياء بأنفسهم يعتمدون على أنفسهم ويسيرون بأنفسهم فمن كملت تربيته استقل بنفسه واستغنى عن غيره. ومْن نقصت تربيته احتاج إلى الغير في كل أموره. فالاستقلال في النساء كالاستقلال في الرجال يرفع الأنفس من الدنايا ويبعدها عن الخسائس، لذلك يجب أن يكون هو الغاية التي نطلبها من تربية النساء).

بيد أنه أدرك أن إصلاح المرأة لا يتم بالتربية وحدها ما لم يتوفر لها وسط يكفل حفظ ما تكسبه من فائدة معنوية، ولابد لذلك من كمال نظام العائلة القائم على مسائل مهمة ثلاث، هي: الزواج والطلاق وتعدد الزوجات.

وقد جعل أساساً لكلامه الآية الحكيمة القائلة: (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة).

أين (المودة والرحمة)؟ يسأل قاسم نفسه. أمن دواعي المودة أن يرتبط الزوجان برباط الزواج قبل أن يتعارفا وقبل أن يميل كل منهما للآخر؟ أمن دواعي المودة ألا يتفاهم العروسان إلا بعقول الآباء والجيران والرسل، وألا يعلم الواحد من أحوال الآخر إلا ما يسمعه نقلا عن ناقل مغرض أو متهوس؟ وأين الرحمة في قلوبهن وكل منهن شاعرة بأنها مظلومة وأن زوجها مستبد طاغ؟ أين الرحمة في قلب رجل يؤذي امرأة في أرق عواطفها وأعز ما عندها، ويسحق حياتها وسعادتها تحت قدم أهوائه؟

يقول بضرورة التلاؤم في الأذواق والميول، وأنه لا غنى عن أن يرضي كل بهيئة صاحبه فلا يشعر بذلك (النفور) الذي يبعد بين بعض الأشخاص لمجرد النظر، ويقول بوجوب ائتلاف الملكات والعقول. ولا يتأتى كل ذلك إلا إذا خالط كل منهما الآخر ولو قليلاً قبل الخطبة، وبهذا الاجتماع عود إلى (أصول الدين وعوائد المسلمين السابقين وهو إصلاح يقضي به العقل السليم). (لأن رجال العصر الجديد لا يرضون الارتباط بزوجة لم يروها وإنما يطلبون صديقة يحبونها وتحبهم لا خادمة تُستعمل في كل شيء).

و(كل ذي ذوق سليم يرى من الصواب أن يكون للمرأة في انتخاب زوجها ما للرجل في انتخاب زوجته فإنه أمر يهمها أكثر مما يهم ذوي قرابتها).

أما تعدد الزوجات فقد قاومه بشدة مستعيناً في ختام المرأة الجديدة بالتقرير الذي وضعه يومئذ فضيلة خالد الذكر الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية بشأن إصلاح المحاكم الشرعية. تعدد الزوجات عنده عادة (بربرية كانت منتشرة عند ظهور الإسلام ولا محل لها في هذا العصر الذي تصعد فيه الشعوب درجة الرقي، وأن الفرد إذا ارتقى إلى حد عرف عنده كرامته وكرامة الزوجة والأولاد، مال إلى الاكتفاء بامرأة واحدة. لأن: (في تعدد الزوجات احتقاراً شديداً للمرأة). (وعلى كل حال فكل امرأة تحترم نفسها تتألم إذا رأت زوجها ارتبط بامرأة أخرى إذ لا يخلو حالها من أحد أمرين أما أن تكون مخلصة في محبتها لزوجها فتلتهب نيران الغيرة في قلبها وتذوق عذابها. وإما إلا تكون كذلك وهي راضية بعشرته بسبب من الأسباب فهي مع ذلك ترى لنفسها مقاماً في أهله فإذا ارتبط بأخرى سواها قاست من الألم ما يبعثه إحساسها بأن ذلك المقام الذي كان باقيا لها قد انهدم، ولم يعد لها أمل في بقاء شيء من كرامتها عنده).

(ولا ريب أن شقاء المرأة بهذه الحال يكون له أثر شديد في نفس الرجل المهذب حتى يشعر دائما بأنه هو السبب في هذا الشقاء. ثم إن الأولاد من أمهات مختلفات ينشأون بين عواصف الشقاق). (مثلهم كمثل الممالك الأورباوية تظهر بحالة السلم وهي تأخذ أّهبتها للحرب حتى إذا حانت الفرصة وثب كل منها على الآخر فمزق بعضهم بعضاً كما نشاهده في أغلب العائلات).

(فلا ريبة بعد هذا أن خير ما يعمله الرجل هو انتقاء زوجة واحدة ذلك أدنى أن يقوم بما فرض عليه الشرع فيوفي زوجته وأولاده حقوقهم من النفقة والتربية والمحبة وأقرب إلى الوصول إلى سعادته).

ولا يجيز التزوج بأكثر من واحدة إلا في حالة الضرورة المطلقة. ومن ثم يصل إلى الطلاق فيقول بأنه يفضل أن يكون الزواج عقدة لا تنحل إلا بالموت (ولكن مما يجب مراعاته أن الصبر على عشرة من لا تمكن معاشرته فوق طاقة البشر). فيبيح الطلاق حينئذ لأنه من المضرّات كما هو شائع مبنيا على اللفظ المستعمل بسهولة العادة، ولايقبل إلا مع النية الحقيقية والإرادة الواضحة برفع قيد الزواج ووقوع الانفصال. وقد سنَّ للطلاق نظاماً قائلاً إن الحكومة إذا أرادت أن تفعل خيراً للأمة فعليها أن تعمل به. وهو:

(المادة الأولى) كل زوج يريد أن يطلق زوجته فعليه أن يحضر أمام القاضي الشرعي أو المأذون الذي يقيم في دائرة اختصاصه ويخبره بالشقاق الذي بينه وبين زوجته.

(المادة الثانية) يجب على القاضي أو المأذون أن يرشد الزوج إلى ما ورد في الكتاب والسنة مما يدل على أن الطلاق ممقوت عند الله، وينصحه ويبين له تبعة الأمر الذي سيقدم عليه ويأمره أن يتروى مدة أسبوع.

(المادة الثالثة) إذا أصرّ الزوج بعد مضي الأسبوع على نية الطلاق ف على القاضي أو المأذون أن يبعث حكماً من أهل الزوج وحكماً من أهل الزوجة أو عدلين من الأجانب إن لم يكن لهما أقارب ليصلحا بينهما.

(المادة الرابعة) إذا لم ينجح الحكمان في الإصلاح بين الزوجين فعليهما أن يقدما تقريراً للقاضي أو المأذون، وعند ذلك يأذن القاضي أو المأذون للزوج بالطلاق.

(المادة الخامسة) لا يصح الطلاق إلا إذا وقع أمام القاضي أو المأذون وبحضور شاهدين ولا يقبل إثباته إلا بوثيقة رسمية!

وليكون إنصافه تاماً مستوفياً قال إن اعتبار المرأة لنفسها وحفظ كرامتها يقضيان بمنحها حق الطلاق، كما للرجل، وإنه ليس من العدل ولا من الإنسانية أن تُسلب واسطة التخلص من زوج شرير أو من ذوي الجرائم، إلى غير ذلك ممن لا يمكن لامرأة سليمة الذوق والخلق أن ترضي بمساكنته.

معلوم أن هناك ضرباً من الزواج يدعي (زواج العصمة) به تحظ المرأة عصمتها بيدها فتتطلق عندما تشاء دون أن تقدم سبباً للمحكمة.فيقال إن عدداً يذكر من أغنياء المصريين يحفظون عصمة بناتهم عند الزواج، وأن المرحومة البرنسس نازلي هانم كانت متزوجة على هذه الكيفية.

ينجلي من كل ما سبق أن باحثة البادية وقاسم أمين متفقان على وجوب إصلاح المرأة وفتح أبواب التعليم أمامها وجعل التربية متوفرة لها، و على أن من خصائص المنزل. كذلك هما متفقان على وجوب الاجتماع والتعارف قبل الخطبة، وفي حل مشاكل الطلاق وتعدد الزوجات. ولا يختلفان في مسألة

الحجاب إلا قليلا، لأن كلا منهما يعترف بخطر إباحته بلا استعداد، وبضرورة تعويد البنات عليه في الصغر وإعدادهن له مسلحات بالعلم الكافي والتربية المتينة. هذا في النقط الأساسية، أما من حيث التفاصيل فإن كلا لحق فطرته وأثبت نظرته الخصوصية في الحياة.

قضى قاسم أمين سنة ۱۹۰۸ وقضت الباحثة منذ عام وشهر وبعض الشهر. فما هي نتيجة عملهما، وما الأثر الذي تركاه فيما بينهما؟ إنه يصعب جداً تعيين هذا الأثر وحصر تلك النتيجة، لأن عمل الفكر مكروب خير وضياء يسري متوارياً في الأذهان والعواطف، محتجباً عن أنظار الناظر وإحصاء الحاسب. إننا لا نستطيع أن نتصور كيف تكون الحالة لو لم يجيئا ويكتبا، أما من جهة الباحثة فلو لم يكن غير حفلتي التأبين اللتين أقام إحداهما الرجال لمرور الأربعين يوماً على وفاتها، وعقد الأخرى النساء لمرور العام، لو لم يكن ما قيل في رثائها وإذاعة فضلها مما لم يكن لامرأة قبلها في مصر الفتاة - لو لم يكن غير ذلك لكفى، لتعيين مكانتها العالية.

وسل الشبيبة التي كتب لها قاسم أمين وهي طفلة تلعب ووضع كل آماله فيها، سلها عنه تجبك كم تقدره، وإلى أي درجات الإعزاز والإكبار يصل في نفسها. لقد شاع قبيل الحرب أن عدداً من الشبان المتعلمين اتفقوا فيما بينهم على تأليف جمعية لتحرير المرأة حتى إذا بلغ عددهم الألف أطلقوا الحرية لنسائهم وأخواتهم وأمهاتهم وبناتهم وأباحوا لهن أن يخرجن سافرات. أليس أن قاسم أمين أوجد هذه الفكرة بكتاب (تحرير المرأة)، حيث اقترح تأسيس جمعية يدخل فيها من الآباء من يريد تربية بناته على الطريقة الجديدة وأن يختار لتلك الجمعية رئيساً من كبار المصريين، ويكون عمل الجمعية في أمرين: الأول التعاون

على تربية البنات على القاعدة الحديثة. والثاني: السعي لدى الحكومة في إصدار القوانين التي تضمن للمرأة حقوقها بشرط ألا تخرج في شيء من ذلك عن الحدود الشرعية.

وأما الحكم في صلاحية ما ارتآه كل من هذين المصلحين الجليلين فهو كما قال حافظ في مرثاته لقاسم أمين:

الحكم للأيام مرجعهُ ... في ما رأيت فنم ولا تسل
وكذا طهاة الرأي تتركهُ ... للدهر ينضجهُ على مهل

لينتبه الآن كل منهما في أكفانه متلفتاً كما يتلفت الزارع إلى سهول زرع فيها حبات قلبه يريا أن البذور المودعة في صدر الأرض نمت وترعرت وصارت خضرة سندسية تبشر بالحصاد الذهبي العتيد. يريا الشبيبة ناهضة والمرأة مشاركة الرجل في أفكاره وعواطفه. يريا أن فئة بدأت تفهم ما قاله تنسن من أن قضية المرأة هي قضية الرجل، وأن هذا وتلك عامودا العائلة فإن مال أحدهما وقصر واختل وضعه تداعى سقف الأسرة وانهار صرح الاجتماع القائم على دعائم العائلة. يريا نفوساً متيقظات وعقولاً تدرك كرامة الأفراد وكرامة الجماعات. نعم أن هذه فئة صغيرة من المجموع الكبير، ولكن نقطة النور ستظل آخذة في الاتساع حتى تشمل القوم قليلاً قليلاً. إذ ذاك تقدر مصر المفكرة قدر من فتح الطريق بكل ما لديه من وسيلة وقوة. إذ ذاك تشعر نحوهما بتلك العاطفة التي هي فوق الإعجاب والشكران، وقد سماها كارليل (عبادة الأبطال) فتطلق على كل اسم (بطل الإصلاح).

وعلى هذا فكلمتي الأخيرة كلمة أمل ونشيد ظفر، والحكم في مستقبل المرأة المصرية – وامرأة الشرق الأدنى على العموم، لأن مصر عظيمة الأثر في أبناء هذه الأقطار – يجب أن يستخرج من كتاب (تحرير المرأة)، ذلك الحكم الذي أصدره المؤلف ساعة وحي ودوِّنه في السطور الآتية:

(إنه لابد لحسن حال الأمة من أن تحسن حال المرأة. فإذا أرسل الناظر فكره ليحيط بأطراف هذا الموضوع الواسع، وبجميع ما يرتبط به من المسائل انجلت له الحقيقة وتجلت له بجميع أسرارها فيرى صورة لا تشابه الخيال الذي كان يظنه جسماً. ويرى المرأة التي يهيئها المستقبل تتلألأ في أنوار جمالها ظاهرة مظهرها الفطري ولابسة حلة كمالها الثنائي: الجسم والعقل).

بَينَ كاتبتين إلى باحثة البادية

ترنَّمتُ باسمك قبل أن أعرفك، واتخذت ذكرك عنواناً لنهضة المرأة المصرية قبل أن أطالع مقالاتك، لأن أصوات الجمهور قد اتفقت في الثناء على فضلك. غير أني عثرت بالأمس على مجموعة كتاباتك النفيسة فانحنيت عليها ساعات طويلات فيها خيل لي أني اقلِّب صفحات نفسك المفكرة المتوجعة.

ثلاث سنوات مضين، وتلك المجموعة محفوظة بين دفَّات المكاتب أو مبعثرة بين الأوراق والأسفار المتراكمة يوماً بعد يوم، لكن سرّها مازال مترقباً يداً تلمسه، مستعداً لمناجاة نفس تتلمسه، سنوات ثلاث، فيها مشت البشرية خطواتها المعدودات متعثرة بالعظام والجماجم، منشدة أهازيج النصر الكاذب وتهاليل الفخر الباطل، وقواها الغالية تسيل على شفار السيوف، ودماء حياتها تجري أنهاراً في سهول قد أخفت نجمها الجميل وثمراتها الممتعة خوفاً من وحشية الإنسان.

سنوات ثلاث فيها شعرنا بارتداد صدمات السياسة والاقتصاد والأطماع المتزايدة. فيها ارتفعت دويلات جادة مجتهدة وتهشمت أعضاء تركيا العظيمة بتاريخها الضعيف بإهمالها وتهاونها. وقد جاش لذلك كل ما في صدر الإسلام من النخوة القديمة وبكت له قلوب الغيورين على مصالح بني عثمان.

كل ذلك ومصر، مصر بكآبتها وانعطافها واندفاعها. كل ذلك ونحن هائمون على وجهنا في صحراء الفوضى. صخور التقاليد القديمة تدمي أقدامنا

الجديدة، وأشواك الاصطلاحات تجرح أيدينا الممتدة للمس أشياء نظنها موصلة إلى حياة نريدها عظيمة. والسراب الجميل اللامع في حدود المستقبل غير المحدود يستدعينا آمراً كأنه نظرة عين فنانة، فتجري في الصحراء ولا ندرى إلى أين المصير!

سنوات ثلاث مررن على يوم فيه ارتفع صوتك مرشداً. عائلتنا لا تزال على ما كانت عليه، وأفكارنا لم تتغير إلا قليلاً، وعواطفنا ما برحت حائرة بين تيارات متعاكسة دائمة الاضطراب بين ما ندعي أننا نعلم وما نجهل أننا لا نعلم! غير أن الأصداء الخفية مازالت ترجع همس ذلك الصوت الرخيم.

بالأمس لمست نفسك وقرأتُ أفكارك فعثرتُ على جراح وددت تقبيلها بشفتي روحي، وما أطبقت الكتاب إلا وأنا ألثم بناني على غير هدي. ولم يكن ذلك إلا إجلالاً لصفحات قلبتها وحبا لنفس استجوبتها فعرفتها.

فيا مَن (ارتفع قلبها إلى فكرها وانحنى فكرها على قلبها)، أيتها الباحثة الحكيمة، لماذا تصمتين؟

تتوالي الأيام ونحن في ضلال مبين. الرجل يجاهد في حرب الاقتصاد الدائمة. الرجل تائه في مهام أشغاله، فإذا كتب بحث في العموميات، وإذا أجال قلمه في الخصوصيات فهو لا يستطيع البلوغ إلى نور الوجدان النسائي لأنه يكتب بفكره، بأنانيته، بقساوته. والمرأة تحيا بقلبها، بعواطفها، بحبها.

علاتنا مستعصية لا يشفيها إلا طبيب يعرفه. والمرأة بعلَّة جنسها أدرى، فهي تستطيع معالجته. ولا تُطلبُ هذه الخدمة الشريفة من فتيات لا يعرفن من الحياة إلا ما يصوّره لهنّ الخيال المخيم بطلائه على منابت العواطف المخصبة.

هذا اعتراف ساذج صادق: الفتيات لا يداعبن القلم إلا لينثرن الدموع أو ليصورن الابتسامات. وما تجاوز ذلك علامات استفهام متتالية وإن لم ير فيها من الاستفهام شيئاً.

لكن الزوجة والأم التي أعطيت ذكاء وفطنة وعلماً وشعوراً قوياً تدرك بواسطته كل ما في الحياة من حلاوة ومرارة – تلك تستطيع وضع المرأة في مركزها السامي، وتلك تقدر أن تعمل على مزج نصفي الشخصية المتألمة، شخصية المرأة وشخصية الرجل.

فيا سيدتي

لدينا قلوب تحترق ولا ندري أي نار تحرقها، وتلتهب شغفاً بما لا نعرف ماهيته، فعلمينا أنت التي كنت فتاة قبل أن تكون أما كيف نُرشدها وإلى أين نوجهها؟

لدينا نفوس عزيزة تنمو فيها ميول مبهمة ورغبات حارة، فأرشدينا أي الأعشاب فاسد فتقتلعه وأيها الصالح فنسقيه ماء الرعاية والحنان! قولي يا سيدتي تكلمي!

ضمِّي يدك البارة إلى الأيدي التي تحاول رفع هذا الجيل من هوّة الحيرة والتردد. ساعدي على تحرير المرأة بتعليمها واجباتها. إن صوتاً خارجاً من أعماق القلب، بل من أعماق الجراح كصوتك، قد يفعل في النفوس ما لا تفعله أصوات الأفكار.

لا يهمنا أن تخفى تلك اليد النحيفة وراء جدران خدرك، وأن تحجبي هيئتك الشرقية وراء نقابك الشعري، ما دمنا نسمع صوتك في صرير قلمك ونعرف منك روحك العالية.

فهنيئاً لوطن يضم بين بناته مثيلاتك، وهنيئاً لصغار يستقون وعود الهناء من ابتسامتك وستكون حياتهم في قالب حياتك.

مي

إلى الآنسَة مَي

إلى الكاتبة الفاضلة الآنسة مي:

قرأت تحبيذك لكتاب شقيقتي (باحثة البادية) ودعوتك إياها أن تثابر على الكتابة في موضوعها (النسائيات) وإني أنوب عنها في الشكر لك على ما جاء في مقالك من حسن الفكرة وقوة التعبير والخيال، وأعتذر لعدم قدرتها على الكتابة الآن. ذلك لأنها في فراش المرض منذ ثلاثة أشهر.

وأنها لم تنس قط الاهتمام بما يرقى المرأة الشرقية على العموم والمصرية على الخصوص وإن كان ذلك الإصلاح على ما فينا من عيوب داعياً للقنوط أحياناً. ولعل الله يشفيها في القريب العاجل لتقوم بها بما خصّصت نفسها له.. هذا وتفضلي بقبول شكري واحترامي.

إلي الآنسَة مَي

تفضلت فكتبت إلى كلمتك العذبة في الجريدة وكنت إذا ذاك بين مخالب الموت فلم يكن في وسعي أن أمسك القلم لأرد عليك، وإن كانت مخيلتي لم تبخل بالرد. كانت رسالتك عزاء جميلاً لي في مرضي الطويل المؤلم، وبلسماً ملطفاً لجراحي البالغة التي قلت إنك عثرت عليها. آلامي أيتها السيدة شديدة، لكني أنقلها بتؤدة كأني أجر أحمال الحديد، فهل تدرين يا سيدتي ما هو لي. ليس لي بحمد الله ميت قريب أبكيه، ولا عزيز غائب أرتجيه ولا أنا ممن تأسرهم زخارف هذه الحياة الدنيا، ويستولي عليهم غرورها فأطمع في أكثر مما أنا فيه، وليس لي حال سيئة أشتكيها ولكن لي قلب يكاد يذوب عطفاً وإشفاقاً على من يستحق الرحمة ومن لا يستحقها وهذا علة شقائي ومبعث آلامي، إن قلبي يتصدّع من أحوال هذا المجتمع الفاسد.

وما لي أحمل نفسي أعباء غيرها وليست بمسيطرة على هذا العالم، ولكني كنت عاهدت نفسي على الأخذ بيد المرأة المصرية، ويعز عليّ أن أتخلي عن هذا العهد وإن كان تنفيذه شاقاً ومحفوفاً بالصعوبات ويكاد اليأس يسد طريقي إليه.

كنت قد اعتزلت الكتابة لا لنضوب مادتها عندي ولا اكتفاء بالقليل الذي كتبت من قبل، ولكني كنت قد مللت المناداة بإصلاح المرأة المصرية، وثبط

عزمي ما أراه من انصراف فئة المتعلمين والمتعلمات الجدد عن العمل لتكوين القومية المصرية المطلوبة وما حركتهم التي ملأوا بها القطر صراخاً إلا عنوان نهض كاذبة.

تسألني يا سيدتي أن أدلك وسط هذه الأحوال المتضاربة والآراء المتشعبة عن الطريق الذي يحسن بالفتاة نهجه وإنها لحال توجب الحيرة، ولا ندري أي الطرق نسلك لنصل سريعا إلى الغاية التي نقصد إليها، كلنا يرمي إلى تقدم الفتاة وتنوّرها وإعدادها لأن تكون زوجة صالحة وأماً نافعة أبناءها ووطنها ولكن لكل منادٍ بالإصلاح وجهة هو موليها. فبعضهم لا يرى لهذا التأخر والجهل من سبب إلا كان راجعاً للحجاب وهؤلاء قرروا وجوب سفور المرأة المصرية حالاً ونسوا حكمة التأني والتحفظ عند إرادة الانتقال من طور مظلم مألوف إلى طور لم يعهد من قبل تكتنفه المدهشات واللوامع البراقة الجذابة التي تكاد تغشى الأبصار. وفريق لا يرى للسفور فائدة ويقول إن الحجاب لا ينفي العلم، وإن إطلاق الحرية للمرأة أخيراً كان سبباً لفسادها وأن اطراد تعليم المرأة وتثقيفها سيكون مجلبة للشغب ولخروجها عن حدود وظيفتها في المستقبل كما خرجت أختها الغربية الآن. فأي الطريقين نسلك؟ ومن نتبع؟ إننا معشر النساء لا يزال ظلم الرجل يرهقنا واستبداده يأمر، وينهي فينا حتى أصبحنا ولا رأى لنا في أنفسنا. فإذا قال لنا اختبئن حتى تدفن بالحياة صوناً لكن وتدليلاً كما يقول المتنبي في رثاء أخت سيف الدولة:

(على المدفون قبل الترب صوناً).

وكقوله في أخت ممدوحه الثانية من رثاء أيضاً:

وما رأيت عيون الأنس تدركها فهل حسدت عليها أعين الشهبِ
وهل سمعت سلاماً ألّم بها فقد أطلت وما سلمت عن كثبِ

إذا أمرنا الرجل أن نحتجب احتجبنا وإذا صاح الآن يطلب سفورنا أسفرنا، وإذا أراد تعليمنا تعلمنا.. فهل هو حسن النية في كل ما يطلب منا ولأجلنا أم هو يريد بنا شراً؟ لا شك أنه أخطأ وأصاب في تقرير حقنا من قبل ولاشك أن يخطئ ويصيب في تقرير حقوقنا الآن.

نحن لا نأبى أن نتبع رأي العقلاء والمصلحين من الأمة، لكننا لا يمكننا كذلك أن نعتقد أن كل من يتصدي للكتابة في موضوع المرأة من العقلاء المصلحين. ليدعنا الرجل نمحص آراءه ونختار أرشدها ولا يستبد في (تحريرها) كما استبد في (استعبادنا). إننا سئمنا استبداده. إننا لا نخاف من الهواء ولا من الشمس، وإنما نخاف عينيه ولسانه فإن وعدنا أن يغض بصره كما يأمره دينه وأن يكون لسانه كما يوصيه الأدب نظرنا في أمرنا وأمره، وإلا فكل منّا حرّ يفعل ما يشاء. والسلام عليك أيتها الفاضلة.. من المعجبة بكِ المثنية على أدبك الجم وعلمك الغزير.

باحثة البادية

إلى باحثة البادية

ليس أعزَّ لدينا من لطفك إلا حزمكِ وصراحتكِ، وليس أجمل من صدى صوتك إلا فعل معناكِ. وإني لأقبض على شجاعتي بيدي لأعترف بأني أحب – استغفر الله واستغفرك يا سيدتي! – آلامك النفسية الشديدة من جراء شقاء الإنسانية وضلالها، وأتمنى من أعماق فؤادي أن تجد دواماً تلك الآلام منقذا رحباً إلى قلبك، وأن يبقى ذلك القلب كريماً ليناً ينجرح لجرح الغريب، ويبكى لبكاء المظلوم، ويشفق على المتوجع أيا كان.

بالاختصار – عفوك! عفوك!– أتمنى لك العذاب المعنوي لأنه النار المقدسة أجل، وهو النار التي تطهر، النار التي تُحيي النار التي تلين، النار التي ترفع النفس على أجنحة اللهيب إلى سماء المعاني السامية والميول الرفيعة والرغبات الكريمة، والتحمس لإجراء الإصلاحات اللازمة وتنفيذ المبادئ الطيبة، والنهوض بالاجتماع نهضة تهتز لها القلوب حميةً وطرباً.

أتمنى لك ذلك، ولولاه لما وجدنا في كتاباتك تلك الأنة العميقة التي تنبه الفكر وتلمس العاطفة في آن واحد.

لا أنكر أن أنانيتي تتكلم الآن. غير أني قلت ما قلت مسرعة هامسة. فتبسمي له إن شئت، وإلا فلا تصغي يا سيدتي ولا تسمعي، بل اسأليني عما أهمس به لأجيب أني أحمد الله على ابلائك وإني أسأله أن يديمك سالمة. وما أغلى سلامتك لدينا!

جئت أسر إليك أمراً وقفت عليه عندما شهدت صدى مقالتك لدي جمهور القراء. اسمعي يا سيدتي الباحثة، وصوني سري!

رأيت جميعهم يتقبل أقوالك بنظرة الفخر وابتسامة الإعجاب، ولكنني رأيت كذلك أسيادنا الرجال.. أقول (أسيادنا) مراعاة.. بل تحفظاً من أن ينقل حديثنا إليهم فيظنوا أن النساء يتآمرن عليهم.. فكلمة (أسيادنا) تخمد نار غضبهم – قلت إني رأيتهم يطربون لتصريحنا بأنهم ظلَمة مستبدون. نعم آنست ذلك في ملامح كل من قرأ مقالك أمامي من أسيادنا الرجال.

فذكرت إذ ذاك ألا سرور في العالم يضاهي سرور التفاهم. فإذا شعر المرء بأن هناك من يفهمه كان سعيداً، سواء لديه أن تُعرف منه صفاته أو علاته لأن معرفة العلات تتبعها حتماً معرفة الصفات، وإن كان الخير أقل انتشاراً من الشر. وما النقائص إلا فضائل مضخمة مكبرة تتسع وتستفيض دون أن تجد لها من الضمير مهذباً فتتجاوز الحدود المعنوية التي عينتها اصطلاحات الاجتماع – إذا كانت اجتماعية – أو رسمتها علوم النفس والأخلاق، إذا كانت أخلاقية.

فعملا برغبة التفاهم، وطبقا لنظام المباهاة، وتوصلاً للاستمتاع بنتيجة هذه المباهاة، وذلك التفاهم كان وسيكون السارق دائم المفاخرة بوقوف الناس على براعته في اختيار الطرق الجديدة واستنباط الحيل الغريبة.

وكان وسيكون القاتل مسروراً بإعلان آثامه للورى آملاً أن يجدوا فيها أعمال بطل – من نوعه! وكان وسيكون السياسي جاداً في إقناع الآخرين أن دهاءه اقتدار وسوء ظنه وروغانه فطنةٌ وحكمة. كذلك الرجل يسر، ويرجو، ويريد أن تشعر المرأة باستبداده ظناً منه أن الاستبداد هو السيادة، وأن هذه مقياس

ذاتيته التي يريدها كبيرة. رضيت المرأة عن تلك السيادة أم تمرَّدت عليها في نظرة سيان، بل أظنه – سامحني الله إن كنت مخطئة– مؤثراً تمردها على إذعانها لأنها كلما زاد تمردها زاد شعوره بالسيطرة. وأشد الملوك فرحاً بهز الصولجان، وأرفعهم للرأس كبراً وتيهاً تحت ثقل التيجان هم ذوو العروش المتداعية للهبوط. والرجل ملك متداعٍ عرشه لأن ريح الفوضى تهب عليه من كل جانب، وخطوات الارتقاء النسائي تتوالى متكاثرة متمكنة مع مرور الأيام.

لكنه ملك عزيزٌ

هو الأب والأخ والصديق والخطيب والزوج، فإذا سقط سقطنا معه، وإذا ارتفع كنا بارتفاعه عظيمات، لذلك نريد له خيراً ونجتهد في تأييد دولته بشرط أن ينصب عرشنا بقرب عرشه وأن نقف إلى جنبه وقفة المثيل بجوار المثيل. نريد أن نكون متساويين في الحقوق الأدبية والعمرانية، ما دمنا متساويين في الواجبات والمسئولية. بل إن واجباتنا ومسئوليتنا يفوقان ما عليه من مسئولية وواجب!

فيا ترى متى يرضى الرجل بتقرير هذه الحقيقة؟

ما أطيب قولك، يا سيدتي الباحثة، إنك تشفقين على من يستحق الشفقة وعلى من لا يستحقها. الرجل من الذين يستحقون الشفقة لأنه لا يعرف أنه يستحقها. إنه باستبعادنا لمنتحر. ولو صرفنا النظر عن مستقبل الذرية وبحثنا في حياته الفردية لوجدنا أن ما من أحد يساعده على التخلص من الشوائب الشائنة، ويحثه على إنماء شخصيته الغنية المخصبة إلا نحن. كما أنه لا يهدينا إلى واجباتنا.

الحجاب؟ وما الحجاب؟

مرحباً به ما دمنا في وسط لا يعرف كيفية معاملة المرأة ولا يستطيع احترامها. ولكن كيف نلوم الرجل على كلامه ونظراته. مادام رجل اليوم صنع امرأة الأمس؟ هكذا علمته أمه وإن لم تعلمه ذلك فإنها لم ترشده إلى ما يفضله، ولا ذنب لها لأن قصورها في جهلها لم يكن إلا نتيجة اتفاق أبيها وزوجها على جعلها عبدة.

لا لوم على أبناء تلك الأمهات إلا أن مستقبلنا صالح، لأن حاضرنا مملوء بالآمال الطيبات. النشء تتنازعه طبائع الوراثة ومؤثرات العصر وعواطف الفوضى المهاجمة قديم التقاليد من كل ناحية. لكنه ينشد الصراط السوي، ويصغي إلى صوت الإصلاح. فارفعي صوتك، ياسيدتي، ولا تيأسي! قولي بصراحتك، واكتبي بشجاعتك! جاهري ولا تصمتي!

إن البذرة التي تزرعها اليوم يد الزارع تنبت سنبلة في كيانها حياة الغد وما يتبعه من الأيام. وعندما تحضر المروج بنصرة الرجاء فتتماوج فوق غلّتها نسمات الحياة إذا ذاك سيسمع المستقبل صدى جميلاً يردد أبيات الأمير شوقي:

صـــدّح أيـــا ملـــك الكنـــا   رويـــا أمـــــير البلبـــــلِ
صـــبراً لمـــا تشـــقى بـــهِ   أو مـــا بـــدا لـــك فافعـــل

فتجيب الأصداء الجديدة: لقد فعلَتْ! لقد فعلت!

مي

السَاعة المفقودَة

جعلها أرباب التجارة حليةً نسائية، وأتقن الجوهري وضعها في سوار ذهبي فكانت نصيبي في الشري.

صورة مصغرة للكون، كذلك كانت ساعتي. مساحتها رمز للفضاء، دورتها مسرح اللانهاية، حدودها حدود الإمكان، علاماتها مقاطع الوقت الذي رتبه الإنسان، ساعاتها مقياس الأعمال، دقائقها خوف من هجوم الرزايا وترقب لوفود الآمال، ثوانيها دقات القلب.. من الثواني يتألف الزمان ومن نبضات القلب تُنسج الحياة نسجاً.

فيا لهول ثواني الزمان، ويا لهول نبضات قلب الإنسان!

بين ثانية وثانية يلتقي العدوان في أحشاء الثرى: الماء والنار، فتميدُ الأرض بمن عليها، وتنفطر أساساتها فتقذف البراكين مقذوفاتها الجهنمية وسوائلها النارية وتزفر الطبيعة زفرتها القتّالة فتلتهم صروح العمران وتفتح صدرها مرحّبة ببنيها. تفتح صدرها مرحّبة فيتدحرجون إلى الهاوية التي ليس فيها من يعود على وجه البسيطة مخبراً.

بين ثانية وثانية يتلاقي الجيشان في ساحات الوغي فتدوي رعود المدافع في الفضاء وتختطف بروق السيوف غالي الأرواح. ولأجل كلمة غالب أو مغلوب تندك عروش وتنتصب عروش، تدمر ممالك ويعمر سواها، تخرب مدائن ويشاد

غيرها، تتجندل أفراد وتفنى مجاميع فترتدى الأقوام سواد الألوان وفي نفوس لوعة الفقدان وسواد الأحزان.

بين ثانية وثانية يموت أمل ويحيا يأس، تبتسم شفة وتدمع عين، يخون صديق ويخلص عدو، بين الثانية والثانية!

وبين نبضة ونبضة هناك سر الأسرار. دماء داخلة إلى القلب ودماء منبعثة منه، تتهافت عليه جراثيم الموت فتخرج مطهرة حيوية. بين النبضة والنبضة تأثيرات تهتز لها أعماق العمر وانفعالات تشخص لمرورها ذرّات الكيان. اشتعال الفكر وخمود العاطفة، ظفر البلاهة وتقهقر النبوغ، لذعات الغرام والحسرات العظام. قنوط ورجاء، سعادة وشقاء. هتاف الروح المسلّمة ولهاث الروح المودّعة! يا ابنة أبيكِ! يغدرنا الزمان ساعة الرجاء، ويخوننا يوم الصفاء، ويهجرنا حين اللقاء، فأنت غادرة خائنة هاجرة كالزمان، يا ابنة الزمان!

كم من ساعات طيبات وقعت مرورهن على دوران عقربيك وفكري يناجيك بأحاديث هذه وضلاله! أبسم لك عند السرور فأتخيلك صامتة تبتسمين وأتنهد حيالك يوم الأسى فأتوسمكِ تنهدين وتحزنين، وكأن عقربيك ذراعان يمتدان نحو العلا مستغيثين متوسلين.

لما أفنت قلبي وحدةُ القلب ضغطت بك على ساعدي قائلة: (أنت الصديقة التي لا تخون). ولما مزّقت سمعي أكاذيب الناس وأحاديثهم المؤذية خاطبتك قائلة: (أنت لا تؤذين لأنك لا تتكلمين). ولما أذابني الجهل بدعواه والغرور بسخافته نظرت إليك قائلة: (أنت عالمةُ لذلك تصمتين).

وكنتِ تعزيني!

وكنتِ زماني، يا ابنة الزمان!

وعلى هذا ما كان أطول إعراضك عني وأقل اهتمامك بي! في النهار كنت تطوقين ساعدي فيوجعه أثر سلسلتك وأجيب أنا عن هذا العنف بلمسة المداعبة. وفي المساء كنت تستريحين بجوار وسادتي فأوقع على موسيقاك الساهية ألحان أحلامي وآمالي، وفي الصباح كنت أول عين أشاهدها وأول روحٍ استجوبها.

كل ذلك وأنت لا تنتبهين ولا تعلمين.

وها قد هجرتني. ففقدتُك وفقدتني، فسيرى بحراسة الله وانسيني!

فإذا وقعت في يد شرير وقصد استعمالك ليؤذي أخاً له فانقلبي أفعى لسّاعة ولا تبرحي مفرغة فيه سمَّكِ حتى تصرعيه قتيلاً.

..لكن لا، لا! ليس الأشرار إلا ضحايا البشر وضحايا نفوسهم، لو كنت تعلمين. وهم خليقون بالرحمة أكثر من الأخيار الصالحين. فلا تتحولي حية ولا تؤذي شريراً، بل غادري تلك اليد المسكينة واسقطي في طريق أب فقير لتكوني من نصيب فتاة لم تلبس في حياتها حلية. زيني يداً شوّهت خشونة الخدمة جمالها ونامي على زندِ الفتاة الغربية بدلال القبلة والتحبب! نامي هناك واسعدي، ولو ساعةً، قلباً بائساً يحسب السعادة في الغني! نامي هناك وانسيني، ولكن! إن كانت لديك ذاكرة تذكر، يا ساعتي الصغيرة المحبوبة، اذكري لحظة ما شهدته معي من المسرات واللهفات، اذكري وافصحي بما تعرفين! ولكن.. ألست ابنة الزمان الذي ننسبُ إليه في ضعفنا كل شيء وهو في قوته لا يبالي بشيء؟ ترين بأي حافظة تذكرين، وبأي ذهن تتأملين؟ إنما علاماتك مداد قد تحجَّر، وعقربك

أصبع يشير إلى علامة يجهل منها المعني، وأنت آلة ليس إلا، وإن كنت آلة الآلات المثلي.

أنت ابنة الزمان الناسي،

وأنتِ مثله لا تذكرين!

مي

إلي الآنسَة مَي

عزيزتي مي..

لا تستغربي يا سيدتي إني دعوتك (بيا عزيزتي) وسأدعوك باسمك على غير معرفة شخصية سابقة. أقول شخصية وأحدّها لأني عرفتك من كتاباتك الشعرية الجميلة من قبل وتعرفت منها على روحك العالية الهائمة في الفضاء وكأنها تبحث عن مستقر لها فلا يكاد يعجبها مكان تستقر فيه. وتعرَّفتُ عليك بالأمس بل وارتبطت بكِ من دعائك على بالعذاب المعنوي كأني أنا المعنية بقول جميل:

وأول ما قاد المودة بيننا بوادي يابثينُ سبابُ

وقلنا لها قولاً بجاءت بمثلهِ لكلّ مقالٍ يابثين جوابُ

وإنما حاشا أن يكون دعاؤك على سباباً وحاشا أن يكون له جواب عندي من مثله فإني لم أقابله إلا بالضحك والحلم الذي ركب في غريزتي.

لماذا يا مي تدعين على بالعذاب المعنوي؟ ألا إنما بالعذاب البدني أخف منه وطأة وأعفي أثراً. على أني جربت كليهما وذقت الأمرَّين منهما معاً. تقولين: (لأنه النار المقدسة). نعم لقد أعطاني من القداسة مقداراً أكثر مما يجب لمثلي حتى جعل البون بعيداً جداً بيني وبين هذا العالم غير القديس.

تقولين: (إنه النار التي تطهّر). حقيقة أنه تلقى وجداني بالتطهير منذ أن كان لي وجدان حتى صيره شفافاً يظهر كل شيء ويتأثر لأقل شيء، وهذا فيه من

الضنى والخطر ما فيه. تقررين (أنه النار التي تحيي). نعم يا مي. إنه أحيا روحي حتى أحرقها لأنه كمصباح سيال كهرباؤه شديد لكن فتيلته ضعيفة لا تحتمل.

هو (النار التي تلين) هذا ما أبديتِ. لكن ألا تعتقدين أن اللين قد يؤذي ولا يفيد. خصوصاً في هذه الدنيا التي كلها صدام وعراك وأنه لا يفل الحديد إلا الحديد. إنه إنني حتى صيرني ماء. وما أشد عبث الطبيعة والناس بالماء مع أنه أصل الحياة!!

يصبُّونه فينصب ويرتقونه فيختفي في الأرض ويضعونه في كل آنية معوجة وملونة فيأخذ كل شكل ويصطبغ بما يراد به من الألوان. تبخره الطبيعة زارية هازئة فتارة ترفعه إلى السحاب وطوراً تقذف به إلى الأرض وآونة تعاكسه بصقيعها فيتحول برداً، وآونة تحمي عليها براكينها فيخرج ملتهباً وحيناً تخبث رائحته بكبريتها وزرنيخها فليعلنه الناس إذا أحسوا منه غير ما يريدون وهو بريء. ثم أليس هو رمز الطاعة والامتثال يضعون فيه سكراً فيحلو ويذيبون به الحنظل فيمر. وهم مع ذلك لا يقيمون له وزناً ولا يعترفون له بالجميل. وهو بلا ثمن في أكثر بقاع الأرض وأرخص الأشياء في أقلها. إنه مثلي يا مي يذهب ضياعاً.

وختمتِ حسن تعليلك لعذابي بقولك: (إنه النار التي ترفع النفس على أجنحة اللهيب إلى سماء المعاني).. إلخ.

نعم يا مي إنني الآن على أجنحة اللهيب، لكنني لم أصل بعد إلى السماء وإذا وصلتها فلن يعود العالم يراني.. فهل يا ترى ستعجبني السماء؟ إني أشك في ذلك. إني أول ما حفظت من الشعر حفظت المراثي وأوّلها رثاء الأندلس. وكنت في حداثتي أقرأ كثيراً ديوان المتنبي وأعجب بروحه العالية وبنفسه الكبيرة وأظنه

هو الذي عداني في ذلك وسمم آرائي، رحمه الله، إني ألذ كثيراً بهذه العدوى. وقد قال لي أخي مرة بعد حديث كنتُ أشتكي له فيه الدنيا وأهلها وأقول. (لعل الله يجزيني على هذا في آخرتي بالجنة).

قال متهكماً: (أنا واثق يا شقيقتي أن الجنة أيضا لن تعجبك لأنه لا يكاد يسرك شيء). أستغفر الله.

إنك يا مي خالفت المألوف في التمنيات والمجاملات الفارغة وهي كثيرة وشائعة جداً الآن (بمناسبة عيدي الميلاد ورأس السنة المسيحيين). قلت: (ابتسمي له) أي لدعائك (إن شئت وإلا فلا تصغي ولا تسمعي واسأليني عما أهمس به لأجيبك بأني أحمد الله على إبلالك وأني أسأله أن يديمك سالمة) إلخ.

لا يا عزيزتي إني أكره الكذب والمجاملات الفارغة لذلك أصغيت وسمعت وابتسمت (حسب أمرك)، وتسرني جداً صراحتك حتى في الدعاء عليّ.

أتدرين يا مي أن ذلك اليوم الذي تمنيت لي فيه العذاب كان فيه عيد ميلادي أيضا وأني تفاءلت خيراً بدعائك، وافتتحت عامي الجديد بالضحك من تمنيك وبصداقتي لك تبعا لذلك التمني المعكوس. أشكر لك يا عزيزتي أمانيك لي ورغباتك الصادقة وأقر لك بأني واقعة فيما رجوت لي والحمد لله لكني يا مي لا أتمني المزيد. إنه عذاب طاهر لا يتعدى الميل إلى السكون والشعور بشيء من الحزن الشعري الجميل ولكنه – ولله المنة والشكر – لا تخامره شائبة من الندم ولا من الأسف الأثيم، وأخشى أن يزيد ضرام النار التي طلبتها لي فأحترق يا مي أو أصل إلى ذلك الحد الذي لا أريده لنفسي ولا أظنك تريدينه لي.

الساعة المفقودة

عجيب يا سيدتي أنك تريدين عذابي وأنا أريد هناءك. أتدرين ماذا سألقيه عليكِ فيفرحك؟

إني وجدتُ ساعتك المفقودة والتقطتها. رأيتك ترثينها بحرقة فجئت لأمسح دموعك لأني أحب دائما أن أمسح دمعة المحزون. تعالي إليّ! لتأخذيها وتستغفر بها من وصفك إياها بالغدر وبعدم الإحساس. فإنها أحست بشوقي لرؤيتك فأتت تقدمة لمجيئك ولتعارفنا.

إنها بثَّت إلى ما كنت تشكينه إليها من العواطف والآلام. عثرت على وعثرتُ عليها لتكفي قلبك شر الفناء من الوحدة، ولتؤكد لك أنك وجدت (الصديقة التي لا تخون).

حكاية الرجل

والآن فلنعد إلى حكاية الرجل.

عجيب جداً يا سيدتي أمر هذا المخلوق غريب الأطوار الذي يسمى (بالرجل). إني أعتقد أنه كريم شجاع وله قلب حساس ولكنني أظنه (وبعض الظن إثم) أنانياً قبل كل شيء ورأيي أن أنانيته وحده هي أصل رذائله فهو يهضم حق المرأة ويستبعدها لا لأنه يبغضها أو يتمنى لها السوء، لكن ليلهو بها وهو يحبّها. ويموت لأجلها لا لأنه يحبها لكن ليهلو بها وهو كل ذلك واسع الحيلة قوي الحجة فيقنعها فتصدقه وهو كذوب.

أما المرأة فهي دائماً تحترمه وتحبه لأنها تحبه صادقة وإذا كرهته كرهته علانيةً ولم يكن لذلك البغض من دواء. عرف ذلك أبو الطيب فقال:

وإن حقدت لم يبق في قلبها رضاً وإن رضيتْ لم يبقَ في قلبها حقدُ

هي صادقة مخلصة دائماً حتى وهي مخطئة. هي تحب لتفنى في الحب، ولكن الرجل يحب ليعيش متمتعاً بالحب. هي تحزن وقت المصاب لتتفرغ للحزن، ولكن الرجل لا يحزن إلا ليبحث عن تعزية وسلوان.

المرأة كدودة القز تفرغ حريرها لتموت. إنها تعلم أن حريرها الذي تقدمه للملأ زينةً وحليةً سيقتلها ولكنها لم تحاول قط الخلاص منه.

أما الرجل فهو كالنحلة ينتقل من زهرة لزهرة متروضاً، وقد يطيل المكث على زهرة ناضرة وإنما ليمتص منها نضارتها وماء حياتها. إنها تحب الأزهار حيناً لكنها تلهو بها أحياناً فتتركها هشيماً. وهي تقدم للناس عسلاً فيه شفاء لهم وشمعاً نافعاً لكنها تعملهما لغذائها وسكنها قبل كل شيء.

ظلمنا الرجل حقوقنا لا لأنه كان ينوي ظلمنا وإنما هو أخطأ كثيراً في حسبانه أن ما يزيد في قوتنا يضعف من قوته هو. لعله ظن أن مملكتنا واحدة لذلك نظر إلينا نظر الدعيات الثائرات. وإنما نحن نريد له السعادة والمزيد من القوة في مملكته ونرجو منه أن يفك عنا الخناق في مملكتنا المستقلة التي تشد أزره ولا تفكر في إضعافه قط مهما بلغت من العزة والقوة. إننا نتقدم إليه كأننا ساعده الذي يريد أن يخدمه لا كأننا يد غريبة تريد أن تضربه. إننا منه وهو منا فليطب نفساً وليقرّ عيناً وليعطنا ما نشاء!

وإنما نحن يا مي ضايقناه في بعض شئون مملكته حتى ظننا نريد منازعته فيها. لنترك له السياسة التي يحبها وحمايتنا. وأقول لك همساً (إننا لا ننفع بدونه ولكنه هو أيضا لا ينفع من غيرنا)!

إن المطالبات بحق الانتخاب وإن كنَّ يطلبن حقاً إلا أنهنَّ ظالمات الرجل وأنفسهن معاً. لماذا يرمن مشاركته في الجلوس على كراسي (البرلمان) ولا تقدم واحدة منهن صدرها للقاء كرَّات المدافع ونصال الفناء في الحرب.

الحق أحق أن يتبع ليهنأ الرجل بمملكته. إننا لا نهز عرشه ليتداعى إلى السقوط كما تقولين لكننا نهزه لنطلب منه.. (الدستور).

باحِثة البادية

مّرثاة

أكتب اسم باحثة البادية فيتمثل لناظري ذلك الثغر البسّام وذلك الوجه ذو السمرة المصرية العذبة، وأسمعُ صوتها الرخيم مردّداً كلمات حلوة اللفظ لطيفة المعنى. وأضع يدي على مجموعة (النسائيات) فأشعر بالحياة الفائضة على تلك الفصول، وما هي إلا توقد النفس المتوهجة بين صفحاتها. كل ما لباحثة البادية مملوء حياة مفيدة نافعة، فكيف أصدّق أن تلك الشعلة النادرة قد خمدت، وأن ذلك الوجه الوضّاع قد اختفى وراء وشاح الردي؟

كانت عينا باحثة البادية مفعمتين ابتساماً كثغرها. لكن إذا أمعن المرء النظر في أعماقها وجد بُعد الغور والكآبة المقيمة وراء الابتسامة، مما يرى في عيني المفكرين وفي عيني المزمعين على الرحيل العالج، أولئك الذين لاتطول حياتهم أكثر من زهور الربيع فيذهبون تاركين الجو حولهم معطراً بعبير مآثرهم.

قاسم أمين يقول بتحرير المرأة وبإعطائها ما لها من حقوق أدبية واجتماعية، قامت باحثة البادية تؤيد كلامه مظهرة أهلية المرأة وكرامتها ودرجة الارتقاء العليا التي يمكنها تسنّمها. قامت هذه المرأة العبقرية، ابنة الرجل الكبير، تدرس أحوال البيئة المصرية، فكان لها من ذكائها الفطري مرشد أمين، ومن شعورها العميق منّبه مخلص، ومن قلمها العربي الصميم أبلغ ترجمان وخير رسول. رأت حاجة قومها إلى الإصلاح فصاحت صيحة مازال يرن صداها. وظلّت تكتب وتخطب ناشدة

الإصلاح، وهي المرأة المسلمة الوحيدة التي فعلت ذلك في وسط لايزال رجيعاً في ميوله، بشجاعة وكفاءة وتفوق لم ينل منها شيئاً انتقاد الناقدين وتعنت المتحزبين.

كانت شديدة الحب لقومها، شديدة الغيرة على وطنها، شديدة التألم لما تراه من علامات التأخر والانحطاط في البيئة المصرية. ومجموع هذه العواطف- من حب وغيرة وألم - كان يتخلّل كل ما تكتبه كأنين متواصل ينقلب ساعة الوجع الشديد زئيراً وعويلاً. كذلك يتألم صاحب العقل والقلب الكبيرين كأنما هو يتألم عن أمة بأسرها!

لما زارتنا للمرة الأخيرة كانت ترافقها صويحبة لها. فأخذت هذه تنقرُ على العود وأنشدت الباحثة بصوتها الشجي هذين البيتين من الموشح الأندلسي المشهور:

جادك الغيثُ إذا الغيثُ همي ... يا زمان الوصل بالأندلس
لم يكن وصلك إلا حُلُماً ... في الذكرى أو خلسة المختلس

وكأنها كانت في تلك الساعة متنبئة عن نفسها، متنبئة بأن وجودها بيننا ليس إلا حُلُماً في الكرى أو خلسة المختلس، وأنها راحلة عما قريب في مقتبل العمر ونضارة الشباب!

لكن موتها ليس فناء. إن أمثالها يحسنون للجمهور وهي محسنة للجنس النسائي خصوصا في هذا العصر الذي تخطو فيه المرأة خطوتها الأمامية في سبيل الارتقاء. نحن في حاجة شديدة إلى نساء تتجلى فيهن عبقرية الرجال دون أن يفقدن صفاتهن النسائية الجميلة من لطف العاطفة وعذوبة الخلق، والرقة

والدعة والاستقامة والإخلاص. كذلك كانت باحثة البادية التي برزت شخصيتها فأعلت شأن بنات جنسها إذ ظهرت كاتبة كبيرة، ومصلحة غيورة، وامرأة عاقلة، وصديقة أمينة، فشغلت في حياتنا الأدبية، وفي حياة المرأة الشرقية عموماً، مركزاً سامياً جليلاً قلَّما يبلغه غيرها.

فلئن بكيتُ اليوم الصديقة الوفية والثغر الحلو البسّام، فإني أحيي المرأة الخالدة بمآثرها وأحني الجبهة أمام المحسنة الغيورة. إن باحثة البادية لا تموت ولا يمكن أن تموت، وستظل حسناتها باقية ما بقيت لغة القرآن.

والشعلة التي توارت اليوم في ظلمة القبر، هي هي التي تطل من سماء البقاء منيرة طريق الارتقاء للمعجبين بها الآسفين عليها.

فوداعاً أيتها الراحلة الكريمة! لئن نزل البلي بيدك الرطبة فإن الخلود نصيب ذكرك وفضلك. سيرى إلى حيث لا حجاب ولا سفور، حيث النور شامل والجمال مقيم! هناك يحيط بك أمثالك من الأرواح الكبيرة في دار هي مقر الذكاء والنبوغ، فأنتِ حقيقة بسكناها وهي حقيقة بأن تسكنيها.

وأنا التي عرفتك وأحببتك، مع الدموع التي أذرفُها على ذكرك تريني جاثية أمام ضريح ضمَّ جسمك الثمين لأضع عند جوانبه باقة أزهار تُعبّر عن شكرنا لك. لكن الأزهار تموتُ، أما شكرنا فخالد كفضلك!

مي

تأثير باحثَة البادية

قضت باحثة البادية بعد سكوت سنوات أربع، فكان موتها أفصح مقالة وأبلغ موعظة. وقد كشف ذلك الظرف المحزن عمّا لها من مكانة رفيعة في نفس الجمهور ودل على درجة الارتقاء العالية التي يسعُ المرأة الوطنية أن ترمي إليها.

لا أدري هل نالت من الأذهان والقلوب فصول الباحثة وآراؤها وما كانت تبغيه من إصلاح أيام جهادها مثل ما نالت بعد رحيلها؟ إنه ما طار نعيها حتى انتشرت الكآبة وعمَّ الأسف، فسودت أعمدة الصحف حزناً عليها وكُثرت فصول الثناء على فضلها.. وقد اشترك في ذلك الرجل والمرأة، والمحمدي والعيسوي، والشاعر والناثر، والأديب والصحفي، حتى الذي لم يكن ليعني بالصفحة النسائية من الأدب العصري، وجد كلمة لهف يضيفها إلى ما قرأ وسمع من كلمات الحزن والأسف.

ذلك لأن مثل هؤلاء النوادر لا يخص أسرته فحسب، بل تكون أمته بفقده خاسرة. لما صمت صوت الباحثة للمرة الأخيرة أدرك الجمهور أن ذلك الصوت كان شجياً. وأن القلم الذي انتزعته مخالب الردي كان صريره موسيقياً. أليس من طبيعة الأنام ألا يفطنوا لجمال شيء وندرته إلا بعد الغياب الذي لا حضور وراءه؟!

ولم يقتصر على فصول الصحف وقصائد الشعراء، بل عني النساء بإقامة حفلة تأبين من جهتهن، كان الرجال ينظّمون حفلة الرجال. فسبق هؤلاء وأقاموا

حفلة الأربعين برئاسة معالي وزير المعارف، وكانت جامعة لكل مظاهر الجلال. فرأت اللجنة النسائية المتشكلة برئاسة حرم سعادة شعراوي باشا أن تؤجّل عملها فتعقد اجتماعاً نسائياً لمناسبة مرور العام على وفاة الفقيدة، وأن تسعى في خلال هذا العام لإيجاد أثر لذكرها الطيب في المدرسة التي تخرجت فيها. ومجرد تفكير السيدات في هذا الأمر وذاك واهتمامهن بكيفية تنفيذ ما حسن في تقديرهن دليل على تغيير كبير جار في النفوس.

أما حفلة الرجال فقد حضرها كل عالم وكبير ووجيه. ولو كان المؤبنون من النشء الجديد القائل بسفور المرأة لوجدنا الأمر طبيعياً، ولكنهم كان أكثرهم من ذوي العمائم ومن المطربشين الذين هم أقرب إلى حزب المحافظين منهم إلى أي حزب آخر. وقد فاه أحدهم بهذه الجملة الخطيرة: (أيها الرجال قولوا للنساء إننا نكرم النساء العالمات كما نكرم أعاظم الرجال).

ولكن كيف يذهلنا ذلك وقد كان دوماً أهل الذكاء والنبوغ مفيدين بمماتهم كما في حياتهم. فإذا ما أسلبت منهم الجفون على العيون الجامدات فكأنما النفس منهم تتقمص في الأقوام باعثة اهتماماً وتحمساً لما جاهدوا من أجله طويلاً. فهم بالشمعة التي يشتد لمعانها عند الانطفاء شبيهون. لما قامت نساء الغرب بحركتهن لم يؤيدهن فيها من الرجال إلا آحاد وقد هزأت بهن منهم مجاميع. والآن وقد مرت أعوام الجهاد والألم فقد استملن إلى قضيتهن أ على أصوات أمريكا وأوروبا وأعمقها تأثيراً. أما عندنا فإذا ذُكرت الحركة النسائية ذكرنا أن الرجل كان موجودها ومؤيدها وأنه مازال ساعياً في تنشيطها. وقد جاءت حفلة الرجال لذكري باحثة البادية أتم مصداقٍ لهذا الإقرار.

مي

تأبين باحِثَة البَادية

سيداتي..

لمَّا اجتمعتُ بباحثة البادية للمرة الأولى في ١٩١٤، بعد تصفح مجموعة (النسائيات) لم أستشعر بأنه قُدر على أن أقف لتأبينها عمّا قريب. يومذاك لم أشعر إلا بجاذب تخطَّى بي من دور الإعجاب بقلمها إلى دور الميل إلى شخصها، لأنها كانت من الذين خصتّهم الطبيعة بقوة مغناطيسية تجذب الغريب فيفطن لنفسه وقد وجد فيها مكاناً خالياً ينتظرهم منذ زمن طويل. وليس موجد تلك القوة ما يسميه البشر جمالاً وذكاء أو لطفاً وظرفاً، بل إن مستودعه جسم أجوف قائم في الجانب الأيسر من الصدر – ذلك الجسم الذي ما ذكره حتى أكثر الناس طيشاً وزهواً إلا وطأطأ الرأس كمن ينتبه لمعنى عميق من أقدس معاني الحياة.

إن عصرنا عصر الاختراع والآلات. فبالآلات هبط الإنسان إلى أعماق الماء وجعل له أجنحة تسابق طير السماء، وبها استعبد عناصر الأرض وكشف أسرار الكهرباء. من البواخر العظيمة التي تحذف الأبعاد وتلاشي البحار إلى الساعة الذهبية الصغيرة التي نقيس بها الزمان، في كلٍّ من أحوالنا نرى الآلات ممثلة دوراً مهماً. لكن هذا الجسم الأجوف القائم في صدر الإنسان، هذا القلب البشري العجيب، مازال أتم الآلات وأقواها. بل هو أكثر اقتداراً من أعظم القواطر الحديدية على الإطلاق إذا جعلنا المقابلة على نسبة الحجم الصحيحة.

آلات الفولاذ والحديد، تلك الصناديد المعدنية التي تزحزح الجبال وتُدمر المدائن والحصون، تمل العمل وتطلب الراحة، وهذا الجبار الصغير المخلوق من دم ولحم لا يعتريه إعياء ولا سكون لأن في وقوف حركته انتهاء الحياة الجسمية، وفي سكونه وراحته شقاء العواطف البشرية.

وما كانت قوته الوحيدة في تأدية وظيفته واستطراد النبض ليل نهار على حساب ٧٢ مرة في الدقيقة، ومائة ألف مرة في اليوم، وأربعين مليون مرة في السنة، بل كانت قوته الكبري في ذلك المعنى الملتبس الشامل الذي أطلقه عليه الثوصوفيون والشعراء إذ جعلوه هيكل العواطف والرغبات ومنهل الحب والإشفاق والمكارم. ليقل العلماء ما شاءوا من أن العواطف تتولَّد في الدماغ. أما نحن صغار الخلائق فحسبنا شعوراً بأن في رياض القلب تُغرد أصوات الطرب، وترفرف أجنحة الهناء ساعة تكون من السعداء.

وأن القلب منا يمسى صحراء محرقة تجول فيها لواعج الأحزان ويتعالى في تيهها نحيب الوداع والحسرات عندما نكون من التعساء. حسبنا علماً أن هذا القلب الصغير يسير العالم وأن من كان كبير القلب فهو في الحقيقة قائد العالم.

لقد تصلَّب قلب الرجل قليلاً – أو كثيراً– في حرب الاقتصاد التي ما في يشهرها في ميادين الحياة، فلحق ببعض عواطفه جفاف وتوتر هما من مقتضيات المنافسة والجهاد. على أن القلب لايزال مملكة المرأة، وفي هذه المملكة الضيقة الرحبة تجتمع القوة والدقة والكآبة والصفاء، ويختلط التأمل بالأحلام والقنوط بالرجاء. عندما لا يتكلم من الرجل غير صوت الطمع والتهديد والمفاخرة تسمعن في صوت المرأة أنيناً كأنما هو بقية زفرة أو تتمة بكاء. وحينما يعتز الرجل بإدراك ذروة السؤدد ونيل بعيد الغايات ترينَ المرأة منحنية على نفسها

كمن ينحني على جرح بليغ، ترينها منحنية على قلبها لأن شيئا يظل نائحاً فيه. وسواء في ذلك تلك العائشة في وسط الأبهة والتبجيل والأعظام، وتلك الحقيرة التي تتقاذفها عواصف الحاجة واليأس والهوان.

كان هذا القلب القدير يتلظّى مضطرماً في صدر باحثة البادية على مقربة من ذكائها الفطري، ولم تكن ألفاظها إلا شرار ومضية. به اختبرت البيئة المصرية في كثير من مظاهرها ودرست المرأة المصرية في جميع أطوارها.

ولما أن هالها ما شهدت من ذل وتعاسة غمست قلمها في مدادٍ إنما هو سيال قلبها الناري، وكتبت فصولاً خالدات. إن محاسن التنميق والإنشاء تُعجبُ وترضي إلى حين، لكن يا لسرعان ما تُدرج تلك المحاسن في أكفان النسيان لأن الطبيعة البشرية لا تحتمل الإعجاب المتواصل. أما الكلام المنطلق من القلب كقطع متَّقدة فيدخل القلوب مباشرة بلا وسيط، ويمتزج بها لأنه يعبر عنها، يمتزج بها حتى يصير جزءاً منها يأبي التفرق والانفصال.

وكما أنها أصابت في لمس مواضع النقص وتشخيص العلل القومية كذلك رأيت ببصيرتها النقية أكثر طرق الإصلاح اعتدالاً وأقربها اتفاقاً مع سير الارتقاء الطبيعي. وقارئ (النسائيات) يقف على خطتها الإصلاحية الرشيدة حيث لا يكون الرجل جائراً مستبداً ولا المرأة ساخطة متمرّدة، بل يتصافى الاثنان فتصير هي له أخلص الأصدقاء وأوفي المساعدين، ويصبح هو لها أخلص الأصدقاء وألين المرشدين، فيسيران في سبل الحياة وقد جعلهما التفاهم متغلبين على المصاعب، متعاونين على تبادل المنفعة والسعادة. وذلك أقصى ما ترمي إليه العائلة الاجتماعية في كل زمان ومكان.

كانت الباحثة زوجاً لعبد الستار بك الباسل، واستميحكن بالوقوف قليلا عند هذا الاسم. اذكرنَ أنها كانت تكتب في سنة ١٩٠٧ و١٩٠٨و١٩٠٩، وتصوَّرن حال ذلك الوسط منذ اثنتي عشرة سنة يوم كان القوم يرمون قاسم أمين بالكفر والإلحاد لأنه جنى هذا الإثم الفظيع الذي يدعي المناداة بإصلاح المرأة!

إن إعجاب الناس بأمر لا يسلم من لازم متعد هو انتقادهم له. فإذا كان الجمهور شديداً على الرجل، يحسب نقضه بعض ما يلي من العادات عدواناً لبني الإنسان، فما قولكن في ظهور المرأة ذات رأي شخصي وذاتية حرة في ذلك الوسط الرجعي؟

يجب أن يكون الوسط راقيا جداً ليقدر الفرد الراقي وإلا أهمله وعدَّ نبوغه جنوناً، ورأى في توجعه من التقهقر والانحطاط وقاحة وشروداً.

غير أن الباحثة كانت على حكمة مكَّنتها من استخراج الخير من الشر. فبدلا من أن يغضبها تعنت الناقدين، انجلت لها الحقيقة كما تتجلَّى أحياناً في لحظات الألم ففهمت أن الطريقة المُثلى لتهذيب الرجل وإعلاء مداركه هي تهذيب المرأة وإعلاء مداركها، وأن الواسطة الفريدة لجعل الشعب المصري حراً نبيلاً عظيماً هي تحرير الأم من قيود الغباوة والخمول وإفهامها جلال النبل القومي والعظمة الوطنية.

ولقد وجدت في قرينها منشطاً كبيراً.

إنه كان في وسعه أن يحطّم قلمها بإشارة صغيرة، وبكلمة واحدة كان يستطيع إسكات ذلك الصوت الفعّال. بيد أن عبد الستار بك عربي صميم، وله

من وراثته الكريمة ما يذكّره بما كانت عليه نوابغ النساء العربيات من حرية وأنفة ففاخر بأن تعيش في ظله من تُماثلهن عزة وبياناً.

فليسر إليه الآن شكر المرأة المصرية مقرونا بآي الثناء!

أما أنت، يا أم الباحثة، فلكِ أنقى ما في القلوب من احترام وإجلال!

وساعة تذهبين لزيارة حفني بك ناصف الراقد هناك في مدينة الذين رحلوا، قولي له إن اسمه مجيد مرتين: مجيد بعلمه وفضله، ومجيد لأنه والد امرأة مجيدة! هذا كل ما أردتُ أن أقول، يا سيداتي.

وحول القلب الفتي الذي كان يذوب إشفاقاً على المرأة الضعيفة المعذّبة ويلتهب غيرة على مصر والمصريين، حول الصوت الصامت الذي طالما ارتفع خطيباً والقلم الجامد الذي طالما تحرك كاتباً اجتمعنا اليوم، المسلمةُ منا والقبطية والسورية، لنحيي أُختنا الخالدة ولنمزج ذكرها بذكر هذه الأيام المملوءة حماسة وأحزاناً.

نعم، المرأة المصرية التي انبرت بالأمس تهتف في الجماهير هتاف الوطنية والفخار قد عقدت اليوم في هذه الجامعة الأهلية المباركة اجتماعاً مغرياً في كآبته، سامياً في معناهُ، وحيداً من نوعه في تاريخ النهضة الحديثة لبنات هذا الوادي العظيم !

فليحمل الهواء حديث لجتماعنا إلى من لم تحضره من أخواتنا في القاهرة، وفي الأرياف، وفي الثغور، ولينقله إلى نساء سوريا وبغداد وسائر الأقطار العربية والأقطار الغربية التي ينشد نفر من نزلائها أبياتا نظمت بلغة القرآن!

ولتردد النساء اسم المرأة المصرية الكبيرة "باحثة البادية" فيكون هذا الاسم عنوان نهضتنا النسائية الجديدة وعربون تضامن الشرقيات رغم تباعد الديار واتساع البحار!

مي

أبرز ما قيل في كتاب باحثة البادية

يوم صدوره في مصر سنة ١٩٢٠

(باحثة البادية أول كتاب من نوعه بقلم مي)

(الدكتور فؤاد صروف - المقدمة)

(الكتاب صورة بديعة رسمته يد آنسة فلم تخل من الزينة التي تحبها النساء. صورة صادقة اشترك في نقشها الخيال والعقل والقلب. فلم تخرج إلى غلو البهرجة، ولم يتلفها جفاف البحث المجرد، ولم يموهها تغرض القلب الصديق. فجاءت آية يرضي عنها الفن ولا تنكرها الحقيقة).

(النشرة الاقتصادية المصرية)

(لا نخطئ إذا ما وصفناه بجلال الشأن في موضوعه وأسلوبه ومبناه ومغزاه. هو خير ما أخرجت لنا المطابع في العهد الأخير – ولا مدح)

(الأهرام)

(اتخذت النسق العصري في النقد وهو النسق الذي يجب على حملة الأقلام فينا أن يتخذوه).

(الأفكار البرازيلية – سان باولو)

(صورة امرأة رسمتها يد فتاة لم تقتصر على المنظر الخارجي بل صوَّبت أشعة بداهة المرأة إلى غرف العقل ومخادع النفس، وأخرجت صورة ترتاح إليها النفس ورسمتها بصدق وإخلاص وهذه مزية إن لم تنفرد النساء بها فإنهن أقدر فيها من الرجال بما أوتين من قوة البداهة الفطرية ورقة النظر والشعور.. هي

معروفة لجمهور القراء في البلدان العربية بسعة العلم والإحاطة بأطراف ما يتناوله من المواضيع ببلاغة ورقة تنمان على ما جاد الله عليها به من المواهب وتشهدان بما وعت من علوم الأوائل والأواخر بلغاتهم المختلفة. ولكن في الكتاب فوق ذلك كله ما يدل على حبها واحترامها لمن ترجمت بها ووصفتها في حياتها ورثتها بعد مماتها).

(المقطم)

(تناولت الموضوع كعادتها بالشرح والتعليق وجميل الاستدراك في صيغ الكلام المنضد كأنه أسلاك الفريد تجلت فيه مواهبها النادرة وآدابها السامية).

(بيت المقدس – القدس)

(للكتاب عندي ثلاث ميزات ترفعهُ إلى أوج الكتب القيمة التي يستبقى لها تاريخ الأدب مكانة: الأولى: أنه أول كتاب فيه نموذج للنقد العلمي المقيد. الثانية: أنه على رأي صديق أديب أول كتاب من كتب النهضة الحديثة وفا فيه صديق لصديق وفاء علمياً. الثالثة: أنه أول كتاب في تاريخ سيدة عربية وضعته سيدة عربية).

(الأهرام – بقلم د. منصور فهمي، أستاذ الفلسفة في الجامعة المصرية)

(لم تترك موضوعاً جال فيه قلم باحثة البادية إلا وجاءت بشواهد منه وعززت ذلك بمعلوماتها الخاصة عنها. لكننا لو جمعنا كل ذلك لما أتى على ربع الكتاب وما بقي منه هو آراء وأفكار وتأملات للكاتبة نفسها ساقها إليها البحث وكلها درر كتبت بأجمل لغة وأفصحها).

((ألف باء) دمشق – بقلم يوسف العيسى)

(فإذا كانت باحثة البادية فخر مصر، فإن الآنسة مي فخر سوريا وعنوان مباهاة الشرق.. تطير بها الأحلام إلى ما لا حد له من الآفاق الملونة الفاتنة، فتكاد تقف على عتبات الغيوب ولولا الفناء لاستباحت حرمة هياكلها الأبدية. وإذا عرضت لها عوارض الحياة العادية فما هي إلا أن تمسها أو تلقى عليها نظرة حتى يتقلب كلوحها إلى بهرج وتزويق وإشعاع كأنها لمستها بالمخصرة العجيبة. وإذا تأثرت بالأمور الخارجية تموّجت أعماق نفسها كما تضطرب اللجة فأخرجت منها كنوز الدرّ واللؤلؤ. وإن نشطت إلى بهجات الطبيعة ألقت عليها نقاباً من الشف الذي تنسجه المنى على نول العمر فهو آية الآيات. هذه هي العبقرية. تبتكر ولا تركب.. ولها هجمات على اللغة العربية ونزعة في التعبير قد استقلت بها استقلالاً).

(خليل شيبوب في البصير)

(استحقت أن تدعي باحثة الحضارة كما دُعيت باحثة البادية)

(مجلة المشرق بيروت)

(إذا كان كتاب قاسم أمين هو كتاب السنة التي نشر فيها فكتاب مي هو كتاب هذه السنة لأكثر من سبب. شائق كالرواية، مفيد كمقالة بقلم أربع كاتب وصفي. هو أثر فني ذو رقة عظيمة يجوز لأكبر كاتب أن يفاخر به).

(الأجبشن جازيت الإنجليزية)

(غدا لنا كتابها آية في النقد والإنصاف وبدا لنا كوكباً درياً لا يكر ضوءه الثاقب).

(دار السلام – بغداد)

(حاملة علم النهضة النسوية في هذه البلاد، فقد بزت بما كتبت وبما عربت أنضج الكتاب وأبعدهم خيالاً. فأحنوا أمام تصوراتها الرءوس احتراماً وصفقوا لأسلوبها الكتابي إعجاباً).

(المنبر)

(كتاب نفيس تجلت فيه محاسن فتاتي المسيحية والإسلام)

(الاتحاد العربي – سان باولو، برازيل)

(مي في هذا الكتاب غير مي الخيالية التي أعهدها في كتابتها السالفة).. وعلى ذكر المقابلة (بين قاسم أمين وباحثة البادية) أقول إنها تكاد تكون درس نفسية قاسم أمين قائماً بذاته، لكنه في الحقيقة درس واف شبع.. كتاب خالد في امرأة خالدة).

(شحاتة عبيد . (الوطنية))

(كتاب لم تبقَ صحيفة عربية راقية لم تفرد له بحثاً خاصاً شائقاً)

(الشمس – بوينس إيرس – الأرجنتين)

(مي كالفضاء اللامتناهي تسبح فيه كواكب الأفلاك غير مدركة له حدوداً ولا مثيرة فيه نكوداً. فكانت سعة أفكار مي وسطاً لحرية روح باحثة البادية سطعت فيه أبكار أفكارها فاخترقت أشعتها مهجة الديجور إلى مدى سحيق. وسيظل تعليق مي على باحثة البادية حجة هذا القرن على قرون عديدة).

(حنا خباز مدير كلية حمص في السائح – نيويورك)

لها بين كبار المفكرين في مصر منزلة سامية. يقرأ الإنسان ما تكتب فيشعر أنه يقرأ جديداً لم يألفه. ويرى في معانيها نوعاً مستحدثاً. فهي مبدعة في أسلوبها وفي تفكيرها أيضاً. وإذا جلست تحدثها وجدت كذلك في حديثها شيئاً جديداً. فرأس الآنسة مي من الرؤوس المنتجة التي لا تكتفي بما حفظت من مختلف العلوم وما أتقنت من اللغات العديدة.. وإذا كانت قد أطربت القراء بنغماتها الموسيقية في كتاباتها وخطبها، وغذت نفوسهم بما وراء تلك النغمات من المعاني السامية فإنها قدمت إليهم اليوم كأساً شهية من عصير فكر وقاد ونظر ثاقب: كأس تجمع إلى موسيقية النغمات وسمو المعاني جمال الوفاء وعذوبة الإخلاص وجدال الصدق ولذة الجديد).

(السفور)

(جاء كتابها رثاء مفيداً ودرساً اجتماعياً جديداً ونقداً أخلاقياً سامياً يجب أن يكون قاعدة من القواعد التي يتمشى عليه الناقدون والمؤبنون ومترجمو حياة الناس).

(الشعب – نيويورك)

(لقد أقرأتني كتاباً.. نحن في زمن أشباه الكتاب فيه كثير لكن الكتاب الحقيقي بهذا الاسم قليل. وعلى رأس هذا القليل لا أتحاشى أن أضع مجموع تلك الفصول التي كشفت بها النقاب عن حقيقة باحثة البادية. ولله ما بين هاتين الدفتين من الجنات والكوثر الجاري بين الضفتين. هنالك الشعر إلا ما يثقله من القيود، شعر الصلاح والإصلاح للمجتمع البشري في بعض المهمل، شعر الحلى اللفظية وغير اللفظية تعيرها الطبيعة السمحة، المنوعة، الشائقة المشوّقة صنوف روائعها وطيباتها ولوناً ونوراً. هنالك النثر. وأي نثر هو. النثر الجديد. كلام الزمن

الذي نعيش فيه منقحاً، مصححاً مقلداً كل معجب ورقيق من زينات الفصاحة، مضمناً كل مطرب ورقيق من نفحات الطهارة والقوة والسماحة متدرجاً في براعة الأسلوب أحياناً إلى أن يوهم أمثالي وهم يقرأون صامتين آياتك الفريدة أو كلماتك الرهيبة إنهم يرونك في جلال مواقفك العامة ويسمعونك خطيبة.

(خليل مطران في – الأهرام)

(إني لي معرفة سيحيط بروحي من أرواح الإعجاب والدهشة والسرور بمعاني الكتاب التي صعدت بها إلى سابع سماء اللذة – قبل استلامه).

(هو هرم أدبي أقامته سيدة سورية فوق ضريح سيدة مصرية، وهو زفرة إصلاح حارة أخرجتها صدور أبناء النيل فرددت صداها بنات الشرق الضاربات في جبال الغرب وسهوله. بل هو نفير الحرية ينفخ في وادي الفراعنة مذكراً إياهم بصوت نصير المرأة الأول المرحوم قاسم أمين ومنبهاً لهم لضرورة العمل بأقواله في بدء نهضتهم الاستقلالية الجديدة).

(عفيفة كرم في مجلة (الأخلاق نيويورك)

(من يقرأ انتقاد مي كما قرأته وينظر إلى نفسها المتجلية في كتابتها ير هناك عظمة وإخلاصاً يندر وجود مثلهما وفي الدرجة التي هما عليها في نفسها. وهذه العظمة وهذا الإخلاص كادا ينسياني بلاغة هذه الآنسة والأميرة بين الكتّاب والكاتبات).

(جبر ضومط أستاذ اللغة العربية في الجامعة الأمريكية في المقتطف)

(لعلى لم أقم بالواجب نحو نبوغها عندما قلت إنها أكتَبُ كاتبة، وها أنا أرضي ضميري وأقول إنها تحسب بحق بين كتّاب الطبقة الأولى، وهي في نظري

أكثرهم استحقاقاً للأفضلية للأسباب الآتية: أولاً نسبة إلى سنها إذا لم تقع عيني إلى اليوم على كتاب عربي يمكن أن يقاس بكتاب الشرقيات وحالة أدمغتهن. وكثير على مي– وهي بنت الشرق – أن تعادل كبار الرجال علماً واطلاعاً ونبوغاً.. وهي تنتفض بحمى الحياة ذات إرادة جذابة، عميقة غيورة، والقوة المفكرة فيها قوية، شديدة، حضانة، مستأثرة.. أما كتابها فثلاثة مؤلفات في واحد. نظريات قاسم أمين في تحرير المرأة، وأجمل ما كتبته باحثة البادية في إصلاح شئونها، وشروح مي على هذا التحرير وهذا الإصلاح).

(سلمى صايغ كساب في (المرأة الجديدة) بيروت)

(يا ابنة العظمة وفتاة النبوغ! أما علمك فغزير وإنما روحك روح بطل كبير.. ياربة الساعة الخالدة! إن قوتك في بساطة الأسلوب ومتانته، وسمو الخيال، وخروجك عن دائرة الرجال. مَنْ من الرجال يناجي ساعته بمثل ما ناجيت؟ والله لو اهتديتُ إليها لاشتريتها لتحفظ في دار الآثار.. كم من كلمة كتبتها يا مي أهاجت عواطفي وكم من فكرة كادت تسيل من أجلها دموعي. الكتاب من أوله إلى آخره يعيد إلى ذكر شبابي).

(محمد جلال في الأهالي – الإسكندرية).

عائشة تيمور

شاعرة الطليعة

مقدمة

الشاعرة عائشة عصمت تيمور، هي بنت إسماعيل باشا تيمور. ولدت سنة ١٨٤٠ بمدينة القاهرة، بدأت حياتها تميل إلى تعلم القراءة والكتابة، وقد آنس منها والدها هذا الميل فأحضر لها اثنين من الأساتذة أحدهما يعلمها الخط والقرآن والفقه، والآخر يعلمها الصرف والنحو واللغة الفارسية، وبعد ما أتمت حفظ القرآن الكريم تاقت نفسها إلى مطالعة الكتب الأدبية.

وفي مقدمتها الدواوين الشعرية، حتى تربت عندها ملكة الأدب، تزوجت من السيد محمد توفيق زادة، وكان ذلك في سنة ١٨٥٤ م وعمرها أربعة عشر عامًا، فتفرغت للشئون الزوجية، ثم تاقت نفسها إلى الأدب والعلم، فاستحضرت سيدتين لهما إلمام بالنحو والصرف والعروض، فأخذت عنهما حتى برعت وأتقنت نظم الشعر.

تعلمت اللغة التركية، التي أخذتها عن والدتها ووالدها، ووضعت في الشعر ثلاثة دواوين باللغات العربية والتركية والفارسية، وألفت في النثر كتابين هما: "نتائج الأحوال" و"مرآة التأمل في الأمور" وستقرأ عن هذين الكتابين للآنسة مي في هذا الكتاب. توفيت السيدة عائشة تيمور في ٢ مايو سنة١٩٠٢ وهي في سن الثانية والستين.

الفصل الأول

البارق في الظلام

دعتني جمعية "مصر الفتاة" دعوة كريمة إلى إلقاء محاضرة على أعضائها في الجامعة المصرية، فوعدت وخطر لي أن خير موضوع أتخذه هو شخصية نسائية غنية ندرسها معًا فتعرض لنا في سياق البحث موضوعات جمة في الأخلاق والأدب والاجتماع نمحصها قدر المستطاع، بينما نحن نرسم من المرأة صورة شائقة. فنسجل للحركة النسائية في هذه البلاد مفخرة أخرى تثير فينا الرغبات، ونستمد من وحيها المثل والمعونة والفائدة جميعا.

وما خطر لي ذلك إلا وصحبه اسم شجي يحيا دومًا بزفراته الحارة المنغومة. زفرات تناقلتها الأصداء يوم لم يكن للمرأة صوت يسمع، فرسمت من الذاتية خطًا جميلا حين كانت صورة المرأة سديمًا محجوبًا وراء جدران المنازل وتكتم الاستئثار.

برغم ذلك أنشأت أنقب في تاريخ المرأة المصرية. وكنت كلما دققت نمت "التيمورية" في ذهني وتفردت صورتها أمامي إذا لم يقم على مقربة منها صورة تسابقها أو تشبهها ولو شبهًا بعيدًا، ونظرت إلى بعينيها المجهولتين المرمدتين بأنة حسرتها، باكية شجوها، مهمهمة لي في خلوتي أبياتًا كثر أمثالها في ديوانها "حلية الطراز" حيث يقول:

حيي الرفاق وصف للحي أشواقي وحدث الركب عن تسكاب آماقي
قد جرعتني صروف الدهر مرتغمًا لواعجا كحميم أو كغاق
أسأل حر الهوى قلبي وأبرزه جفني على يد آمافي وأحداقي
هذا شواظ الهوى في القلب ملتهب وفي التنفس من آثار أحراقي

فطالعت كل ما عثرت عليه من آثارها، وجمعت من المعلومات عنها ما تيسر، وفكرت في نشر بحوث عنها، وكان يدفعني إلى ذلك:

أولا: أن لعائشة فضل المتقدم بيننا وهي طليعة اليقظة النسوية في هذه البلاد.

ثانيا: أن الجمهور يعرف أنها "شاعرة" دون أن يلم بما تتكون منه شاعريتها، ودون أن يقف على حال من أحوال حياتها أو يحلل ميلا من ميولها.

ثالثا: أن النظرة في مقدرتها إنما هي اكتناه للذات المصرية ليس من الجانب النسوي بل بوجه عام. وسنرى بعد التحليل أن لعائشة مكانتها بين أدباء عصرها وليس بين الأدبيات الشرقيات وحدهن.

رابعًا: أنها من عمال دولة القلم عاشت في وحدتها كثيرًا، وأعطتنا في شعرها ونثرها صورة مؤثرة، أما رأيها في الحياة فحقيق بالانتباه والتبصر لأنه رأي جمهور كبير من الشرقيين والشرقيات كان شائعًا في زمانها وليس بالنادر في أيامنا هذه.

خامسًا: أن مثل هذا البحث يرافقه مرور متضاعف، أليس أن جميع طبقات الناس تلذ لها الروايات، وهي إنما تمثل حياة أشخاص وهميين؟ فكيف بحياة

أشخاص عاشوا قبلنا وعانوا صامتين كل ما يعانيه أبطال الروايات، هم الذين توفرت لديهم شروط اليقظة أيام كان الجمهور منا في سبات واستكانة! وكم من نابه قضى تاركًا آثاره فاكتفينا بالثناء عليها وعليه ثناء النائحات على كل ميت، فظلمناه في مماته بعد أن كان مظلومًا في حياته! فلم نسجل من آرائه رأيًا ولم نحلل من العوامل التي كونته عاملا.

كلا، لم نحلل بعد رأيًا ولم نسجل عاملا لأننا مازلنا في هذا الفن الجليل أطفالا، نظرة إلى ما يكتب عن ثمرات المطابع عندنا ترينا (مع استثناء صغير) إننا نقابل الكتب الجيدة بأحد الأنواع الثلاثة التالية:

الأول – أن نغفل ذكرها إغفالا حتى إن كانت عنوانًا قيمًا ليقظتنا الفكرية، وخطوة واسعة تستدعي الإعجاب والاغتباط، ولا يبرر هذا الإغفال حتى ولا الاعتذار بأن الجمهور يتطلب الآن موضوعات معينة لا يرضيه سواها. لأن هذا الجمهور المتهم هو هو الذي يبتاعها ويستهلك طبعاتها. فكيف يجد متسعًا من الوقت لمطالعة كتاب بكليته ويضيق وقته وصبره دون قراءة سطر عنه؟

النوع الثاني: هو إما مرقة دهنية لزجة مزجت فيها مواد الثناء والمدح والإطراء يطلي بها ذكر الكتاب دع عنك كونه صائبًا أو غير صائب. وأما تقريظ بالاستعارات المألوفة التي لم تعد تعني شيئًا يختم (كما تختم جميع الصلوات بآمين) بكلمات لا مفر منها مثل "حث الجمهور على اقتناء هذا السفر النفيس" أو "التمني أن يصادف هذا الكتاب الشائق النافع ما يستحقه من الرواج والانتشار".

أما النوع الثالث الذي أرادوا أن يطلقوا عليه اسم "النقد الحديث" فهو نقيض "التقريظ" العتيق. ويفكهني أن أتخيل أحيانًا أن جميع اصطلاحات الثناء والاطراء "أضربت عن العمل" هي الأخرى لحين ما فتكأكأت في مكان واحد متماسكة متجمدة ففاجأتها قنبلة تائهة فتفرقعت متطايرة شظايا ملتهبة تقمصت بفضل بعض النقدة "العصريين" قذفًا وطعنًا وتهجمًا.

ومما يؤسف له أن من هؤلاء النقدة من هو ذو مقدرة كبيرة، لو هو أنال مقدرته كل موهبة من التثقيف والصقل والملاينة والكياسة الفنية، فتذكر أن نقده ليس بالبلاغ العسكري يعلن الأحكام العرفية، ولا هو بالمنشور الأسقفي يحرم عضوًا من شركة المؤمنين وشفاعة القديسين، ولا هو بأمر "المعلم" القروي (على الطراز القديم) غضب على تلميذ مسكين لم يحفظ أمثولته، كما ينبغي فحظر عليه أن يأكل، أو يشرب أو يتحرك أو يتنفس بغير سماحة كلا. ليس النقد بشيء من ذلك. إن هو إلا نظرة فرد معرض للخطأ في عمل فرد آخر معرض للخطأ يختلف عنه ميولا وتأثيرات وكفاءة ووراثة. وإذا كان الأدب واجبًا في الخطاب الشفهي، فهو في الخطاب الكتابي أوجب. وأول مظاهر الأدب هو التهيب أمام شخصيات الناس لكونها شخصيات إنسانية فحسب، فكيف بها إذا هي بذلت مجهودًا ما، وكانت ذات ميزة علمية، أو فنية وأخلاقية؟

إن ألزم مميزات الناقد هي العطف. لست أعني العطف بمعنى التساهل واعتبار العيوب والنقائص حسنات وكمالات. وإنما أعني عكس التحامل والتعنت ليتهيأ له التجرد من ذاتيته تجردًا موقوتًا يتسنى معه الدخول في حياة المنقود شاعرًا معه، متوجعًا لحاجته، مراعيًا عادات بيئته ومطالبها، خاضعًا لجميع مؤثرات المحيط، طالبًا لحين غايته من الحياة، وإلا فكيف يدعي امرؤ على تحويل

حاجات الناس إلى حاجته، وحصر عقلياتهم في عقليته، وسجن قلوبهم في قلبه، وقياس أحوال حياتهم بمقياس حياته، ثم يأتينا بحكم يزعمه هو نهائيا بلا نقض ولا إبرام؟ إلا أن ذاك هو الهاجي وليس بالناقد. هو المتصلب وليس بالفنان. هو الذي يتجاهل أن النقد لا يقوم بإظهار العيوب (وجميع الناس بارعون فيه) وإنما هو إحكام التمييز والتعليل، شأن المصور في توزيع الأنوار والإظلال على ما يجب أن يكون في اللوحة الواحدة.

أعلم أن بين نقدة الفرنجة كثيرين من المتحاملين، ولكن ما يأتون من ضروب الطعن والنهش لم يقنعني بأن العصمة في جانبهم، ولم أر في أحكامهم سوى رأيهم الخاص ليس إلا.. وهذه الصورة التي هي من رسم التيمورية إنما هي نظرة فردية طبيعتها ولا زعم لي أنها صورة مطلقة. وأتمنى أن تتنبه الرغبة في معرفتها في نفس كل من شاء مسايرتي فيدرسها معي متصفحًا روحها، راسمًا لذاته صورة منها خصيصة. فإن الحرية الفكرية هي ما ننعم به ولله الحمد. وبها سيبقى الإنسان كبيرًا نبيلا وإن كان في سواها عبدًا ذليلا.

وقد أحصيت الأسباب العمومية لدرس الشاعرة، لكن لدي سببًا آخر، وهو مقابلة معنوية جرت لي معها منذ حداثتي القصوي.

كان ذلك في تلك البلدة بفلسطين وقد بدا الحي متجليًا ببهجة الأعراس وبهائها لزواج ذلك الوجيه السري. ونصب صوان عظيم على سطح الدار الواسعة ليقام فيه مهرجان الفرح كل ليلة. فما يخيم الظلام إلا وتعزف الآلات الشرقية تحت الخيمة الوضاءة بتألق الأنوار ومعالم الزينات، الغاصة بوجوه القوم وأعيانهم من تلك البلدة وضواحيها.

إذ ذاك يهرع أهل الحي إلى الشرفات والنوافذ وسطوح المنازل ستسمعون إلى آهات الطرب الشائعة في الفضاء حتى لتتهادي أصداؤها نحو ما جاور من جبال الجليل. والأطفال مغتبطون بأن يحتضنهم صدر دافئ ويحميهم من أهوال الظلام، فتتنبه منهم النفوس لتفهم أعجوبة الألحان.

كنت على ذلك في ليلة فإذا بصوت ينشد على نقرة العود:

كحل بعينيك أم صبغ من الرحمن　　جفن من السحر أم سحر من الأجفان

خال بخديك أم صنع من الديسان　　توهت فكر الأنام في الجفن والخالات

تبارك الله ما أحلاك من إنسان

سمعت وأصغيت ليس بنفسي كما كانت صغيرة وقتئذ بل بكل قواي الكامنة التي سينميها المستقبل، وبكل ما في الأيام التي عشتها وسأعيشها من أمل ويأس وسعادة وشقاء وقد استشعرت ببعض ما سأفهمه بعدئذ من نجوى الموسيقي الشرقية.. تقول إن الإنسان يجهل كيف ولماذا ولد، لكنه يعلم أنه يحتاج إلى السعادة التي لم يفز بعد منها سوى بفتات موهوم. تقول للطفل الشاب إنهما أكبر سنا مما يظنان، وتقول للقوي الظافر إنه ضعيف مدحور، وتقول لكل أحد إن حياته كانت إلى هذه الساعة خالية سخيفة قحطاء. تقول له إن في الدنيا أمورًا لم يختبرها وإن جهله لها فقر وضنك وذل وعبودية وموت سبق الموت. تقول إن الاجتهاد والجهاد عقيم النتائج لأن العمر قصير سريع العطب، وإن كل لحظة يجب أن "تعاش" بأكملها ليستخرج منها أقصى ما تكن. تقول إن القلب روي بالعبرات ينتظر اليد القادرة تضرب عليه ليتفجر كصخرة موسى.. وإذ تنطلق الأصوات سابحة كالأجنحة في فردوس من الألحان، ثم

تصبح متفجعة منتحبة، ثائرة، عاصفة تلج وتتمادي يخيل أن الفزع قد جوف تحتها هاوية تترامى فيها الأصداء المرتعشة. فتعكف النفس على حاجتها ووحدتها وحيرتها بين هذه الهاوية وذلك الفردوس، وتطلب التوازن والراحة في سحر الحب وذوب الحنان.. ولكن العمر قصير سريع العطب، وكل ما فيه مرسوم بوسمه.. لكن الحياة مراوغة في استقامتها، شحيحة في كرمها، وكل ما فيها كريم شحيح مراوغ مستقيم..

هذا بعض ما قاله لي فيما بعد شهيق الأوتار، فهل فهمت منه عندئذ شيئا؟ لا أدري. ولكن كم ذا انتقش الظلام بالمشاهد الخلابة لذكر ذلك الشخص العجيب الذي لم يكن أحد يعلم ما إذا كان جمال عينيه كحلا أم صبغا من الرحمن! ذاك الشخص الذي تاهت به أفكار الناس فتجمهرت لتهتف: تبارك الله ما أحلاك من إنسان! أتتصورون أثر هذا الرسم في مخيلة صغيرة شديدة التيقظ، وفي نفس لينة ترتعش أمام مظاهر الفن والجمال حتى لقد تبكي لمرور سحابة زاهية في الأفق الأزرق؟

ولطالما سمعت هذا "الموال" بعدئذ من منشدين أصوليين وغواة يقبلون عليه إقبالهم على جميع الأدوار المصرية المشوقة. لكن أكانوا يعلمون من هي شاعرته؟

أرجح أن تلك كانت نشوتي الموسيقية الأولي. فأبقت في أثرًا، كأنما هو إشارة من روح التيمورية تنبهني. وما تبينت تلك الإشارة إلا عند مطالعة ديوانها والاهتداء إلى ذلك "الموال" فيه فأدركت أنها حدثتني منذ زمن بعيد تلك الروح التي غاصت نفسها الحزينة الطروبة في أرواح المنشدين فحبست على أوتارهم ألحانًا، وانطلقت على أمواج الهواء فنًا وتغريدًا وإبداعًا. وهكذا تلك المرأة التي

وقعت زفراتها في وحدة خدرها وراء الحجاب، صار الشجن والطرب منها فعلا تتناقله أجواء الأقطار وتتأثر به ليالي الأفراح في نازِح الديار.

كذلك برقت التيمورية في تلك الظلمة وكان ذلك النور منها رمزًا لنور آخر خطير. إن عائشة عصمت ظهرت حين كانت المرأة في ليل دامس من الجهل. فجاءت بارقًا يبشر المرأة المصرية ومستقبلها.

الفصل الثاني

عصر الشاعرة

الحياة الفكرية والاجتماعية

بزغ القرن الخامس عشر على ربوع الغرب فجرًا ما برح ينتشر ويعمم حتى شمل بنوره نهضة التجدد الكبري. وما تولي إلا وقد جاء بحادثين بدلا حظ البحر الأبيض المتوسط وحظ مرافئه في الحركة التجارية والعمرانية. وهما اكتشاف فاسكو دي جاما طريق الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح، بعد أن شق كولمبس البحار وصولا إلى الأقطار الأمريكية.

روبينا التطور يتتابع في الغرب حثيثا سواء في العلم وأسباب المواصلات وامتزاج الشعوب والصناعة والتجارة والثروة والحرية الفردية والكرامة القومية – كانت مصر، وقد حرمت من مرور تجارة الشرق، تتقهقر ببطء حتى انقطعت العلاقات بينها وبين العالم. وظلت ثلاث قرون يحكمها بالاسم ولاة عثمانيون وتدفع الجزية السنوية إلى تركيا إلا أنها تعثو فيها تلك الفئة الطاغية من المماليك "البكوات". ففشت في أنحائها الخزعبلات والأوهام، واشتد العوز مهددًا بالأمراض والمجاعات. والدول التي تتنافس الآن وتاريخها وحضارتها العريقة، الفريدة بموقعها الحربي المنيل النفوذ السياسي والرواج التجاري لجمعه بين القارات الثلاث وسيطرته على طريق المشرقين.

أي عجاجة لا تثير أعمال الرجل العظيم! هبط نابليون الشرق يستغله ويقيم عليه الركن الأول من عرش أراد أن يخيم ظله على الشرق والغرب جميعًا. فهبت الدول تقاتل الجبار وتتحالف لهزيمة جحافله. وصار القطر المهجور محجة الغايات لأن البطل أدخله في خارطة أطماعه.

جاءت القوة العثمانية بقيادة القبطان حسين باشا وتكاتفت والحملة الإنجليزية في الرحمانية فزحفتا معًا على القاهرة. فسلم الفرنسيون نهائيًا في سبتمبر ١٨٠١ بعد الاحتلال بثلاثة أعوام دون جني أية فائدة حربية. وكم من عمل يؤتي في سبيل غاية تفشل، فإذا به موفور العائدة لغاية أخرى!

فقد أسفرت الإغارة الفرنساوية عن ثلاث نتائج الأولي قومية. إذ شعر المصريون بأهمية بلادهم وبمقدرة الشعب على إزعاج الحكومة المستبدة إذا هو اتحد وتضامن. كما لمحوا وميضًا من المدنية الأوروبية الحديثة ورغبوا في اقتباسها. الثانية علمية – إذ استصحب نابليون جماعة من العلماء الإخصائيين فدرسوا طبيعة البلاد ومواردها، وأدخلوا الطباعة ونشروا الصحف وأسسوا "المجمع العلمي المصري" وجاءوا في مختلف الموضوعات بأبحاث قيمة، منها وصل البحر الأبيض بالبحر الأحمر الذي سيستفيد منه دليسبس وأحدثوا إصلاحات كثيرة ذهب جلها إنما بقي منها جرثومة ستنمو بعد الآن على يد حكومة البلاد.

الثالثة سياسية – إن بين ضباط القوة العثمانية كان ذلك الرجل الذي ولد هونابليون وولنجتون في سنة واحدة ١٧٦٩وحكم مصر بعد محوه للمماليك.. وبين رجال محمد علي رجلان يختلفان أصلا وعملا أحدهما كردي وهو محمد تيمور بن إسماعيل بن على كرد، الذي كان ضابطًا وساعد على استئصال دولة

المماليك حتى صار من خاصة الوالي. فترقى في المناصب من كاشف إلى محافظ، وتوفي سنة ١٢٦٤هـ. ١٨٤٧م والآخر تركي الأصل، وهو عبد الرحمن أفندي الإستانبولي الذي كان كاتبًا في الديوان الهمايوني عند السلطان سليم الثالث ثم صار ذا مكانة عند محمد على حتى إنه بعد وفاته دفنه في القلعة وكان لسلالة هذين الرجلين أن تحمل علامة اليمن. فقد تزوج محمد تيمو بابنة عبد الرحمن أفندي فكانا جدي الشاعرة.

ولدت عائشة سنة ١٢٥٦ هجرية قبل وفاة محمد على بتسعة أعوام، وتوفيت بعد تولية عباس الثاني بعشرة أعوام، أي أنها شهدت تطور بلادها على عهد أربعة ولاة هم: محمد علي وإبراهيم وعباس الأول وسعيد، وثلاثة خديويين هم: إسماعيل وتوفيق وعباس الثاني.

كان لمحمد على مطامع سياسية معينة فبذل المجهودات لتأييدها في الداخل بإنشاء المدارس الحربية والمستشفيات العسكرية، وتنظيم الجيش وتخريج الأطباء، ونشر المعارف وإرسال البعوث إلى أوروبا لتتلقي العلوم الفنية والميكانيكية والحربية. أما في الخارج فكان يؤيد مطامعه بالحروب والفتوح.

وتتابع التطور ضئيلا خلال ولاية إبراهيم التي لم تدم سوى شهرين اثنين، وولايتي عباس الأول وسعيد حيث كان غرض التعليم محصورًا في تخريج موظفين للحكومة وضباط للجيش. وإن امتاز عهد سعيد بأمور ذات شأن، منها وفاء ديون الحكومة، وحذف الجمارك الداخلية والاحتكارات، وإرجاع الحرية الفردية وحق الملكية إلى الفلاحين – بعد أن كان محمد على قد جمع الأملاك بين يديه جاعلا الحكومة تسيطر على كل تجارة مع الخارج. وتم في عهد سعيد إنشاء

القناطر الخيرية التي بدئ بها بأمر من محمد علي. وسعيد هو الذي فوض إلى صديق طفولته دليسبس أن يباشر حفر قناة السويس.

بيد أن الاندفاع الأكبر جاء في عهد إسماعيل فعاد إلى معالجة مشروعات محمد على مرسلا البعثات إلى أوروبا، موجدًا المكاتب الأهلية ومتحف الآثار المصرية، حافرًا الترع للري ومجملا المدن الكبيرة.

وأصدر أمرًا في أواخر عهده يعلن رغبته في أن يحكم بواسطة مجلس نظار، بعد أن كان قد أصدر أمرًا بتشكيل مجلس نواب تأخذ الحكومة رأيه فيما تسن وتحور من النظم والقوانين وكان كاهل مصر قد أثقل بالديون، مما أدى إلى قبول الرقابة الأجنبية على المالية المصرية. فقام يومًا ينكر على الموظفين الأوروبيين حق التدخل في شئون بلاده فحملته الدول أثر ذلك في التنازل لولده توفيق تحت الرقابة الفرنساوية الإنجليزية فيما يتعلق بالمالية.

وقامت الثورة العرابية مطالبة – فيما طالبت به – بإلغاء الرقابة الأجنبية على المالية المصرية. وكان ما كان من احتلال إنجلترا وتفويضها إلى لورد دوفرن درس مختلف المشاريع وتنفيذها في مصر وبعد توقف القطر عامين استطرد فيه التنظيم والتقدم بحيث تمكن القاضي المفكر قاسم أمين من أن يقول في رده الفرنسي على الدوق داركور:

إن الحرية التامة سواء في التفكير والكتابة أصبحت مباحة، وأن المصري يتمتع الآن بكل ما ضمنه الإعلان الشهير من "حقوق الإنسان". إن "الجميع يتوقون إلى العلم ويتعلمون معتبرين أن هذا هو السبيل الوحيد للنهوض. منذ ثورة عرابي انتبه الشعب المصري لمكانته وكرامته. استنار ذهنه فجعل يهتم بنظام

الحكم وبالشئون العامة يقدرها ويحكم لها أو عليها. وبالجملة فإن مصر تيقظت بالفعل".

نشر قاسم هذا الكتاب سنة ١٨٩٤: ولما توفيت عائشة بعد ثمانية أعوام كانت حركة التطور في ازدياد وقد أضيفت إليها عناصر فتية متنوعة.

أهي يقظة الفكر عند الأفراد تهيئ اليقظة القومية أم هي يقظة الجمهور ومطالبه والأحوال المحيطة به التي تخلق الأفراد وتحبوهم بالمواهب الضرورية ليتكلموا بصوت الجماعة؟

أظن أن التفاعل هنا محتم كما هو في كل أمر آخر. فالأفراد يخلقون الجمهور والجمهور يخلق الأفراد، لأن القوى البشرية محكمة الترابط فيما بينها، فإذا انتبهت إحداها تأثرت بذلك الانتباه جميع القوى وهبت متجددة نابضة، مبدعة كأنها الصوت الواحد يحدث هزة في مكان من الهواء فتتناقله الموجات المسارعة حتى يرن في أقطاب الفلك جميعًا.

ولكن يخيل أنه قبل تنفيذ أي عمل يقتضي رسم خريطة خيالية جلية في الذهن الناضج الصافي. خريطة من الخرائط التي يسمونها المتهكمون "نظريات". وهذه النظريات التي تثني لذكرها شفاه العلميين هي من الأهمية، بحيث إن الطبيعة لا تجمع عادة (وإن فعلت نادرًا بشذوذ جميل) بين مقدرتي النظر والعمل في شخص واحد إذ إن لكل منهما صفات تنافي صفات الأخري. يهيئ النظريون الخرائط الذهنية، فينظر فيها سواهم بعين النقد والتمحيص كأنما هي "المثل الأفلاطونية" التي بموجب نظريتها لا تكون المحسوسات إلا انعكاس أفكار كائنة في ذهن الإله الأعظم. تلك هي حكاية التليغراف اللاسلكي التي ابتدأت مع

مكسويل وهرتز وبرتلي نظريات وتعديلات علمية، فصارت مع ماركوني عاملا آليًا تعنو له مجاري الجواء في نقل الأفكار. وتلك هي حكاية الغواصات التي كانت في كتب جول فرن الفرنسي رؤي وأخيلة علمية. فبسط إديسن الأمريكي لوزارة بحرية بلاده إمكان إنشائها في تقرير نسخه الألمان سرًا، وسيروها خلال الحرب مدنا متحركة تحفر البحار وتصادر سفن الأعداء وسفن من كان لهم مواليا وظهيرًا. وتلك هي حكاية الثورة الفرنسية أعدها الكتاب والمفكرون، والثورة الروسية التي مهد لها الروائيون والشعراء سبيلا.

وانتحت الحياة الجديدة في مصر هذا النحو. فإنه إلى جانب التحسين الزراعي والحربي والميكانيكي والمدرسي، ظهرت حركة أخرى راودها الغموض في البدء إنما جعلت تتسع وتنجلي مع الأيام. نشأت عن تواصل الاحتكاك بمدينة الغرب سواء بواسطة النزلاء المقيمين في هذه الديار، وبعوث الشبان العائدين من أوروبا وقد تطعمت نفوسهم بجديد النزعات وحديث الآراء، وجماعات خريجي المدارس المصرية وقد سرت إليهم عدوى الفكر العصري خلال ما تلقنوا من الدروس الأوروبية. وقدم مصر جماعة من نوابغ السوريين وأحرارهم النازحين أثر النكبات فكان صدم أفكارهم بأفكار المصريين جزيل النفع للفريقين وللفكر العربي عمومًا.

بلغت تلك الحركة أشدها في عهد إسماعيل، وقد بدت أدبية اجتماعية بعد أن كانت ميكانيكية علمية، يمتزج فيها استيحاء الجديد وتجديد "القديم" الاستيحاء بالاطلاع على مؤلفات الأجانب ونقل ما تيسر نقله منها إلى العربية. والتجديد بإعلاء شأن روح اللغة. إذ كانت يومئذ آلات مطبعة بولاق الأميرية والمطابع الأهلية الأخرى تشتغل لإعادة نشر مؤلفات "المدرسين" من كتاب

الإسلام وعلمائه الأقدمين. وكثرت الصحف حتى بلغ عددها السبعة والعشرين فترتب على ذلك "نشر أغراض عامة في تلك الجرائد ومباحث علمية وأدبية في صحيفة روضة المدارس وتخريج نوابغ من طلبة مدرسة دار العلوم على يد أستاذهم المرحوم الشيخ حسن المرصفي واستفادة بعض النبهاء من طلبة الأزهر بطول اختلاطهم بالمرحوم الشيخ جمال الدين العالم العصري حين ذاك"، سلوك سبل أخرى في الإنشاء تستمد منها الأقلام. فعوضًا عن الاشتغال بكتابة التهاني أو البشري بمولود، أو التأسي على مفقود أو المدح أو الهجاء أو العتاب أو الاستعطاف أو التغزل بالغيد والغانيات أو مكاتبة الأصحاب والأحباب والرجاء والاعتذار التي هي من الأغراض الخصوصية، مالت الأقلام إلى الكتابة في حب الوطن وما يستلزمه من خير العمل والحث على الفضيلة والتباعد عن الرذيلة وحق الحاكم على المحكوم والمحكوم على الحاكم، وغير ذلك من شرح حكم عالية هي من الأغراض العمومية.

كل هذا كان أعظم مرشد للمطلعين عليها حتى ترتب على ذلك تغيير عظيم في الأساليب الإنشائية، وفي الحركة الفكرية وفي الشعور بالذاتية.

برز هنا أمين باشا سامي ذلك الرجل الشرقي الشبيه بفلاسفة الماضي كشقراط وسواه الذين لم يكتبوا وإنما أرسلوا تعاليمهم ضمن المحادثات العادية. وكانت أهم المحافل الفكرية هي الحلقة التي تعقد حول جمال الدين "في القهوة التي تقع قرب فهوة البورصة القديمة" "ولعل تلاميذه لا ينسون في مستقبل الأيام أن يحيوا ذكره بينهم في ذلك المكان". هذا رأي د. شبلي شميل الذي عرف الأفغاني وجالسه وناقشه. ويتابع الحديث عنه قائلا:

لم يكتب فيما أعلم شيئا، وإنما يلقي على آخرين مقالات ضافية تنشر في جريدة مصر تحت أسمائهم. ولولا الشيخ محمد عبده ويده الكاتبة لما كان لصوته صدى ولبقيت تعاليمه في صدور أكثر الذين تلقوها عنه وماتت معهم إذ كانت كل تعاليمه حديثًا يلقيه بحسب مقتضي الحال". "وقبل جريدة مصر كانت شهرة جمال الدين مقتصرة على الأخصاء وأعماله محصورة في دائرة مريديه، وأما جريدة مصر فكانت سببًا كبيرًا لإذاعة صيته ونشره في الآفاق". "ولم يتهيأ له أن وقف خطيبًا في قوم إلا مرة واحدة أظهر فيها أنه خطيب مفوه أيضًا. وكان ذلك بمسعي أديب إسحق وفي تياترو زيزينيا على محضر من جمهور غفير من علية القوم من رجال ونساء من السوريين والمصريين. فألقى خطبة اجتماعية سياسية أبدع فيها معنى ومبنى وجرأة وبقي يرتجل الكلام نحو ساعتين دون أن يبدي أدنى تعب أو يتلعثم حتى خلب العقول وأقام الناس وأقعدهم.

جاء الأفغاني مثالا محسوسًا لتفاعل الأفراد والجمهور إذ رأى ببصيرته النافذة ما يحرك نفوس إخوانه من العوامل المستفزة نفسه، دون أن يهتدوا إلى كيفية التلخيص والإفصاح. فتكلم فيهم بلغته "الممزوجة ببعض لكنة أعجمية تنم عن أصله الغريب وإنما وقعها على الأذن كان محبوبًا. تكلم فيهم بفصاحته النارية فكانت له اليد الطولى في تحريض الأفكار وإضرام الثورة العربية" فهو زعيم الناقمين في ذلك العهد، هذا الأفغاني الذي أرسلت شعلة روحه الشرر من أفغانستان، إلى بلاد فارس، إلى وادي النيل حيث مر كتيار لفاح.

شعر الفكر المتغير المتكيف بوجوب تبديل استاره والتجلي بزي يوافق صورته الخفية فكان ذلك التطور في نتاج القرائح والأقلام من شعر ونثر، وإن كان في الشعر أسبق أما في النثر فأوضح. وظهرت مع الشعر الفصيح ضروب من

الشعر العامي كالمواليا التي لم يأنف معالجتها نفر من كبار الشعراء. وتجدد "الزجل" الطلي. وأما وضوح النثر فجاء من انتشار العلوم الطبيعية والرياضية فمال الناس معها إلى إحكام المعنى وإخراجه من معمعة السجع والجناس والاستعارة والتورية. وبدهي أنه لم يفلح في ذلك أولا غير النفر اليسير، وتفرقت من الآخرين الطرق. فتحدى بعضهم أسلوب الأقدمين من صدر الإسلام أو من صدر العباسيين. وتسربت إلى أسلوب غيرهم ركاكة لغة الدواوين التي لم تخلص منها حتى في هذه الأيام. ولعل أقرب الأساليب منالا هو أسلوب الصحافة التي كانت ومازالت عندنا ميدانًا للعلماء والشعراء والأدباء، وقد تحتم عليها التوفيق بين مختلف الأذواق والكتابة بلغة يفهمها الجميع على السواء. ولصحافتنا في ذلك تاريخ أعز. وما فتئ التحسن يبدو عليها من عام إلى عام وهي عامل كبير في رفع فكر المجموع، وربما كانت العامل الأكبر لأنها العامل الأشمل.

وإذا كانت الحالة الفكرية والاجتماعية في تفاعل مستديم، فكيف كانت يا ترى العيشة العائلية؟ كيف كانت حالة المرأة؟ أكان يصل إليها صدي الخارج؟ أكانت تشتغل لرقي بلادها في دائرة الأسرة وتدرك معنى المطامح القومية؟

هناك شبه جواب عن هذه الأسئلة عند أمين باشا سامي الذي يخبرنا بأنه في عصر محمد على كان الأهالي: "عقبة كؤودًا في طريق تعليم بنيهم. غير أنهم لما تحققوا أن تعليمهم في تلك المدارس ومكثهم بها ينقل حالة أبنائهم إلى حالة أرقى من التي انتشلوا منها تحققت الرغبة عندهم". "أمر إلى حبيب أفندي في ٤ جمادي الثانية سنة ١٢٤٧هـ (١٠ نوفمبر سنة ١٨٣١ م) بشراء عشر جوار سودانيات صغيرات السن ينتخبن بمعرفة كلوت بك لتلقي فن الولادة ومعهن اثنان من آغوات الحرم يتعلمان فن الطب والجراحة".

كانت عامة الفتيات تتعلم التطريز وأشغال الإبرة سواء في بيوتهن أو بالتردد على المعلمات القبطيات وغيرهن. ومنهن من يتعلمن القرآن على فقيه البيت. ونفسي تحدثني أن ذلك الفقيه كان ينطبق عليه وصف صاحب مذهب "هذا جناه أبي على وما جنيت على أحد".

ليأخذن التلاوة عن عجوز ... من اللائي فغرن مهتمات
يسبحن المليك بكل جنح ... ويركعن الضحي متأثمات
فما عيب على الفتيات لحن ... إذا قلن المراد مترجمات
ولا يدنين من رجل ضرير ... يلقنهن آيا محكمات
سوي من كان مرتعشًا يداه ... ولمته من المتنغمات

سأليس هذا قد كان رأى أكثر الأهل في معارف البنت وفي الدين يتولونتعليمها؟ بيد أن السيل متابع مجراه والوفود الأوروبية ترد أفواجًا ومعها البعوث الدينية تؤسس المدارس للبنين والبنات. فأنشئت مدرسة راهبات الراعي الصالح في شبرا منذ ١٨٤٤، وتلتها مدرسة الأمريكان للبنات بالأزبكية سنة ١٨٥٦، ومدرسة راهبات الفرنسيسكان الإيطالية سنة ١٨٥٩، وبينما مدارس الجوالي تتكاثر في أنحاء القطر أسست مدرسة البنات بالسيوفية سنة١٨٧٣ (ولم يسبقها من المدارس الأميرية سوى مدرسة الممرضات والقوابل منذ عهد محمد علي). وهي المدرسة التي تعرف اليوم بالمدرسة السنية. وتلتها مدرسة القربية سنة ١٨٧٤ ثم انضمت ومدرسة السيوفية وعرفت بها. وكان عدد المدارس للبنات والبنين في ازدياد سريع حتى أنشئ منها في حياة "عائشة" ما يقارب الألف من مدارس أميرية ومدارس تابعة لمجالس المديريات أهلية وأجنبية عدا المعاهد الدينية والكتاتيب بيد أن المرأة لم تكن وصلت إلى دور تثقيف

نفسها. بل كانت رائعة في انقطاعها وجهلها شأن من اعتاد الهواء الفاسد يضيق منه النفس ويعتل إذا هو انتقل إلى حيث الهواء نقي. وإنما هي الأقلية المتنورة من الرجال التي كانت تطلب في الزوجة شريكة وصديقة، والأبناء التربية المنزلية الصالحة، وللبيت ذلك الجو المفرح الذي تخلقه المرأة بعذوبة حبها إذا هي قرنت بالحصافة والمعرفة. وكان أولئك الرجال يتشاكون الغم فما بينهم وليس من يقتحم مصادرة الرأي العام. انبرى قاسم لا يبالي بتطعين الحراب، هادئًا كمن جس مقاتل الخصم وتسلح بصارم الحق واليقين.

الحياة المنزلية

نحن حوالي منتصف القرن التاسع عشر، في مدينة القاهرة عاصمة الديارالمصرية قبل أن تبدل معالمها يد الهدم والبناء وقبل أن تصقل بعض جوانبها يد التحسين الجديد. مدينة شرقية توالت عليها نوائب التاريخ واختلطت فيها أجناس الشعوب وهي لسرها الطويل كتوم توزعت في مختلف الجهات منها البقايا الأثرية والجوامع البديعة الفائقة على الثلاثمائة، والحمامات والأسواق و"السبل" المرمرية المقدمة ماءها العذب لكل ظمآن يرتوي وفوق المدينة الجائمة ترتفع تلك المآذن بقاماتها الهيفاء فيخيل أحيانًا أن الإنسانية أعلت هياكلها في الهواء الأزرق ليس ليصل صوت المؤذن إلى المؤمنين على مسافة بعيدة فحسب، بل ليكون المبتهل في صلاته أقرب إلى باريه وأرسخ في الثقة بالاستجابة. وطورًا تبدو تلك المآذن كأنها حراب أرسلتها أيادي الإسلام تنبئ الجائب بأنها على دوام الاستعداد لدفع الطوارئ عن الدمار.

في الشوارع والساحات تبصر أخلاطًا من الثروة والفقر، أناسًا يرتدون الأثواب النفيسة وعليهم دلائل النعمة والرخاء، وآخرين يرتدون الأطمار البالية

وعليهم دلائل الذل والشقاء، ولكن "رغم مشهد الفقر والمرض عند الشعب فإن شوارع القاهرة ليست لتوحي الأسف والخيبة اللذين يشعر بهما المسافر في الأستانة ذات المنظر الفخم من الخارج، المحزن في الداخل نعم إن أكثر هذه الشوارع مظلمة ملتوية متشابكة الواحد في الآخر كأنها مجاهل التيه، يعترضها هنا وهناك ممرات خفية وغاية ما يسع عابرها أن يستسلم لحكمة دابته وثقافتها على أنها نظيفة يتعهدونها بالكنس والرش المنظم. وبدلا من بلاط الأستانة الشنيع وتلك السلالم الحجرية في غلطة وبيرا، لا تجد هنا إلا أرضًا مستوية صلبة تسير فوقها بلا عناء. أما المنازل القائمة على جانبي الشارع فهي في الغالب أشهق من بيوت عاصمة تركيا وأتقن صنعة، ففي كل وقت تبصر العين الواجهة المزخرفة بالنقش العربي، أو النافذة ذات المشبك الخشبي الدقيق الفن أنيق التفاصيل، فيكاد المرء يغتفر لأجلها الغيرة التي أقامت هذا الحاجز بين داخل المسكن وتطلع السابلة".

كاتب أجنبي يحثنا بهذا القول لا يرى في ذلك "الحاجز" سوى رمز "للغيرة" كأن الغيرة من واردات الشرق التي يتفرج عليها الغرب ولا يكابدها. لكن هلم نقف أمام أحد هذه المنازل، أمام المنزل الذي نتطلع الآن نحو الماضي لأجله. هلم نستعين بالخيال حين لا وسيلة سواه، فنخترق جانبًا من الحديقة الحافلة بالورد والرياحين تحت رعاية الأشجار ذات الظل الوارف. هو ذا الآغا يسير بنا إلى دار الحريم حيث تلقانا طغمة من الجواري والخادمات وتدعونا إلى الجلوس في الفسحة الواسعة موفورة النور والهواء أرضها تختفي وراء البسط العجمية والطنافس الفاخرة. والمقاعد والأرائك تدور في جوانبها، تتخللها الطاولات الصغيرة وعليها أدوات التدخين من علب اللفائف وأطباق صغيرة

للرماد (منافض). وعلى جدرانها تتألق مياه المرايا العميقة الصافية. وقام في وسطها خوان كبير من الخشب المموه بالذهب، تتدلى فوقه الثريا عديدة الشموع المنحدرة من السقف المصنوع من خشب الجوز المجمل بالنقش والزخرف، بل هي هبطت من صميم رسم مثل وردة كبيرة تناوب فيها الحفر والتخريم بنتوء مستدير وسيم. فكان النور خلال تلك التخاريم من جهة إلى جهة نفيذًا.

هذه هندسة أكثر منازل الطبقة العليا وما دونها قليل في ذلك العهد وما بعده حتى أوائل القرن العشرين. أما البذخ والترف في بيوت الكبراء فيبدو في اتساع الغرف والردهات، وفي تعدد المقاعد والمرايا ونفاسة الأقمشة والثريات والطنافس. ولابد من قاعة أو قاعات للاستقبال. على أن السيدات يقابلن عادة في هذه "الفسحة" فسحة الدار، كل أشهر الصيف الطويلة. وهنا تنعقد اجتماعات الأسرة سواء في الليل والنهار.

اقتبس هذا الوصف من كتاب الزوجة الأولى لصاحب الدولة حسين رشدي باشا. كانت السيدة فرنسية ووضعت كتابين بلغتها وقعتهما باسم "نية سليمة" المستعار فوصفت فيهما المجتمع المصري وعاداته على ما أدركته في أواخر القرن الماضي وإنما استندت إلى هذا الكتاب، لأن هدى هانم شعراوي التي تفضلت فأعارتنيه مع الكتاب الـ الآخر قالت لي إنه أصدق ما قرأت من نوع هذه الكتب في وصف العادات المصرية، وأكثرها إنصافًا وأقربها إلى الواقع. وإذا أضفنا إلى ذلك أن "نية سليمة" عاشت في ذلك المجتمع وعاشرته وأحبته، غير ضاربين صفحًا عن بطء التطور الاجتماعي، لا سيما في الرق وفي الأيام الخالية، أمكننا أن نقول إن هذا الكتاب وإن أنشئ في أواخر القرن التاسع عشر فهو يقرب كثيرا إلى ما كانت عليه في أيام عائشة.

فلتكن إذن "نية سليمة" دليلنا.

هي تقول لنا إن هذه السيدة الجميلة البشوشة التي جاءت مرحبة وجلست على المقعد قربنا هي ربة المنزل. أما أولئك النسوة الجالسات على "الشلت" فهاك خبرهن:

إنهن من المترددات على المنزل، وليس لهن أن يجلسن قرب السيدات على المقاعد، وإن كن أرفع قدرًا من الخادمات الجاثمات على البساط أو على الحصيرة" "هن من الجواري البيض المعتوقات ومن الجواري السود اللائي حجبن ومعهن الدلالات بائعات الأقمشة والبضائع. ومعه المراضع وأخوات الرضاعة وقارئات القرآن وسواهن من النديمات ومن المختلفات إلى المنزل لأغراض شتي. يأتين ويجلسن القرفصاء كل اثنتين أو ثلاث على "الشلتة" الواحدة، ويشتركن في الحديث ويروين الأخبار". "أما الزئرات المهمات فتأتين وبعد كلمات الترحيب وتقديم لفائف التبغ تحضر القهوة التي يستغرق تقديمها من الزيارة زمنًا، فالعادة في الطبقة المتوسطة أن يؤتي بها مصبوبة في الفناجين على طبق من الفضة. أما في البيوت الكبيرة فيتعاون في تقديمها ثلاث خادمات على الأقل: إحداهن تحمل الطبق يجلله غطاء مخملي مزركش وقد تهدلت من حواشيه الهدبات الذهبية والفناجين مصفوفة عليه. وتحمل الخادمة الثانية إبريق القهوة في شبه مجمرة فضية امتلأت بالرماد المتلظى. بينما الخادمة الثالثة تصب القهوة، وتدور بها على الزئرات".

أما الأحاديث فهي طبعًا لا تختلف عن المألوف حتى اليوم في الدوائر النسائية غير المتنورة و.. وربما المتنورة أحيانًا موضوعات لا تنفد مادتها كأنها الماء كلما غالبت في الإسراف منه زاد تدفقًا وسيولا. وتلك الموضوعات هي

الولادة، والخطبة، والزواج، والموت، وخصام الأزواج، وخصام العائلات فيما بينها، والثروة والاغتياب إلخ، ولكن يخيل أن السيدات المصريات لم يكن يومئذ لتنطبق عليهن التهمة التي يحب الرجال أن يلصقوها بالمرأة لأن "نية سليمة" تقول بجلاء إنه:

ليس من الغريب أن يقطع الأحاديث غير مرة سكوت طويل، وربة البيت لا تقلق من جراء ذلك ولا تجهد ذهنها للاهتداء إلى موضوع جديد. فقد حضر مجالس السيدات قليلات التزاور فيما بينهن يظللن جالسات معًا دقائق طويلة ثم يفترقن دون أن يتبادلن كلمات التبجيل المبتذل والمجاملة الشائعة ذات المراسيم المسهبة والجمل المهلهلة. فهي تنطوي على تمنيات ودعوات صالحات يتيسر ترديدها مرات عديدة دون أن يكون في ذلك غضاضة أو خشية الهزوء والنكتة" "ثم تأتي زائرات أخريات فتنهض صاحبة المنزل للاحتفاء بهن ويحذو حذوها الجميع، فتلقي الواصلات الجديدات التحية، ولكن ما أدق الفوارق في أساليب التحية! إنهن يقبلن يد السيدة المسنة ويدعونها "عمتي" ويقبلن وجنة مثيلتهن في السن والمرتبة ويدعونها باسم "الأخت" العذب. ويقابلن معارفهن الأقل مؤالفة بتحية "تركية" أما السيدات الأوروبيات فيصافحنهن باليد.

إن اللائي يحضرن اجتماعات السيدات المصريات يعلمن أن وصف صنوف السلام مازال حيًا بحياة الواقع في أيامنا. ولقد كانت دوامًا ساعات السلام لي أوقات اغتباط ودرس أتبين فيها العادات الراسخة وأحلل أسبابها ما أمكن، بيد أن هناك نوعا سلاما آخر يدخل في الصنف الثاني الذي وصفته "نية سليمة" إلا أنه يتجاوزه للإفراط في التودد والتعاطف. وهو ضم الخد إلى الخد مرة بعد أخرى وإرسال قبلات سريعة متوالية في الهواء يسمع لها مصيص شائق

كأنه تغريد طائفة خاصة من الطير. وفيما يتعلق بالتحية "التركية" أو "اللاتوركا" كما يقولون فهي كما تقول "نية سليمة":

كم من نبل وكياسة في التحية التركية وكم تنويعها ميسور، فاليد اليمنى تنفتح بهيبة وبلا توتر وتستطيل في تحدر أكثر أو أقل بعدًا حتى ليصل إلى الأرض عند الضرورة. ثم إن النصف الأ على من الجسد الذي انحنى يعود إلى التقوم والاعتدال مسايرًا حركة اليد التي تدنو من الفم أولا، ثم من الجبهة دون أن تمسها، وتركن أخيرًا إلى موضعها تاركة خلاء في الهواء كما يترك مرور جناح الحمامة.

والوداع يشبه السلام فتعاد عنده طقوس الاحتفاء والتبجيل ذاتها. أما التفصيل الحري بانتباه خاص فهو أن السيدات اللاتي لا يرين مطلقًا أزواج صاحباتهن يحسبن مخلات باللائق إن لم يبعثن إليهم بالسلام مع زوجاتهم. وربة البيت لا ترافق زائراتها بل تتقدمهن إلى الباب فيتبعنها.

لطيف هذا ومعناه المشيعة تسهل لزائراتها السبيل وأنها تخرج من منزلها على نوع ما بخروجهن أو هي تودع معهن شيئا منها، وإني لأوثر هذا على السير وراء الزائرات كمن تطردهن طردًا وتقتفي أثرهن لتكون على ثقة من ذهابهن والتثبت بأنها تخلصت ما من ورطة وجودهن..!

هب أن هذا المنزل الذي زرتاه الآن متبينين فيه بعض عادات ذلك العهد هو منزل إسماعيل تيمور باشا، وأن تلك السيدة ربة البيت التي رحبت بنا هي والدة عائشة، وهي جركسية الأصل معتوقة والدها إسماعيل تيمور باشا (٣) فأين عائشة الصغيرة نفسها؟ أين الشاعرة العتيدة التي نلتفت اليوم إلى معالم الأمس

لننال لمحة من حجر نعمتها وما فيه من خطوط ألفتها فكان هيكل زفراتها وهديلها؟

ألا فاعلم أن عائشة اليوم بنية صغيرة لا تحضر مجالس "السيدات" ولا تختلط بالزائرات إلا لتقبل أيديهن إن كن من صديقات والدتها وقريبات أسرتها. وإذا شئت أن تراها فعليك بذلك المخدع المنفرد حيث تجدها مع أختيها.

الفصل الثالث

النشأة والزواج

نشأة الشاعرة مع أختيها؟ إذن بين فتيات ثلاث متقاربات سنًا، متماثلات حالا، كيف لنا أن نهتدي إلى ضالتنا؟ لو عرفنا صورتها امرأة لاستدللنا بملامحها المتركزة لنتبينها الآن بين أختيها لاعبة واهية – أو هادئة راصنة كما كان ومازال كثيرون من الشرقيين يريدون لأبنائهم جاعلين حداثتهم شيخوخة، مكبلين منهم البداهة على نوع ما فيحرمونهم مرح الطفولة الهانئ وذكريات الغفلة ونعومة البال إلا أن الشخص الوحيد الذي في وسعه أن يطلعنا على تفاصيل معيشتها، أعني شقيقها الجليل أحمد تيمور باشا يفوته من حياتها قسط وافر.

لأنه ولد قبل وفاة والده بسنة (١٨٧١) يوم كانت عائشة في قسط الحادية والثلاثين، تعيش زوجة وأمًا في منزلها بعيدًا عن دار والدها. لذلك رغم كل ما نقلناه عن أحمد باشا من الاستعداد لتلبية السائل، فإنك لتراه أحيانا يتوقف عن الجواب ريثما يراجع تذكاراته، ثم يقول ببسمة الآسف: "والله ما اعرفش".

بيد أني فزت منه بهذا الوصف الظريف في إبهامه. "كانت لا طويلة ولا قصيرة، لا بيضاء ولا سمراء ، لا سمينة ولا نحيفة". أما عطوفة إدريس راغب باشا الذي رآها في حداثته في زيارة والدته فطنت هانم حرم إسماعيل راغب باشا فقد رد على استفهامي بقوله: "مش في بالي تمام كانت إزاي، لكن كانت حلوة

واللّه" كذلك بعد مرور أعوام، وقد تقدمت عائشة في السن، رأتها حرم شعراوي باشا تزور الزوجة الثانية لوالدها محمد سلطان باشا وقالت لي: إن كل ما تذكر منها أنها "كانت ست كدا الاتوركا"، مفهوم أنها لم تكن إلا فرانكا"!

ولكن أظننا بلا دليل ولا علامة قد نعرفها بمجرد الاستسلام لهدي الفراسة. إن التي ترجح على أختيها بمثل ما رجحت عائشة لابد أن تحوي ملامحها منذ الصغر شيئًا يختلف عما يرى في وجه عادي الصغار. فنحب أن نتصورها طفلة دمثة في العاشرة من عمرها، تنضج شفتاها المتوسطتا الحجم بطلاوة العاطفة وشوق المحبة شفتان تهمان بالافترار لتذوق المستساغ المتاغ من طعوم الحياة جاهلتين ما وراء ذلك من حنظل وغسلين. ونحب أن نتخيل في العينين القائمتين من معاني الشجن وغزارة العواطف ما يتفق مع معاني الوجوم واللذاذة في الثغر. ونكاد نرى تلك الشفتين تختمان بالخط اللطيف البارز بدقة كأنه حفر حفرًا، الذي يري في شفاه أهل الفن والذوق، وفي شفاه بعض الشعراء. كأنه يشير إلى الأوزان التي سيضبط توقيعها العواطف المستفيضة الشاردة، ويقتنص الزفرات الملتهبة المتدافعة ليسكبها فيما يظل منضدًا على القرطاس نظيمًا، ويظل على شفاه الطروب من الناس شاديًا.

من أين جاءت هذه الصغيرة بميلها المبكر إلى الكتب، وبوراثتها الشعرية والبيانية، وميل جدها جلي لحمل سلاح الجندي دون سلاح الكاتب؟ أمر لا تتيسر معرفته، إلا للذي اطلع على ما يجهله كبير الأسرة الحالي، أحمد تيمور باشا، من تاريخ التيموريين قبل الهجرة إلى مصر. بيد أن المعروف عن والدها أنه كان راغبًا في العلم والأدب. فألف كتابًا ضمنه خلاصة مطالعاته محاكيا به سفينة الراغب، ووضع لأسرته تاريخًا باللغة التركية كان في نية السيدة عائشة أن تنقله

إلى العربية (نروي هذا عن أحمد باشا وقد أخبرته به شقيقته الشاعرة فيما بعد). وجمع مكتبة نفيسة تشتتت بعد وفاته كما تبعثرت أصول الكتابين اللذين لم يطبعا. على أن لذلك الفاضل أجمل أثر يحمد في تعليم ابنته والعناية بتثقيفها في عصر ضنين على النساء بالتعليم والتثقيف وإن عائشة لتذكره دوامًا بالشكر والتحنان، وترثيه بعد وفاته بقصيدة ملأى بالعبرات:

أبتاه، قد حش الفراق حشاشتي   هل يرتضي القلب الشفوق جفائي؟
يا من بحن رضاه فوز بنوتي   وعزيز عيشته تمام رخائي
إن ضاق بي ذرعي إلى من اشتكي   من بعدك فقدك كافلا برضائي؟

ليس هذا من مألوف الشكوى والثناء، بل هو كان لها على الدوام نصيرًا منذ الصغر في جهادها ضد والدتها التي كانت تحثها على تعاطي أشغال الإبرة.

ولا يفوتنا الآن – في هذه النقطة من بحثنا – مازلنا أيام كان أبناء العظماء، حتى الملوك أنفسهم، يتزوجون من معتوقاتهم. ولطالما استهجن كتاب الفرنجة هذه العادة ذاهبين إلى أن دماء العبيد تجري في عروق أكثرية الشعوب الشرقية. وما هي منهم إلا نظرة سطحية إذ ليس أولئك الجوار دومًا من أصل وضيع. فمنهم الكريمات أسيرات الحروب. وقد قذفت حرب المورة، مثلا إلى مصر بكمية وافرة من بنات اليونان. ومنهن الشريفات المخطوفات. ومنهن الشركسيات يبيعهن الأهل مدفوعين بحب الرفعة والتقدم لأولادهم الذين إذا عاشوا في جبالهم كان حظهم محدودًا. أما إذا انتقلوا إلى بلاد أخرى عن هذا الطريق فلهم أن يتعللوا بأكبر الآمال ويرتقوا أ على المراتب.

لست مبررة عمل الأهل، إنما أنا شارحة إحساسهم نعم إن كثيرين من أولئك الأولاد يحلون بيوتًا صغيرة يعملون فيها للخدمة فيجيء الإعتاق متأخرًا، ويكون الزواج فقيرًا والجهاز ضئيلا. ولكن الشرع الإسلامي شديد الرفق بالرقيق، جم العناية بحالهم. ثم قد يسعى الصبي فيصير "مملوكًا" المعيا، وتصير البنت "هانمًا" غنية ولهم أن يحلموا حتى بالعروش.

هذا من جانب الأهل أما الأزواج فلم يكونوا يومئذ ليطلبوا في المرأة سوى خصائص الصحة والجمال الجسدي وجودة البنية فتزيد أو تنقص قيمة الجارية بقدر ما تحوز من تلك الخصائص. فيخرجونها على أعمال معروفة كتدبير المنزل، وأشغال الإبرة، وفنون الرقص والعزف والغناء أحيانًا. ويربونها على عادات الكبراء وعلى طريقة من الطاعة تتلاقى فيها الأنفة والإذعان.

وهناك سبب اجتماعي آخر في مصلحة الجارية، وهو كونها بكليتها لعائلتها الجديدة. يقول الظرفاء إن آدم كان أسعد الأزواج، لأن حواء كانت "مقطوعة" فظل حياته في نجوة من صولات أهلها وجولات أنسبائها. والحق يقال من عيوب المجتمع الشرقي ذلك التطاول المرق الذي يسمونه "وحدة حال" أو "يا سلام! الناس بالناس" وبه يستبيح بعض الأقارب والأنسباء ما كان يجب أن يحجموا ويقفوا دونه. مسلم أن البر بالأقارب حسن ومحمود، لكن على شريطة ألا يكون ذلك باعثًا على أضرار العائلة وتنغيصها. وألا يكون معناه انتهاك حرمة البيت من ذلك الجيش الجرار الذي تسحبه بعض النساء الشرقيات كأنه الهدية الوحيدة من هدايا العرس المنقلبة ضرب لازب، جيش يصير همه ابتداع الأكاذيب وتلفيق الروايات، لا سيما إذا كثر الاختلاط وظهرت أسباب المنافسة والحسد. وإنما باعتدال المعاشرة والاحتفاظ بعادات كل عائلة، والسهر على استقلالها الداخلي

وراحتها وأسرارها يتحقق التفاهم بين الأقارب وتنمو المودة. أما التطاول والتهجم فمؤديان إلى القطيعة حتمًا وقد بدأ الشرقيون يفهمون أن البنت عند زواجها ثمرة نضجت فسقطت عن شجرتها فأضحى أول واجباتها محصورًا في العائلة الجديدة التي تنشئها، كما تتقيد البذرة بالثمرة الجديدة التي كونتها تنفيذًا لناموس الخليقة. ولقد كان هذا الاستقلال العائلي، وتقديس حدود البيت والتفرغ للاعتناء به، والقيام بما يعود عليه بالرفاهية والهناء – من أكبر عوامل تقدم الأمة الإنجليزية. كما أن نقيضه في كثير من الأسر الشرقية من أهم عوامل التقهقر. إذ كيف يتقدم وينجح من كان في حياته البيتية شقيًا!

هذا ما كان ينجو منه زوج المعتوقة. وقد ذكرت "نية سليمة" قول سيدة مصرية معتوقة إنها ستبتاع في الأستانة زوجة لولدها لأن "بنات باشواتنا كثيرات الدلال. أريد لابني زوجة بلا حمو وحماة لأضمن سعادته".

يدرك القارئ أن والدة عائشة لم تكن تفهم تشبث ابنتها بالكتب، ويدرك أنها كانت تجدها شاذة فتسأل الله عليها صبرًا ولها معونة!

غير أن الأدب الحصيف قريب يسمع ويتبصر. فتقول لنا زينب فواز في كتابها "الدر المنثور" إن الباشا عندما رأى الجدل متتابعًا بين زوجته وابنته تفرس في هذه النجابة وقال لوالدتها "دعيها فإن ميلها إلى القراءة أقرب"، وأحضر لها اثنين من الأساتذة وظل يعني بها فما تمكنت من معرفة إلا يسر لها الأخذ بأخرى. وتشهد لنا عائشة بفطانة والدها وعطفه في مقدمة كتابها "نتائج الأحوال"، حيث تقول والدتها إذ تراها عاكفة على الكتاب والقرطاس كانت تأتي:

وتعنفني بالتكدير والتهديد فلم أزد إلا نفورًا، وعن صنعة التطريز قصورًا. فبادر والدي تغمده اللّه بالغفران وجعل غرف الفردوس مأواه، وقال لها: دعي

هذه الطفيلة للقرطاس والقلم، ودونك شقيقتها فأديبها بما شئت من الحكم. ثم أخذني بيدي وخرج بي إلى محفل الكتاب ورتب لي أستاذين أحدهما لتعليم اللغة الفارسية والثاني لتلقين العلوم العربية. وصار يسمع ما أتلقاه من الدروس كل ليلة بنفسه.

وهي تتبسط في هذا الحديث في مقدمة ديوانها التركي والفارسي بكلام مشوق لا سيما أنه أهم ما لدينا لمسايرتها في نشأتها فتكرر القول إن والدتها كانت تحثها على تعلم التطريز ورأيها "إن هذا المنسج هو أداة النساء وأستاذ المعارف لبنات حواه". أما عائشة فلا تراه إلا "كالهم العنيف". فتتابع:

وبالرغم مما كان متأصلا في نفسي من الميل إلى تحصيل المعارف من جهة والحصول على رضا والدتي من جهة أخرى، فإن نفسي ما برحت نافرة من المشاغل النسوية". "وكان من دأبي أن أخرج دائمًا إلى قاعة منزلنا (السلاملك) فأمر بمن يوجد هناك من الكتاب لأصغي إلى نغماتهم المطربة. ولكن أمي – أقرها اللّه في رياض الفراديس – كانت تتأذى من عملي هذا فتقابلني عليه بالتعنيف والتهديد والإنذار والوعيد. وتجنح أحيانًا إلى الوعود اللطيفة والترغيب بالحلي والحلل الطريفة. أما أبي ـ رحمه اللّه ـ فكان يخاطبها بمعنى قول الشاعر التركي:

إن القلب لا يتهدى بالقوة إلى الطريق المطلوب فلا تجعل النفس معذبة في يد اقتدارك".

فاحذري من أن تكسري قلب هذه الصغيرة وأن تثلمي بالعنف طهرها ومادامت ابنتنا ميالة بطبعها إلى المحابر والأوراق فلا تقفي في سبيل ميلها

ورغبتها. وتعالي نتقاسم بنتينا: فخذي "عفت" وأعطيني "عصمت" وإذا كانت لي من عصمت كاتبة وشاعرة فيكون ذلك مجلبة الرحمة لي بعد مماتي.

ثم وجه أبي خطابه إلى قائلا: تعالي إلى يا عصمت. ومنذ غد سآتيك بأستاذين يعلمانك التركية والفارسية والفقه ونحو اللغة العربية، فاجتهدي في دروسك، واتبعي ما أرشدك إليه، واحذري أن أقف موقف الخجل أمام أمك "فوعدت أبي بامتثال هداه، ووعدته على أني سأبذل جهدي لأكون موضع ثقته ومحققة أمله".

في مناقشة هذين الأبوين وتغلب الأب في النهاية، أمثولة لكثير من الوالدين في هذا العصر. فالأهل يقر رأيهم منذ حداثة أبنائهم في الغالب، على السبيل التي سيسلكون. فيقولون سنجعل هذا طبيبًا، وذاك محاميًا، والآخر مهندسًا، وأخاه تاجرًا.. إلخ. ولو هم تفحصوا الميول والممكنات لربما وجدوا أن المحامي المزعوم لن يفلح في غير الطب، وأن المهندس خلق للتجارة أو الصحافة وأن الطبيب هيأته الطبيعة لبيع الأثاث القديم في المزاد العلني. وهلم جرا، هذا عدا تعويد الوالد لباسًا وأساليب لا تتفق مع مقدرته المالية، وبث الأطماع الجنونية فيه حيث لا كفاءة ولا حذق يؤهلانه لتحقيق الغايات الكبيرة. كثير من شقاء العالم اليوم راجع لسوء تدبير الأهل. فيصرف الأولاد الأعوام في تلمس السبيل مجهدين نفوسهم في نيل ما ليس لهم، معذبين الآخرين وكل قلق حائر في صراع الأنانيات لتركيز الحظوظ وتنظيم المعيشة.

أما شاعرتنا فقد نعمت بأب يجمع بين الإدراك والمقدرة فسيرها في هذا الاتجاه الذي تطلب نازعة عن الإبرة التي تكره، والمنسج الذي تلقى، حتى إنها لا تذكر تلك الأشغال النسائية إلا بالاستنكاف والاشمئزاز.

هنا ملاحظة صغيرة، لأن هذا القول عن عائشة سيزيد في تعميم الخطأ الشائع وهو أن الفتاة إذا هي أحبت الدرس والعلم، وإذا هي برعت في معرفة أو فن، رغبت عن أشغال المرأة وترجلت. وأنا أقول – وإني لأعلم ماذا أقول – إن هذا إلا مذهب طائش غبين. إني أعرف فتيات ونساء ينهضن من المسرات الأدبية والفنية، بل ومن أعمق وأعوص النظريات الفلسفية، إلى أشغال الإبرة والتفصيل، بل إلى ما دونها من رف ورتق، وتدبير المنزل ومزاولة الطبخ. فيجدن في كل ذلك راحة وسلوى. ويدخلن في تلك الأعمال الوضيعة شيئا من التفنن محولات ما فيها من خشونة إلى ضرب من الكياسة.

كذلك رأي طائش وغبين ذاك القائل أن الاطلاع والعلم "يرجلها". أنها لتتضاعف بالعلم أنثويتها، ومن السخافة أن ينعي على المرأة المتعلمة التأنق والزينة واللطف. حتى إن صورة المرأة "المتعلمة" لتكاد تستحضر لمخيلة الناس عجوزًا دميمة متصلية شرسة. ولماذا؟ أترى الرغبة في تنوير الأذهان والتوق إلى حياة داخلية سامية، يعني الزهد في الدنيا، والانقطاع عن العالم، والانفراد للدرس والتحبير شأن الرهبان في الأديار؟

ثم أليس من الغريب أن الرجل إذا هو برز في الشعر أو الفن أو الفلسفة تأنث بعض الشيء، بمعنى أنه يدق فكره وتصقل عواطفه؟ فكيف تتحور العوامل التي يتأنث بها الرجل فتكون عند المرأة مدعاة للترجل؟

لا أنكر وجود المترجلات بين المتعلمات والسبب أنهن بطبيعتن كذلك، وقد تجد المترجلات بين الجاهلات الغبيات كما تجد بينهن من لا يعنيها أمر بيتها ولا إلمام لها بتطريز أو بتفصيل أو بتنظيم شغلها الشاغل الزينة والثرثرة والانتقال من زيارة إلى زيارة. وقد تكون كذلك دون ترجل، وبالعكس فإن لم تهتم

عائشة بأشغال الإبرة فإنها على غير استعداد طبيعي لها، ولو لم تحب الكتب والكتابة لما زاولت تلك الأشغال، ولو زاولتها ما أتقنتها وذلك لم يقلل من عذوبة أنثويتها الخالصة.

وعلى كل فلنغبطها على الوصول إلى غايتها. ولنصغ إليها تخبرنا باختصار كيف أنها منذ السابعة من عمرها إلى الثالثة عشرة صار دأبها التزام الانزواء، "منكبة على دروسي أجتهد فيها فوق ما كان ينتظر أبي مني غير أن أبي لم يكن يأذن لي بالخروج إلى مجالس الرجال، وتولى بنفسه تعليمي كتب البلاغة الفارسية مثل شاهنامه الفردوسي والمثنوى الشريف، واختصني من ساعتين من وقته في كل ليلة أقرأ فيهما عليه".

هذا الأب الذي يعرف أن يكون أستاذًا وصديقًا معًا جدير بكل شكر وثناء. أنت الشاعر، أنت الأديب أنت الفنان، أليس أنك تذكر من أعوامك الأولى ظرفًا خاصًا، أو مشهدًا جميلا، أو كلمة محمسة، أو وجهًا محبوبًا أهاج بلابلك، ولفتك إلى نفسك، وكأنه وسع فيك أفق نور وفتح في جنانك بركان نار؟ أليس أن لك ساعة تفتق فيها من نبوغك البرعم الأول؟

ولعائشة مثل تلك الساعة ما هو الباعث فيها على الشعر؟ هو الوجه الذي تسفر له المرأة المحجوبة: وجه الطبيعة، حنت الطبيعة ذات ليلة على الشاعرة الصغيرة فتولدت في نفسها الفتية خوالج جديدة ورأت البدر منيرًا والليل جميلا، وكأن لصفحة السماء روحًا تحس وتناجي. دعها تلقي علينا حديث وحيها:

في خلال هذه المدة كنت أنظر في دواوين الشعراء وأعالج النظم بالأوزان السهلة. وفي إحدى الليالي جاءتني مربيتي بباقة ورد وضعتها في مشربيتي. وكانت

الليلة ليلة البدر. ففيما أنا أمتع ناظري بذلك المنظر دعتني أمي إليها فجعلت باقة الورد في أمانة البدر ثم عدت من عند أمي فوجدتها مبددة فأحزنني ذلك كثيرًا.. ووضعت ناصيتي في كفي، وأخذت أفكر فجادت قريحتي بيتين من الشعر الفارسي.

ألا يحبو لك تيقظ العاطفة على هذا النمط؟ أتبصر معي تلك الطاقة النضرة في نور القمر، والبنية تستعطف البدر لأجل ما تحب؟ ثم تعود فتري البدر غافلا، وطاقة الورد مبددة، وتوسلها وأملها هباء.

رمز يا عائشة، رمز إلى ما في الحياة الممتدة أمامك! فلا ما هو موضوع الإعجاب والرجاء ليستجيب، ولا ما هي نضرة الأزهار لتبقي. وإنما الإنسان هو الذي يثق ويبهل ويخيب ويحزن فيؤدي به ذلك إلى تجربة مرة، أو عاطفة جريحة، أو اختبار قاس!

ذاك وحيها الأول وهو منظر مازال غني الوحي لقرائح الشعراء، ومخيلات العاشقين، بل لجميع القلوب الحساسة ولكن لنصغي إلى بقية الحديث.

وعندئذ دخل على أبي فرأى ما بي من الحزن وسألني عن حالي، فأنشدته الشعر وأنا في خجل وحذر وإنما كنت كذلك لأن أبي كان كلما رأي في يدي ديوان شعر يقول لي: "إنك إذا أكثرت من مطالعة الشعر الغزلي فسيكون ذلك سبب زوال كل دروسك من ذاكرتك".

أما الآن فإنه لما سمع شعري أعاد كلامه الأول وزاد عليه قوله إن الشعر إذا لم يكن باللغات الثلاث العربية، والفارسية، والتركية لا تكون له حلاوة. ثم قال لي: إذا أتممت الكتب التي بدأت بها سآتيك بمعلمة تعلمك العروض، وإني

أتوسم فيك السرعة في تعلمه ما دامت عندك هذه الرغبة فأجبته بأني قد حصلت على قليل من معرفة النظم باللغات الثلاث. فطلب مني أن أنظم قطعة من الشعر فقبلت ذيله وانزويت في غرفتي. ففتحت كتاب المثنوي الشريف مستمدة من روحانية ناظمه. وبدأت أنظم على وزن شعر الرباعيات الذي مطلعه: عزم ديدار تودار دجان ما.

نظمت هذا الشعر باللغات الثلاث الفارسية والعربية والتركية، وأنشدته والدها. فضمها إليه وقال:

إن ما فيه من غلطات اللغة وسقطات القافية ستدركينه بنفسك فيما بعد، وإذا بقينا أحياء إلى العام القادم فإنني سأدع الكتب التي أقرئك إياها وأجعلك تبدأين بقراءة متن (الكافية) ولكن لم يحل العام المقبل بعد طول الانتظار حتى تقيدت بقيد الزواج.

بهذه الكلمات القليلة ذات الروح الجديدة في قدمها، تخبرنا عن نفسها إلى حادث الزواج الذي لا تذكره إلا بكلمة واحدة ومن ثم ننتقل في تلك المقدمة إلى الكلام عن ذاتها بعد مرور عشر سنوات على زواجها.. أما أنا، فعند هذه الكلمة الوحيدة التي تغير حياة الفتاة بكليتها، أقف طويلا وأتأمل وكم كنت أود استطلاع ما شعرت به عندما أبلغت أنه تم اختيار ذاك الذي سيكون زوجها أي عواطف جاشت في نفس تلك الشاعرة الصغيرة؟ أي حنان وخوف؟ أي صبابة وإجفال تناوبت على قلب ناظمة القصيدة التي روت لنا الآن حكايتها مع أبيها، فجعلت هذه الأبيات العربية بين الأبيات الأخرى من تركية وفارسية:

يا شهى الذات يا حلو اللما   ضاع عمري في عسى ولعلما

إن عـــددت النـــوح منـــي طالمــا قــد جـرى دمعـي بخـدي عنـدما
إن سقي دمعي الثري لست الملوم مـذ سـقاني العبـد مقـدور الظلـوم
ذقـت حبًـا والهـوى نـار الســموم فاطفـت زفراتـي، بخـلاق السـما
مـــت حرصًــا فيــك إن قربتنـــي ودنـــا أجـــلي إذا أبعـــدتني
إن حـــرمت الأنـــس أو آنســـتني فـــعلى كـــل جـــوابي أينمـــا

هذا ما قالته وهي في الثالثة عشرة قبل أن تطلق لعواطفها العنان وقبل أن "يرخص لها رسميًا" أن تتخذ لنشيدها موضوعًا حيًا فأي الأناشيد تغرد الآن في القلب الصغير إذ ترقب "وجهه" من وراء النافذة وهو داخل؟ وإذ ينقلون إليها أخباره؟ وأن تتصوره فيه اليوم وهو بعيد؟ وإذ تفكر في الغد حين تكون معه؟ ليتها دونت لنا يومياتها في ذلك العهد إذن لتمتعنا بتأثرات بريئة شهية!

ولكن لقد أغفلت الكتب وأسلمت الكراريس للغبار والسكون، ولهت التلميذة المجتهدة بتهيئة الأثواب الجميلة الزاهية والحلي المتألقة الغالية والأيام تحدو الأيام سراعًا في إتمام معدات العرس. ولقد أقبل أخيرًا اليوم العظيم يوم تنفتح السماء فوق المرأة مرسلة إليها قضاء السعادة أو قضاء الشقاء.

وهل هي ذي بطلتنا الآن ليست شاعرة، بل هي عروس شعر في بهجة أعوامها الأربعة عشر، تنجلي على عرش الصبا والرواء والحب. الأمل يزهو على شفتيها، والتأثر يلهب خديها، والرغد يبسم في نظراتها، ويخافون عليها عين السوء في مهرجان الفرح فيذرون فوقها وحواليها حفنات الملح، كما تذر في القاعة حفنات النقود للبائين.

ها هي ذي تسير في موكب العرس إلى بيت عريسها يتقدمها ثلة من البوليس، وأخرى من الفرسان وحملة الشموع والأزهار، والموسيقى الوطنية الشجية بألحان الناي ونقر الطبول تتبعها مركبتها المجللة بنفيس الأقمشة ووراءها خط طويل من مركبات المدعوات. ها هو ذا بيت الفرح تخفق حوله الأعلام المصرية الحمراء، وتلمع بينها عديد المصابيح الملونة.. ها هم وصلوا ووقفت مركبتها.. وقد جاء الخاطب يستقبل عروسه ويقودها بيده إلى مخدعها وسط جلبة المدعوات، وتراكض الخدم والآغاوات، والأصوات والزغاريد الممزقة الهواء.

وبينما هي تبدل أثوابها وتخرج إلى قاعة الفرح لتحضر دورًا آخر من الرقص والغناء يذهب الزوج الفتي "بزفة" إلى الجامع بين أصحابه، لتأدية فريضة الصلاة. ولكن ها هو قد عاد، وجاء يقابل عائشة التي تنزل عن درجات عرشها (كوشا) وتقف مرتعشة مسدولة الخمار في انتظار إتمام الطقس المألوف.. الفتى يجثو للصلاة ثم ينهض ويدنو من الفتاة فيرفع الحجاب وينظر في وجهها للمرة الأولى، ويشبك على صدرها حلية ثمينة فتقبل يده شاكرة ويرد هو على هذه القبلة، بقبلة على جبهتها. ويلقي بحفنة من النقود إلى من بقي حولها من النسوة فيختفين. ويصعد العروسان إلى (الكوشا) فيجلسان في بهجة الفرح وسرور الأهل والأصدقاء وبعد هذه الليلة تستهل حياة جديدة.

وهنا نترك الشاعرة وشأنها تحيا قصيدة ليست هي نظمًا ولا نثرًا.

بعد الزواج

تزوجت عائشة فانتقلت بالزواج إلى عالم جديد له ما يرافقه من حرية ومسئولية، وما يخالطه من مسرات وغموم، ولقد كان يشوقنا أن نقف على وقع

هذا الظرف الخطير في نفسها، وأن نستشف اللون الذي بدت لها الحياة به بعد أن اختلفت في بعض جوهرها عن حياتها في بيت أبيها.

ترى أكان لها من هذا الانتقال مستطاب الأثر أم مستنكف الخبر؟ أكانت به محظوظة أم مغبونة؟

حسن أن نعلم، بفضل "الدر المنثور"، أنها هنا لكنها اقتصرت عن المطالعة وإنشاد الأشعار والتفتت إلى تدبير المنزل وما يلزم له خصوصًا حينما رزقت بالأولاد والبنات". ولكنا مضينا على تخمين ذلك وإن لم نخبر به لأنه أمر طبيعي. أمر طبيعي كذلك أن يسوقها كسواها عباب الحياة اليومية متشابهًا للجميع بمادته، وأن تغاير حتمًا لكل أمرئ بتغاير مزاجه وبتفاعل هذا المزاج والأحوال التي تعالجه ويعالجها أما ما ولده هذا الانتقال في الشاعرة من خوالج، أما نسيج شعورها في تلك الأعوام السحيقة فذاك ما يظل مغلقًا علينا لولا لمحات نسترقها فيما كتبت، ولولا القليل الذي ترضي أن تلقي به إلينا، فتقول:

وبعد انقضاء عشر سنوات كانت الثمرة الأولى من ثمرات فؤادي، وهي توحيدة نفحة نفسي وروح أنسي، قد بلغت التاسعة من عمرها فكنت أتمتع برؤيتها تقضي يومها من الصباح إلى الظهر بين المحابر والأقلام، وتشتغل بقية يومها إلى المساء بأبرتها فتنسج بها بدائع الصنائع فأدعو لها بالتوفيق شاعرة يحزني على ما فرط مني يوم كنت في سنها من النفرة في مثل هذا العمل ولما بلغت ابنتي الثانية عشرة من عمرها عمدت إلى خدمة أمها وأبيها فضلا عن مباشرتها إدارة المنزل ومن فيه من الخدم والأتباع. فتسني لي أن أنصرف إلى زوايا الراحة.

إذا نظرنا إلى توحيدة بعيني أمها وجب أن نسلم بأنها فتاة غير عادية وسيكون لها من محبة ولادتها نصيب فوق نصيب كل من إخوتها وأخواتها، وبسبب توحيدة هذه ستبكي عائشة كثيرًا، كثيرًا.

كان قبل الزواج قد تلقت عن مؤنس أفندي القرآن الشريف والفقه والخط، ودرست على الأستاذ خليل رجائي علم الصرف واللغة الفارسية التي سبق فعلمنا أن والدها تولي متابعة تلقينها إياها قبيل زفافها، مكرسًا لابنته كل يوم ساعتين من وقته. ثم تلت أعوام جاءت في مطلعها توحيدة التي شبت فطنة الذهن، يقظة الفؤاد، فحملت على منكبيها الفتيين تبعة الإدارة المنزلية والتنظيم. فانقلب يشاغل عائشة ذلك الشوق القديم، وعاد إليها بقوة الحب الذي ساير عمرها في الحزن والفرح – حب الدرس والمطالعة:

"حينئذ خطر لي أن أستأنف ما فاتني في صغري من تعلم فن العروض فجئت بمعلمة.. ولكن لم يمض على الروع في الدرس ستة أشهر حتى انتقلت المعلمة إلى رحمة ربها. وكانت بنتي تلازم دروسنا في تلك المدة فاستطاعت – بسبب حداثة سنها وتوقد ذهنها – أن تلم بفن العروض أكثر من إلمامي به".

توحيدة مرة أخرى ترى لماذا تشغف الشاعرة بذكرها، والإشادة باسمها وإظهار محاسنها، ألما تنطوي عليه من توقد وذكاء؟ إلا أنها جاءت العالم وعائشة حديثة السن فكانت الأم لابنتها – فيما كانته – أختًا كبيرة، وكانت البنت لوالدتها أختًا صغيرة؟ إلا أنها رفعت عنها عبء التدبير المنزلي وكانت، في الوقت نفسه، أقرب أولادها إلى تفهم ذوقها وميولها؟ أم لاجتماع هذه الميزات في توحيدة بعد كونها البكر وهي تلك الميزة الأولي التي ذاقت الشاعرة بها لذة الأمومة للمرة الأولى؟

يتعلق بعض الأهل – لاسيما الأمهات – كل التعلق بأبكارهم. ولئن أردف قوم من المدعوين بعلماء النفس الذين لا تطمئن منهم الخواطر إلا إذا أوجدوا لكل سيل جيلا يصدمه – إن هذا التعلق يخف بعد أعوام محدودة يوم يفتح الولد على الشئون عينا ترقب وتبرز من شخصيته الخصائص المستقلة. وأن جماعة من الأمهات يداخل حبهن عندئذ بعض الكره والنكد لأنهن يرين في بناتهن المنافسات والمسابقات. هذا إذا كانت الأم من داعيات التأنق وعاشقات الألاء الاجتماعي في الأندية والحفلات.

لئن قال بعض السادة العلماء ذلك فإن قولهم ينطبق على فئة وتتملص منه أخرى. تتملص منه وتحلق فوقه في جو المحبة والرحمة والدراية تلك الفئة الصالحة من الرجال والنساء المولودين ليكونوا آباء وأمهات لأننا هنا أيضًا نجد المختارين الصميمين و على مقربة منهم يدب الدخلاء ويتحرش المتطفلون والحالة الوالدية كأية حالة طبيعية أو إجتماعية سواها .. إن هي كيفت الأفراد فهي لا تكيف منهم سوى فطرتهم بجلبتها ورغباتها وميولها لذلك لا تبدو بأسني مظاهرها وأبقاها إلا في الشخصيات المهيأة لها.

وعائشة مهيأة لذلك على ما نري من ولعها بتوحيدة.. توحيدة الآلة القادرة التي تتحول بواسطتها رواكد العاطفة الوالدية عند الشاعرة تيارًا دافقًا فهي تحب منها المواهب والحسنات وتخلق للعيوب الهزيلة تفسيرًا لا يهتدي إليه ويترجمه بهذا اللطف، إلا من إستنار بنور الحنان.

هاك مثال لذلك:

الفتاة التي كانت تقوم بإدارة المنزل ورقابة وضيع أعماله الداخلية كانت، على ما يلوح، لا تقصر دون إتقان أعمال أخري تقتضي بعض اللياقة، كاستقبال الزائرات والاحتفاء بهن.

فجاءت يومًا بعض السيدات (ويظهر أن الغرض من زيارتهن أن يخطبنها، وهي تجهل ذلك) فخفت توحيدة ترحب بهن ريثما تأتي والدتها، وقالت ملاطفة بموجب الطقس المألوف "أوحشتونا" إلا أنها كان بلسانها لثغة خفيفة قضت بأن تجيء أوحشتونا "أوحستونا" وهنا دخلت السيدة عائشة فسمعت الكلمة التي حرفها العيب اللفظي، فمضت تشرح ذلك العيب على هذه الصورة:

قال العوازل مذ قالت مؤانسة — "أوحستنا" إنها تجفوا وذاك غلط
لم يبدل الشين سينا لفظها غلطا — بل لم يسع ثغرها الزاهي ثلاث نقط

ومرت على الشاعرة فترة – تقول زينب فواز – فقدت خلالها والدها (سنة١٨٨٢) ثم زوجها بعد ثلاثة أعوام وصارت حاكمة نفسها فأحضرت لها اثنتين لهما إلمام بالنحو والعروض إحداهما تدعى فاطمة الأزهرية والثانية ستيتة الطبلاوية وصارت تأخذ عليهما النحو والعروض حتى برعت وأتقنت بحوره وأحسنت الشعر وصارت تنشد القصائد المطولة والأزجال المتنوعة.

يجوز الاعتراض هنا بأن عائشة نظمت كثيرًا قبل تعلم النحو والعروض على هاتين السيدتين. فقد طالعنا في ديوانها مثلا قصائد الترحيب بميلاد أخيها، وتأبين والدها وغير ذلك، وجميعه وقع قبل أن تبرع في الشعر وتتقن بحوره، ومن هنا نستنتج أن استفادتها من قليل الدروس السابقة كانت غير هزيلة.

ولكن، أليس أن ضوابط النظم تتعلق بالموسيقى السمعية أكثر منها بالقواعد المدونة؟ والواقع أن هذه القواعد لم تكن إلا تقريرًا محسوسًا لتلك المطالب الدقيقة التي تجهر بها حاسة السمع، فتلبيها أفراد الطائفة الواحدة كل من جانبه على غير تعاهد من الآخرين. حتى إذا أجمع كثيرون على أمر واحد عرفوا أنه حاجة أولية فعرفوه بيانًا، ودونوه قاعدة، ترجع إلى حكمها الأجيال من هذه الطائفة لا لأنها "حكم" بل لأن هذا الحكم يترجم عن الحاجة النفسية التي نشدتها حواس الشعراء في الماضي وستنشدها على الدوام، لذلك نرى أن شعراء جميع البلدان في جميع العصور أوجدوا في مختلف اللغات – غير متحالفين فيما بينهم وجاهلين بعضهم بعضًا – بحورًا للشعر وأوزانًا وضوابط موسيقية ذات وقع لفظي في النفس (حتى لمن لا يفهم اللغة) بينما المعنى الشعري يحبو النفس دون المبالاة بالجوهر، طوارئ تداهم اللغات تبعًا لحالات الأقوام ووفقًا لنواميس الاجتماع، إلا أنها لا تنقص من الشعر دعامته الموسيقية المؤثرة.

كذلك قد يعترض بعض أهل الذوق اعتراضًا خافتًا على أن معلمة العروض تدعى.. الطبلاوية، قائلين إنه على التي تعلم الأوزان الشعرية أن تنتحل لها اسما يتفق مع عملها ويوحيه للسامع. ولكن أليس للطبل من موسيقى؟ وإن لم يكن للطبل شدو اللحن والنغم، أليس أن له موسيقى الفصل والوقع والتعريف؟ والسيدة الطبلاوية لم تكن تلقن الشعر، وهو ليس بما يتلقن، بل تعلم كيفية التمييز بين اتزانه وانكساره فاسمها بهذا متضمن لعلمها وعملها.

وسواء رضي أهل الذوق لهذا الشرح أم لم يرضوا فليذكروا أنه أمر فائق أن يوجد بين السيدات الشرقيات من يستطعن في ذلك العهد المظلم للنساء أن يدرسن هذه الدروس في حين أن من يستطعن اليوم نادرات بيننا وقليلات عند

الشعوب الأخرى. أذكر أن كاتبًا فرنسويًا كبيرًا (أظن ألفرد كابس **Alfred Capus**) ندد قبيل الحرب الأولى في مجلة "فمينا" بالسيدات الفرنسيات لأنهن، بعد إحصاء فئة من المتعلمات بينهن. ظهر أن العارفات بقواعد النظم وأصول البحور الشعرية، يكدن لا يبلغن الخمس في المائة. فما أعظم فضل تينك السيدتين الأزهرية والأخرى، ولو كانت الطبلاوية، بما كانتا تعرفان، وبأنهما أضافتا إلى مصباح عائشة زيتًا يعين على تغذية نوره!

بيد أن تمتع الشاعرة بالابنة المحبوبة لن يطول. قدر على توحيدة أن تموت باكرًا في ربيع الصبا. علة مجهولة ترقبها وتنفث في جسدها وهي تكتم أمرها رفقًا بالتي تحبها. وها هي تسرد لنا طرفًا من حديثها المحزن:

قبل أن تنطرح على فراش المرض فاجأتها في أحد الأوقات وهي في رداء نومها وبين أناملها قلم تكتب به القطعة العربية الآتية:

اســـمع مقـــالي يـــا أريـــب	وقصـــتي شـــرح مريـــب
قـــد كنـــت فـــي دوح الصـــبي	أهتـــز كالغصـــن الرطيـــب
أصـــبحت حـــالي عـــبرة	يبكـــي علـــى مثلـــي الغريـــب
كـــلا، ولا لـــي منـــهل	أروى بـــه إلا النحيـــب
فالـــدمع منـــي ســـاجم	والـــرمس أضـــحي لـــي قريـــب
يـــا ربـــي عجـــل رحلتـــي	واغفـــر ذنـــوبي بالحبيـــب

فلما رأتني مقبلة عليها دست رقعة الشعر تحت وسادتها بسرعة ولكني بادرت في الحال لاستخراجها فاختطفتها مني، ثم خاطبتني قائلة: "لا تعبئي يا أمي المشفقة بمثل هذه الثرثرة" ثم قالت لجاريتها: "خذي هذه الورقة فاحرقيها"

فلحقت بالجارية وأخذت الورقة منها وألححت عليها بالسؤال فأجابتني: "إن سيدتي تتناول الطعام معك إذعانا لرأفة أمومتك، ولكن الطعام لا يبقى بعد ذلك لحظة في جوفها وهي تذهب كل ليلة إلى سرير نومها تطمينًا لقلبك غير أنها لا يغمض لها جفن" إن نحن وجدنا هنا دليلا جديدًا على لطافة توحيدة وحرصها على راحة والدتها، فلا يسعنا إلا التعجب كيف أن الأم شديدة الحب لم تلمح على وجه ابنتها إمارات المرض. نتعجب – لولا الاستدراك بأن التي ترى أن ثغر توحيدة الزاهي لا يسع ثلاث نقط فيقلب الشين سينًا قد تعثر بسرعة على عذر شعري يكتفي به قلبها لكل تغير وكل شحوب.

أما وقد ثبت أن الفتاة مريضة حتى لترثي نفسها، فهاتوا الأطباء، وهاتوا العلاجات، وبالغوا في الاعتناء والمداراة! إلا أن المقدور نافذ لا محالة. والمريضة تعلن ذلك وتلقي على والدتها كلمات التعزية والتشجيع إنها أقبلت على عالم السر والرهبة فاستمدت منه الحكمة التي تهبط على كل من حاذاه واستلهمت الغيب إرشادًا للمتخلفين فقامت، وهي الصغيرة وهم الكبار، تعظهم بسطوة الراحل وحقه في النصح والتوديع الهادئ.

"عبثًا تدفعك الشفقة يا أماه إلى معالجة أمراضي فإنه قد آن الأوان ولا مناص من تلبية نداء المنادي كل من عليها فان وإني أضرع إلى اللّه أن يلهمك صبر أيوب وأن يمنحني نعمة رضاك فيكون ذلك سبب الرحمة والتجاوز عن سيئاتي، وأن يصون شقيقتي وإخوتي".

ثم ضمتني إلى صدرها فاعتنقنا وبتنا ليلتنا إلى الصباح في بكاء وانتحاب ونواح.

قضت توحيدة، فأقامت لها الأم مناحة دامت سبعة أعوام متوالية، فأضعف البكاء نظرها وأصابها الرمد. "وهنالك كثرت لواحيها وعواذلها من أولادها وصويحباتها". "وأخيرًا سمعت قول الناصحين وقللت شيئا فشيئًا من البكاء والنوح حتى شفاها اللّه من مرض العيون وهذا خبر ذلك الشفاء من قلمها:

"أصبح جسمي العيف كأنه فاقد الحياة لكثرة أتعابي، ثم أنعم الله على بالشفاء وأشرقت ظلمات كآبتي بنور وجود ابني محمود فكان فرحة بيت الحزن.

يخيل أن هذا الفتي محمود شب على شيء من ميول توحيدة، وكأنه قد صمم على أن يقوم ببعض ما كانت تقوم به أخته الكبرى، ليفوز بتعزية والدته ويربح محبتها الخاصة. ويظهر أنه نجح لأنه هو "فرحة بيت الحزن" الذي شرع ينصح ويؤاسي ويذكر الأم الحزينة بالآية الكريمة: "وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون". وهو الذي طلب أشعارها العربية ليجمعها، وأشعارها التركية ليطبعها فتكون "أثرًا من آثار براعتك وفصاحتك" فقالت:

في استطاعتي أن أنظم الآن شيئا من الشعر شكرًا لله تعالي على ما وهبني من أنعم أما أشعاري الماضية فكنت قد أحرقتها كلها، ولا أظن أن في مكتبتي إلا الشيء اليسير منها بالعربية والتركية. وأما أشعاري الفارسية فإنها لما كانت في محفظة فقيدتي فقد أحرقتها بمحفظتها كما احترق كبدي".

"إن أمك يا بني لم تبق عندها الآن رغبة في قراءة شيء من كتب الأدب"، "وسأنصرف إلى الانكباب على تفسير القرآن ومطالعة الحديث النبوي وإني

وهبتك ما عندي من الكتب والأوراق فاصنع بها ما شئت" وإذا رأيت فيها جدارة بالطبع فاطبعها.

وكان ميل محمود شديدًا وكل ابن لأم ذكية يدرك ذلك، إلى إظهار فضل والدته بصورة عامة.. فنشر الكتب وكان له بذلك علينا حق الامتنان.

في عنوان هذا الفصل بعد الزواج شبه وعد بشرح أحوال غير معروفة وتبيين دقائق غامضة. وها أنا لم آت إلا ببعض الخطوط الكبرى التي استطعت تناولها. بيد أن الشرح لا ينتهي بانتهاء هذه الصحيفة. وعندما ننظر في شعر عائشة ونثرها وآرائها نظل مماشين تسلسل الأيام والأعوام في حياتها لأن كل ما لدينا منه دونته إلا القليل بعد الزواج. يخيل أن آجال الأفراد عمومًا تخضع لمقدرين أكبرين اثنين: أحدهما مداومة السير واستمرار التتابع ضمن حدود طبيعية وفي دائرة قوانين محتومة والمقدر الآخر هو أن يعمل المرء طوال حياته – مع بعض التغيير في أنواع العمل بمقتضى الأطوار المختلفة – باختيار مسير – إن صح الجمع بين هذين النقيضين. وكأن العمل ينجز هو الآخر ضمن حدود ضربت له وفي دائرة قوانين لا يحرقها إلا مستهترًا مفسدًا على نفسه إمكان المعيشة.

جداول تجري أعمار الأفراد نحو ما وراء الموت مما لا يحد ولا يدرك. جداول يسيطر عليها ذاك المقدران الشاملان في المرض والعافية، في الفرح والترح، في الأمل والقنوط، في الرغبة والاشتياق، في المحبة والكراهة. والأصوات المختلفة المتصاعدة بتأثير هذه العوامل تكون شدو الجداول البشرية – ذلك الشدو المطرب المشجي. وهذا الجدول من عمر عائشة هو الذي سنسمعه شاديًا فيما يلي بإبهام كل خرير، ولذة كل قديم، وتبشير كل رائد.

الفصل الرابع

بيئة الشاعرة

بيئتها الاجتماعية

ترى هل الحاضر إلا خلاصة ما أنمته الحياة واستهلكته من المطالب والجهود؟ وما البيئة إن لم تكن تلك "الخلاصة" منظمة بيد الإنسان وبمشورته أو منتظمة بحكم الأحوال والاسترسال؟ وهل اليوم إلا الماضي لغد؟ وهل يكون الغد إلا ماضيا لبعد غد؟

إن كل صباح وكل مساء يأتيان بمجهودهما وخبرتهما ليضيفاهما إلى ذخيرة الماضي الفسيح، وكل خيط من خيوط الزمان ينسج نسيجه في رحاب ما يمر ويتجمع ويبقى. وعندما ننتقل من بيئة إلى بيئة، ومن مكان إلى مكان، ومن آن إلى آن، لن نجد أمامنا إلا صورًا مختلفة من صور الماضي الحي في كل حاضر وفي كل مستقبل.

فإذا ما ولد الطفل تلقته دائرة من دوائر الماضي التي تدعي "البيئة"، فوجد فيها بداهة ما يقوم بحاجته لأنه هو كذلك صورة أخرى من تجمع الماضي فلا غرو أن يقوم كل نوع بنوعه ولا غرو أن تحتشد أسرار الحياة وتوجز في البيئة التي هي صورة مصغرة من العالم. ولا غرو أن تكون ممثلة المعالم وللحياة في أغداق نعمها ومواهبها بلا سبب على بعض أسرارها، وتكون لآخرين أقسى مثال للجور والتعسف والحرمان.

وليست البيئة من خصائص الإنسان. بل للجماد، والحيوان والنبات بيئتها الموافقة لنموها، الملائمة لطبيعتها إلا أن الإنسان قد يكون في بيئته الحسية يقوم بكل فرائض مرتبته الاجتماعية ومطالبها ويعد فيها من السعداء أو من البؤساء، ويظل في داخله شاعرًا بشعور غير هذا الذي يحسبه الناس عليه، ويرتبونه بموجبه. قد يكون جائعًا وهو يقيم الولائم، سائرًا في القفار وهو يتخطر في الحدائق، مستعطيًا متسول الفكر والعاطفة وهو كثير الفضل والمنح، وعلى نقيض ذلك قد يشعر بأجنحة الحرية تصطفق في نفسه وهو مكبل بالقيود والأصفاد. وقد يلمس مكمن مقدرته وهو في أدنى دركات العجز وقد يتضح في وجدانه أ على نهج للمعرفة والحكمة وهو أمي جاهل لا يدري، بموجب تعريف البشر، الفرق بين اللغة والفن ولا ماذا يميز بين الموسيقى والكيمياء.

البيئة الاجتماعية هي دائرة الإنسان الاجتماعي إلا أنها لا يأبه لها الإنسان الخفي في الإنسان، الذي كثيرًا ما يحتاج إلى بيئة غير هذه ويختار أقاربه وعشراءه وأحبابه مختلفين تمام الاختلاف عن الذين تجعلهم البيئة والحياة أقاربه وعشراءه وأحبابه. وفي هذه البيئة المعنوية صورة أخرى من الماضي الباقي. ولكم أتمت الحياة نفسها بحصر هذه المناقضات في شخص واحد! ولكم خلق الماضي لنفسه مستقبلا جميلا من لهف الحرمان، وزفرات الأسى، وتجمد الدماء التي لا تسيل! وعائشة ابنة ذلك السري الوجيه والموظف الكبير الذي بعد تقلب المناصب أيام عباس الأول وسعيد إسماعيل، انتهى بأن يكون رئيسا للديوان الخديوي.. عائشة لم تفارق مرتبتها الاجتماعية بزواجها من محمد بك توفيق نجل محمد بك الاستامبولي الذي كان حاكمًا في السودان. ظلت في تلك المرتبة تتمتع بما هيأت لها بيئتها من رغد حسي، وتعاشر مثيلاتها من نساء العظماء والكبراء.

ولقد ذكرت عرضًا في أواخر كتابها "نتائج الأحوال" شيئًا عن اختلاطها بالبلاط، وذلك لشرح كلمة "واي واي أي غوث وأنا أرى شيذرتوانا، التي تقولها الأعاجم حين ما ترمي بهول بهول فجأة قالت:

كانت تدعوني ربة المعالي وكنز اللآلئ والدة صاحب السمو إسماعيل باشا الخديوي السابق تغمدها اللّه برحمته ومنحها فسيح جناته – بالقصر العالي للترجمة عند حضور أقارب ملوك العجم. فكنت أسمع هذه اللفظة من أفواههن. وهي كلمة تقال عند مفاجأتهن بشيء ما. وكنت أقيم معهن على قدر إقامتهن وأتسامر معهن وأستفسر عن عوائدهن وأخلاقهن".

في هذه الأوساط تجد ما ألفته من كياسة وتهيب، وما أحسنته من آداب المحادثة والمجاملة واللطف على أن أولئك السيدات لا يعنين بغير الشئون المعتادة في العائلة والاجتماع وما أفعمت به من مسرات وأحزان، أما عائشة فشأنها شأن العاشق الذي تبدو له جميع محافل الأنس والطرب مقفرة لتغيب الحبيب عنها.

في تلك المرتبة الرفيعة فخامة الصروح، وضخامة الألقاب، وأبهة المظاهر، لكنها يعوزها القوت، ويعوزها السرور، وتعوزها الحرية إنها تتوق إلى الاختلاط بالذين يعرفون ما تعرف، ويفكرون بما تفكر، ويحبون ما تحب في الخارج.. حركة التطور تجري مجراها الطبيعي، وإن وثبت حينًا، وتريثت حينًا وفي الأفكار غليان، وفي الحماسة فتوة، وفي القلوب أشواق. ولا تخلو المدينة من دوائر علمية يتحاضر فيها أهل الفضل على طريقة العصر، ويتناقش فيها الأدباء كأنهم في وفاقهم وفي اختلافهم أعضاء الأسرة الواحدة، ولكن عائشة المعنوية إن هي

تجاوزت نساء عصرها بالمعرفة والفهم، وسبقتهن باقتحام عواطفها وتقدم مطالبها، نساء عائشة الاجتماعية تظل مخدرة محجوبة.

صدمتها الحياة للمرة الأولى في النضال مع والدتها بين الكتاب والإبرة. فأيدها الوالد الحصيف وسيرها إلى ما تريد وجرت خطوات في فرجة الأعوام فإذا بصدمة أشد وأصلب، صدمة العادة والتقليد هذه لن يحميها منها الوالد القادر ولن تخرج عليها نفسها القلقة. أخبرني كيف تثور على جماعتها امرأة هي ابنة رجل معروف وأم أولاد محبوبين، وليس بين جماعتها صوت ينكر تلك العادة ويدعو إلى تغيير ذلك التقليد؟ يومئذ كان قاسم حدثًا، ولعله كان من دعاة الحجاب. ولعلها هي كذلك لم تفكر في وجوب السفور بل عمدت إلى تلك العلامة الأخرى من علامات النبوغ ورضيت بها: الاحتمال حيث لا منفذ غيره.

امتثلت واحتملت، ولكن حتى للاحتمال والامتثال ساعات لا مندوحة للمرء فيها عن أن ينفس كربته، ويندب حسرته، ويرسل ما هو أشبه ببثة السجين المظلوم. فقالت إنها دعتها:

"الرأفة بكل مغبون لقي ما لقيت ودهي بما به دهيت، إلى أن أبدع له أحدوثة تسليه عن أشجانه عند تزاحم الزفكار، وتلهبه عن أحزانه في غربة الوحدة التي هي أشد من غربة الديار.

هذه الكلمة تكفي لنشعر مع عائشة بوحدتها المضاعفة. وهذه الكلمة وهي لوحة تصويرية تامة، تدهش عند امرأة سبقتنا بثلاثة أرباع القرن. وغريب أن تهتدي يومئذ إلى حقيقة تلك "الوحدة" وأن تعبر عنها، وهي ابنة عصر التطويل والتبسط، بهذا الإيجاز البليغ.

وكأنها مرة أخرى تجد بعض الراحة في شرح ألمها بشكل الاعتذار المجلل بالسجع والتورية:

"لم يمكن لي دخول محافل العلماء المتفقهين".. "فكم التهب صدري بنار شوق إلى محافلهم اليوانع، وأدر جفني على حرماني من اجتناء ثمرات فوائدهم در المدامع وقد عاقني عن الفوز بهذا الأمل حجاب خيمة الأزار، وحجبني قفل خدر التأنيث عن سناء تلك الأقمار. وأحلاني يسجن الجهل حليف أثقال وأزار. فكانت تلك الحجب لمن لام في هفوات هذا المسطور أكبر أعذار. فلا تلوموا معشر الأفاضل خيبة، ولا تعبثوا بسجينة شجية.

وخصوصًا.. لا تلوموا معشر القراء في هذا العصر كاتبة مسجعة لأنكم لو رجعتم إلى ما كتبه بعض "كبار" الناثرين في عهد الخديويين لعثرتم على ما ليس فيه شيء من أحكام عائشة ولا ذرة من صدق عواطفها. ولي من هذا البيان معارض لما جاء في جريدة "الأفكار" الصادرة يوم ١٣ مارس١٩٢٣ ، استهلالا لمقال عن الصالونات الأدبية في فرنسا وإنجلترا وألمانيا وعلاقة الآداب في تلك البلاد بالدوائر النسائية الفكرية. قالت "الأفكار":

"كنا نريد أن نكتب شيئا عن السيدة عائشة تيمور باعتبار أن تاريخ حياتها يفيض بالنور على الحركة الأدبية الفكرية في مصر في عهد إسماعيل وتوفيق ولقد أجهدنا أنفسنا على غير طائل وراء الحصول على وصف ولو مجمل أو غير دقيق للدائرة الأدبية التي ظلت سنين عديدة تجتمع بلا انقطاع في منزلها (بدرب سعادة)، لكننا سنتكلم عن سيدة إنجليزية (ليديا وايت) تشبه السيدة عائشة تيمور من حيث جعل منزلها ملتقى كبار الكتاب والشعراء في عصرها".

من أين جاء كاتب هذه الفقرة بمعلوماته؟ أهو استند إلى قولة عائشة: صرت أتهافت على حضور محافل الكتاب بدون ارتباك فأجد صرير القلم في القرطاس أشهى نغمة، وأتحقق أن اللحاق بهذه الطائفة أو في نعمة".. وهي تعني بذلك أيام اختلافها ووالدتها في حداثتها القصوي قبل أن تتحجب؟ أم هو رأي ما قد يشير إلى ذلك في القصائد العربية والتركية التي رثت بها بعض العلماء؟ أم لديه دليل آخر؟

حاولت الاستفسار عن ذلك من المسيطرين على "الأفكار" في ذلك الحين، فلم أظفر بالجواب الشافي. وتيمور باشا الذي قال حينئذ إن شقيقته كانت "محجوبة" أجاب عن السؤال الجديد بقوله إنه يظن "أن ذلك لم يحصل".

أسافرة كانت عائشة – أحيانًا – أم محجوبة دوامًا؟ نقطة في غاية الأهمية ولكن يتعذر جلاؤها، خصوصًا بسبب تباين السن تباينًا كبيرًا بين تيمور باشا وشقيقته. فإذا جاء يوما من يثبت بالحجة الناصعة سفور عائشة في تلك المحافل الكريمة سجل للشاعرة فضلا جديدًا وشجاعة فائقة، وأظهر أنها بشير التحرر النسوي ليس الوجه النظري والعلمي فحسب، بل بالعمل، كذلك لأنها تكون قد حققت قاسمًا قبل أن يتكلم قاسم.

أمَا وأندية الرجال ليست، في الظاهر، لشاعرتنا فلنتحول إلى اللاتي قد تتفاهم معهن من النساء. وفي مقدمتهن "ربة الأدب الباهر والقدر الشريف السيدة وردة بنت الفاضل الشيخ اليازجي نصيف فإن عائشة لتتمثل بها وتذكرها بإعجاب في ديباجة "حلية الطراز"، وأهدت إليها نسخة من ديوانها بعد صدوره فشكرتها "وردة العرب" نثرًا ونظمًا، وأعقب هذه الصلة الأولى تبادل بعض الرسائل أثبتتها زينب فواز في كتابها "الدر المنثور". لن تجد في تلك المراسلة

كل الحياة التي يودعها بعض الأدباء في رسالتهم حتى ليتغذي بها أصحابهم أيامًا وأسابيع، ويتعشقونها كأنها قطع من أرواحهم بيد أنك ستجد سبك الكلام اللطيف، والثناء المأنوس، والنظم الحلو الرنان الذي يرضيك ويجعلك شاكرًا لهاتين السيدتين ما أبرزتا لك من أسلوب المجاملة النسائية الكتابية في ذلك العصر.

وهناك سيدتان قيل لي إنهما كانتا تقولان الشعر وهما ابنتا حبيب أفندي الكتخدا، ومن عشيرات الشاعرة. لم أوفق إلى شيء من آثارهما وقد قل من سمع بآدابهما بين المصريين. حتى إني قيل لي مرة عند ذكرهما إني أبتدع شعرهما في مخيلتي على نحو ما فعل زفس بابنته بالاس – أثينا التي أخرجها من رأسه تامة الجمال والكمال. لا شيء من ذلك بل قال لي أحد الفضلاء إنه قرأ لإحداهما أبياتًا جيدة.

ومن معاصراتها الست المغربية والبون بينها وبين عائشة شاسع جدًا حالة ومعرفة إلا أنها كانت امرأة ذكية، سريعة الخاطر، تمازح الناس بشيء من الجرأة المتطرفة، وتتطارح الأزجال مع الشيخ على الليثي، ومن المأثور عنها من دلائل سرعة الخاطر أنه اتصل بها يومًا وأخبرها بأن أحد الباشوات كان يرميها بما هو غير حسن وغير ممدوح، فأجابت المغربية باتسامة ذات معنى خطير: "والله كلام سعادة الباشا في محله".

كذلك نعرف زينب فواز سورية المولد مصرية الموطن، منشئة "الرسائل الزينبية" فضلا عن فصولها الأخرى وقصائدها وهي التي عقدت في كتابها "الدر المنثور" في طبقات ربات الخدور" فصلا مطولا عن شاعرة آل تيمور. وصدرت

الكتاب المذكور بخطاب من السيدة عائشة مثقل بالثناء والتبجيل من نحو ما كانوا يثنون يومئذ ويبجلون.

ويحدثنا "المقتطف" في عدد يونيه ١٨٩٧عن السيدة ليلي هانم "كريم المرحوم خليل باشا شريف من وزراء الدولة العليا، وأخي المرحوم على باشا شريف رئيس مجلس شوري القوانين السابق "فيقول إن هذه السيدة تكتب بالإنجليزية مقالات تنشر في أشهر المجلات"، وأنها كتبت رواية غرامية اسمها **A Turkish Love StorY** ترجمها محرر "المقتطف"، ونشرها متتابعة في المجلد السادس والعشرين سنة ١٩٠١ باسم "رواية أمينة".

قرأت هذه الرواية بثوبها العربي بكل سرور في العام الماضي. ولا شك عندي أن الوصف فيها لحريم الاستانة يومئذ أصدق من كل ما كتبه الإفرنج في هذا الباب.

وليست لتقصر يقظة المرأة على الكاتبات والأديبات بل للمهتمات بالشئون العمومية عن غير طريق القلم أثر قيم، لذلك يتتسع المجال هنا لذكر المغفور لها البرنسس عين الحياة، الزوجة الأولى للسلطان حسين (يوم كان أميرًا)، ووالدة البرنس كمال الدين حسين. فإنها كانت معروفة بالمقدرة والفطانة وحب السعي الحميد. ومن مآثرها خطيرة الشأن "مبرة محمد علي" أول جمعية خيرية للسيدات المسلمات، بيد أنها لم تشهد نتيجة ما دعت إليه، ولم يتم إنشاء المستوصف الأول الذي أطلق عليه اسمها ومازال معروفًا به "مستوصف عين الحياة" إلا بعد وفاتها في أوائل ١٩١١، أما الغرض الذي عينته لنفسها هذه الجمعية فهو "العمل جهد الطاقة.

أولا: لتقليل عدد الوفيات الجسيم من الصغار في القطر المصري.

ثانيًا: لتقليل عدد وفيات الأمهات الناجمة عن حميات النفاس".

وماذا أقول عن البرنسس نازلي الملتهبة ذكاء، البارعة في الموسيقى وفي اللغات التي عرفتها، الخارجة على عادات زمنها بمقابلة من شاءت من أفاضل الرجال والتدخل في مختلف الشئون العالمية والحوادث الوطنية، ولقد نشر المرحوم ولي الدين يكن في كتابه "المعلوم والمجهول" صورة خطاب أرسلته إلى عبد الحميد في أيام بطشه وجبروته وحسب القارئ الاطلاع على هذا الخطاب ليعرف ما كانت عليه من الجرأة والذكاء والنزعة الاستقلالية. قالت تخاطب صاحب الجلالة اليلدزية الرهيبة:

القاهرة في ٢٢ أكتوبر سنة ١٨٩٦ مليكي

قرأت مع الأسف الشديد في جرائد أوروبا التي وردت في هذا الأسبوع أن مولاي الأعظم غاضب على غضبًا شديدًا. وعلمت أن السبب في غضبه حضوري مؤتمر "تركيا الفتاة" الذي عقد بباريس. ولهذا أرجو الإذن لي ببيان ما يدور بخلدي في هذا الباب:

إن استهدافي للغضب الملوكي ليس بالأمر الحادث. ولكنه مستمر منذ أربع سنوات وإذا وجب أن يميز من حل بهم ذاك الغضب سهل تعيين الفئة التي ينبغي أن أحشد في عدادها غير أن حضوري مذكرات هذا المؤتمر ليس تذرعًا للشهرة فهو إذن منزه عن كل غرض ذاتي.

يذكر مولاي الأعظم أنه قال ذات يوم للمرحوم خليل باشا شريف: "إني مغرم بكلمة الحق" ولقد بشرني المرحوم بهذه البشارة الملكية وتعاهدنا كلانا منذ ذلك ألا نحيد عن كلمة الحق.

قرأت ما ينشره هذا المؤتمر منذ زمن مديد واطلعت على اللوائح التي رفعها إلى الأعتاب الشاهانية. ولما كانت هذه المنشورات بمثابة كلمة حق في وصف الدمار الذي باتت فيه الممالك المحروسة الشاهانية، رأيت أن أحضر مذكراته عند نزولي بباريس.

فشهدت من الجميع منتهى الود والولاء للمقام الملوكي وللوطن والأمة. ورأيت الجميع باكين لحال الوطن الذي بات على شفاء الفناء. فهاجني ذلك وتذكرت أن مولاي كان مغرمًا بكلمة الحق، فظننت وأسفاه أنه ربما تسلي عن ذلك الغرام. ولكن هز فؤادي ما عاهدت الله عليه وأيقنت أن العشق يزول والعهد يبقى.

ولما زرت الأستانة منذ أربع سنوات أوصاني بعض المقربين بأن أرفع إلى مولاي عريضة أستقيل بها من هفواتي ولما لم يكن لي علم بهفوة سبقت لي لم أقدم على هذا الأمر فقد تغيرت سياسة مولاي مع الإنجليز. وذهب الرضاء الذي كان قد توسط لي في نيله المرحوم السيز هنري لا يرد: وأني لأتلقى بكل ارتياح توسط الإنجليز في إحراز رضاء مليكي، بل أشكر اليوم ما أصابني من الغضب الملوكي. وإن في بعدي عن مشاهدة ما وقع بالاستانة من الزلازل وما نزل بالرعية من الفقر، وما جرى من دماء المظلومين الذين ذبحوا كما تذبح الأضحية، وعن سماع استغاثات المظلومين وتأوهاتهم ما يسليني، وما أحمد الله على بعدي عنه

وسأستمر على العمل بنص الأمر الملوكي الذي بلغته الحكومة المصرية غير رسمي – مادامت لي الحياة.

على أني لا أبرح داعية بطول عمر مولاي وبقاء دولته ولا أبرح داعية بأن يعود له سالف غرامه بكلمة لاحق فإذا قدر الإله ليزولن بؤس اليوم كما تزول الرؤيا المفزعة. فيصبح سعيدًا مهنا ويلقي رعيته في رغد بالاتحاد والحرية فإن رعيته لا تريد منه إلا أن يكون أبًا مشفقًا.

ولعلى تجاوزت الحد وأسأت البيان فلست أدري مبلغ وقع ما أتشرف بعرضه فليثق مولاي أن كلام أصدق عبيده في زماننا هذا لا يختلف عما جرى به قلمي وليوقن مولاي أن ورقتي لم تسطر إلا بخالص النية وصادق الولاء.

خادمتك نازلي

بنت المرحوم مصطفى فاضل باشا المصري

يجب لتعلم قيمة هذه الرسالة أن تعلم من هو عبد الحميد وكيف كان ينتقم من مناهضيه في أية بقعة كانوا من الأرض فكيف بهم في مصر ومن أعضاء الأسرة المالكة.

قد تفوتني أسماء أخرى معروفة وقد يكون ثمة سيدات كثيرات ذكيات قديرات من اللاتي يدمجن في "الطراز القديم"، وقد يدهشن العالم والمحنك بأسلوب إدارة بيوتهن وأعمالهن وأملاكهن لوفرة ما يبدين من الخبرة والدراية – حتى لو كن أميات. ولكن أيكون لمثل عائشة من مثيلاتها بيئة معنوية؟

الفصل الخامس

بيئتها المعنوية

لم يكن للشاعرة من بيئتها الاجتماعية البيئة المعنوية المطلوبة. ولا أظنها نعمت من ذلك العصر بما نحن اليوم نفتقر إليه.

ما سمعت آيبًا يذكر أهمية المحيط ومبلغ تأثيره إلا سمعت منه الشكوى، ما حدثني مطلع على شئون الشبان العائدين من أوروبا إلا قال إنهم بعيد وصولهم يشعرون بنقص علمي عظيم حولهم، ولا يلبثون أن يفهموا أنهم عائشون في وحدة فكرية وفنية بعيدًا عن تواصل الحركة الذهنية في العالم، ولا يعرف مرارة تلك الوحدة وصقيعها إلا الذي أرغم على تقطيع الأعوام والأعوام تبليه في انفراد ووحشة لا يعرفها إلا الذي صرف الأيام والليالي جائعًا عطشًا وهو يعلم أنه في قفر لن ينبت له في القريب العاجل قوتًا ولن تفجر له منه المفاوز منهلا.

حال محزنة حال التائق إلى ما يعلو على العيشة ملامسة الثرى. حال محزنة حال الأديب الصميم في عصرنا والمتأدب إنه سرعا ما يتصدى له من يناقض ويعاكس ويتمطى ليقدم له ويؤخر، ويفصل في قماشه ويخيط، وسرعان ما ينبري له وللعالمين من يقدح ويهجو لسبب أو لغير سبب، أو لسبب جدير بالتقدير وسرعان ما يسمع المدح المائع المتهدل لا اعترافًا بالأهلية، بل عن هوس أو حمق أو لغاية وقد يجد من يمتدح بإخلاث، ولكن ببلاهة فيجعل الذبابة فوق

النسر، أو يسيرهما في فلك واحدا لأنهما يطيران وكلاهما من "ذوات الأجنحة". أما تجانس الخواطر ، وحب الآداب، وسعة الإدراك في تحليل الأشياء وتقديرها والأحكام في وضعها وتربيتها والغوص في المعاني الواسعة، وفهم مناحي الحياة والعناية بخصائصها كما هي لا كما يراد حصرها في شخصية واحدة –كل تلك الغبطة المعنوية التي نطلبها بأشواقنا ولا نحسن التعبير عنها، ليست بعد لنا وهي مفقودة في هذه البلاد. بل ندر الذين يفهمون ارتفاعها ونبلها من الأفراد.

وأولئك هم المعذبون.

وستبقى هذه الحياة مفقودة ما بقي التعاطف الأدبي غير موجود وإذا طرح اليوم متحمس النداء المستثير فكأنه يستنهض أنبته تضطرب وتتحرك في مكانها وقد حظر عليها الخطو والانتقال وتمضي الصيحة الرجافة فترتطم نبراتها في الهواء ثم ترتد على مرسلها ثقلا باهظًا كأنما يعترضها المضي جدار كثيف تختنق عنده الأصداء فترتد على قلب مرسلها ثقلا يجر معه معاني المحال وانقطاع الرجاء – إلى حين.

والمدهش بعد كل هذا أن تجد منا من يشب وينهض ويتفوق ليس على قياس مدح المداحين، وهجو الهجائين، ومسيري الذبابة والنسر في خط واحد بل هو يرتفع رغم المثبطات فوق الصدمات والموانع.

يرتفع ويبدو عظيمًا وكأن اسمه وحده يكفي ليقول: "إني موجود وأثري متسرب إلى جمودكم ليقبله حركة!.. إني موجود، وحميتي ماضية في خمولكم لتثيره نهوضًا.. إني موجود وعزمي متغلغل في قلقكم لينسقه انتظامًا قلت مدهش ذلك؟ كلا بل هو خطير!

أليس أشد دلائل القوة خطرًا في أن يظل النسر محلقًا ولو مهشمًا داميًا أن يظل محلقًا حتى بجناحين مهشمين داميين؟

ولعل الحياة تحتال على بنيها لا سيما الأصفياء منهم عندما توسعهم مقاومة وتشبعهم تعذيبًا؟ لعل تودعهم حاجات ومطالب تعلم سلفًا أنها غير مهيئة لها ما يقوم بها ويحققها، وما ذلك إلا لتلح على الفرد الموهوب أن يجني المعونة والتعزية والقوة من أعماق وحدته من أعماق وجعه، من أعماق قنوطه لعل لها غرضها من المنع والحرمان فيظل لابنها المختار أن يخلق لنفسه عالمًا يملأه ببرايا هواجسه وبأشباح ما يحب ويأمل ويظل ينشد له أن يبدع ما ينقصه إبداعًا ما، إبداع التخيل والتدوين، فتكون الحياة ذاتها عن هذه الطريق صورًا جديدة من لهف الحرمان، وزفرات الأسى، وتجمد الدماء التي لا تسيل؟

أم لعل الحياة في أحشائها كلوم يعوزها البلسم، وهو لا يستخرج من شكوى البؤساء فتخلق لهم المحن لتسمع مثل هذه الزفرات التي ترسلها عائشة في خلوتها:

أعلل نفسي والأماني كثيرة	وكما كان أغني النفس عن ذا التعلل
فلا الوقت في أمري فأقضي مآربي	ولا الدهر يصفو لي فأكمد عذلي
ولا النيل يدنو لي فأروي بفيضه	ولا الصبر طوع لي فتحلو الحياة لي
ولا الحظ ذو سعد ولا البخت مسعف	ولا مهجتي صلد أقول تحملي
ولا لوم إن واريت في الترب جثتي	وقلت أقيمي حيث ذلك منزلي

أي أنها تحبذ الانتحار في هذا البيت الأخير.. ومن ذا الذي لا يشتهي الموت في بعض لحظات الألم؟ ثم تعود إلى طلب المسة والهناء، ولكن لتلقي خيبة أخرى:

والله مـا همـت حظًـا باسـم داعيــة   إلا وأعقبـت فيهـا الهـم مـن أسـفي
ولا سـعيت بـأقوى العـزم فـي أرب   إلا رجعـت طـريح الأرض فـي دنـف

أو لترى السرور يتحول إلى الألم شأن كثير من مسرات الحياة!

ومـا منحـت بيـوم قـد أتـي غلطًـا   بـالأنس إلا وقامـت فيـه غـاراتي

ويظل الاختبار يحذر وينذر:

لا تفـرحن بـدنيا أقبلـت وصـفت   بكـل مـا ترتضـي، وأحـذر عواقبهـا

وترقب أحوال الناس فيؤلمها منها الخلل والفساد:

حسن الوفاء وصدق الود قد صرعا   واستوحشا بفيـافي الغـدر وانصـدعا
كلاهمـا مـن سـقام لا مســاس لـه   حزنا على الحق والإنصاف مذ صرعا

وأولئك الأدعياء الناعتون نفوسهم بما ليس فيهم، المتلمظون لأن الفرص سنحت لهم ضلالا بأن ينزلوا الأذي بما يحيط بهم. وهم يحسبون واجب البشر كله في إيقاف الجهود على أشباعهم وإرضائهم - كيف تذكر أولئك إن لم يكن بلهجة الازدراء والأخطار هذه.

آل الغـرور لقـد سـاقوا نجائبهـم   شـرقًا فـداست كـل مـا لاقـت
ظنـوا الزمـان علـى رغـم يطاوعهـم   وأن أوقــاته طوعًـا لهـم راقـت
ولـيس إلا عـدوا سـوف يفجـأهم   بـرقط غـدر إلـى عاداتهـا اشـتاقت

ألا يذكرك هذا البيت، لا سيما الشطر الثاني منه، بالمعري وآرائه في الدهر وعربدته على الدنيا التي كثيرًا ما بشبهها بالحية الرقطاء؟

وهكذا تجد عائشة الألم عوضًا عن الهناء، وليست الآلام الملموسة البارزة أنكأ الآلام، بل قد تفضل أحيانًا أن نصاب بما يسحقنا ويجرفنا بشدة جرف العاصفة لأوراق الخريف، بدلا من معاناة ما نسكت على مضضه مما تأنف التفكير فيه مليًا، ونستنكف شرحه مع عجزنا عن مقاومته والابتعاد عنه.

ولربما آثرنا الداهية الدهماء تعبث بنا فتذرفنا هباء، على مقاساة نكال متقطع متتابع كوخز الإبر نكال لا هو يشتد فيقتلنا، ولا هو يكف لحظة لنتخدر. ولا يكون عقابًا على ذنب فناوب ونتفادي بل كثيرًا ما يجيء مكافأة على الحسني فيفعم القلب مرارة.

اجتمعت في أوائل مايو ١٩٢٢ بالأستاذ الشيخ الغمرواي المفتش الأول للغة العربية في وزارة المعارف. فذكرت عائشة فقال: إنها شاعرة عصرها وإن أساءوا فهم كثير من معانيها قلت مثلا؟ فقال: مثال ذلك قولها:

ما ضرني أدبي وحسن تعلمي إلا بكوني زهرة الألباب

فما يفهمه الشخص العادي من هذا البيت أنها تمدح نفسها مدحًا يشبه الذم. وما ذلك إلا لقصر النظر أو لتعمد. في حين هذا القول يقرر أمرًا واقعًا تألمت من جرائه. ذلك أن بعض السيدات كن يسمعن عليها الثناء الذي لم تربحه بالتظاهر التهويش بل بالكفاءة والكرامة. فيثور منهن الحسد فيعمدن إلى تشويه الحقائق والتحريف والتعريض يشعرن بالقصور عن مجاراتها فيستسلمن لتعذيبها وإلحاق الأذي بها على مختلف الأساليب، انتقامًا لنفوسهن من تفوقها. فشعرت بهذا وتألمت لذلك قالت "ما ضرني أدبي.. إلخ".

هذه خلاصة كلام الأستاذ وهو من الصحة بحيث تجد له طائفة من الأدلة في شعر عائشة كقولها:

وكم حليفة سعد إذ تعنفني تقول سعيك مذموم النهايات
فاخفض الطرف من حزن أكابده وأهمل الدمع من تلك المقالات

واها لتلك الدموع تنصب في القلب عند كلام الحاسد والمتطاول، وتدفع إلى التشاؤم في نبالة الفطرة البشرية، ثم تنهمر في الخلوة لاذعة محرقة، على أن عائشة عذبة بطبيعتها فهي لا تثور سريعًا بل تتجلد هنا وفي معاكسات أخرى وتكافئ الشر خيرًا حتى نفاذ الصبر:

ومذ أتيت عذلي تبغي مصادرتي ظلمًا منحتمو أسني الكرامات
وكلما عددوا ذنبا رميت به بسطت للعفو راحات اعترافاتي
وكلما حرروا منشور مظلمتي وأظهروا في الوردي غدرًا جناياي
أظهرت شكري لهم بالرغم من أسفي وكان ما كان من فرط التهاباتي

واها لتلك النصال تغمدها في القلوب أيادي الغرباء وأيادي المعارف والأصدقاء!

واها لتلك الأيدي التي أحسنت إلينا، ولتلك الأخرى التي أحسنا إليها، تمتد لتأتي إشارة تمحو جميل الذكري حينًا وتحجب زقيق الشفقة دهرًا!

وتلك الكلمات الفاترة الرقيقة وذلك الترفع المصنوع الحقير! وتلك العناية التي سرها التقلي، وذلك الشرح للثناء في الظاهر وكل الغرض منه التصغير والتحديد السخيف!

وتلك الشبكة الواسعة التي يحبكها حولك الاغتياب والافتراء ويلصق بك ما يلصق من التهم والذنوب! فتفكر أولا في الدفاع عن نفسك أمام الذين تحسبهم أفطن من غيرهم وأقرب إلى الإنصاف وبعد قليل تصمم على السكوت كبرًا وزدراء ذلك ما تعنيه الشاعرة:

ولـــم أقـــو لـــذوي رد لمعرفتـــي إن الحبيـــب حبيـــب فـــي المســـرات

طبعًـا. هـم كـذلك أصـدقاء المجتمـع، الأصـدقاء السـطحيون والآخـرون المتقمصون في أثواب الأصدقاء والمتكلمون بلسانهم كيف يركن إليهم.

لذلك:

أخفي الأسى إن حسود جاء يسألني لأيـــن أســـعى، وأومـــي لابتهاجـــاتي

وقـد تخفيـه احتشـاما وصـيانة لكرامـة الألـم، وقياما بالواجـب الـذي يمتهنـه أولئـك الـذين يكرهـون النـاس إكراهـاً علـى مخاشـتهم ومقـاطعتهم، لأن الجفـاء الوسيلة الوحيدة للتخلص من تطفلهم. يزعجون الناس بلا مراعاة فيسخرون حتما عطف القلوب. يتجاهلون أن لكل شيء حدا طبيعيا، وأن أعصاب بني الإنسان ليست من حديد. فلا تحتمل النواح والشكوى والإلحاح والمضايقة إلا لحين. وإن واجب المرء الأول نحو صحته لا سيما أن له من مسئوليته وشئونه ما يتحتم القيام به أن يضمن بكل تأثر مضن وأن يقلع عن كل اضطراب عقيم.

إن التحـدث بـالهموم وشـكوى الغمـوم مـرض شـرقي متأصـل. وكأننـا أقـرب الشعوب إلى رجم الآخرين بآلامنا وأوصابنا في كل زمان ومكان.

وليس أدل على هذا الضعف المعنوي وضعف الخلق.. ليس أدل على هذا من الحاجة إلى التهذيب. وكأني بعائشة مطبوعة على هذه الصيانة الخلقية والكتمان النبيل فهي تقول:

أقوم والضيم تطويني نوائبه طي السجل، ولم أسمعه أناتي
إن ضل سعي فهادي الصبر يرشدني إلى طريق رشادي

واستقاماتي أما والقلب المعذب يظل على نبله، في حاجة إلى أن يبث كربته لصديق ذي حول ولطافة،

فعائشة تتجه إلى القلب الرءوف الأكبر الذي لا يقلقه أنين البرايا:

ولم أزل أشتكي بثي ومظلمتي لعالم الجهر مني والخفيات

وقد يحسن أن أدغم في هذا الباب ملاحظة أخري: هناك نكتة تكاد تكون الوحيدة في كل كتاباتها، وقد ظهرت كل الظهور في عصرها دون تمييز في الموضوعات. فتجدها أمامك في المرض والعافية، في رثاء الأحباء وفي آهات الغرام. موضوعها الطب والأطباء.

وقد تشير إلى قلة ثقة الشاعرة بأبناء أبقراط الجهابذة. قالت تتهكم على طبيب في ثلاثة أبيات مفردة:

يا من أتى للجسم يبرئ سقمه ويظن جالينوس بعض عبيده
أفنيت بالطب الذي تهدي به أمما، وقربت الردي ببعيده
وزعمت أنك أنت قي جددته ولقد أضعت قديمه بجديده

وهاك ما يعني أن يأس الطبيب في نظرها أمل:

إذا يئس الطبيب وكل عني بقدرته بما أرجو حياتي

وهذا استهزاء بالأطباء وتوجع من رمد عينيها:

تخالفت الاسئلة بطول وعد يعللني، ويأس فيه حيني
ومن فظ يهددني جهارا بمبضعه المصوب في اليدين
وقد عفت الأساة وعدت أرجو طبيب الكون رب المشرقين

وفي وصفها لأقوياء العالم وضعفهم حيال الردي:

يؤرب بالعجز أقواهم إذا ألمَّ به ألمُ ويبدي شر حسرات
يلوذ ضعفا بأذيال الطبيب، وما يغني الطبيب لدى فتك المنيات

وكذلك كان لها في الرثاء مجال لإظهار عجز الطب والأطباء فقد جاء في مرثاة والدها:

رجع الطبيب بيأسه متسربلا وأراق جرعته على الحصباء

وفي مرثاة ابنتها:

جاء الطبيب ضحى وبشر بالشفا إن الطبيب بطبعه مغرور
وصف التجرع وهو يزعم أنه بالبرء من كل السقام بشير
فتنفست للحزن قائلة له عجل ببرئي حيث أنت خبير
وارحم شبابي، إن والدتي غدت ثكلى يشير لها الجوي وتشير

وارأف بعين حرمت طيب الكرى تشكو السهاد وفي الجفون فتور
لما رأت يأس الطبيب وعجزه قالت، ودمع المقلتين غزير
أماه قد كل الطبيب، وفإنني مما أومل في الحياة نصير
لو جاء عراف اليمامة يبتغي برئي، لرد الطرف وهو حير

ومن مثال ذلك في شعرها الغزلي:

سروري باللقا ونعيم قربي أعاد بعودك الميلاد ثاني
لقد أرغمت كل طبيب سوء أضاع بهزله طول الزمان

وغيره:

لو شخص الداء جالينوس أعجزه وقال لقمان تكليفي به باطل
كيف الشفاء ومن أهواه فارقني هيهات إن الهوى بحر لا ساحل
جاء الطبيب يداويني فقلت له دع عنك طبي ولا تتعنب بلا طائل
تعذر الطب والبرء انزوى ونأى عني، ولوني من فعل الهوى حائل
ما ينفع الطب والأحشاء في حرق والجفن من فرط وجدي دمعه هاطل

وأحسن دواء ينجح وينشد هو ذا:

أرنا زمان الأنس يا وجه الحبيب واحذر، حماك الله، أن يدري الرقيب
دعني، لأني باللقا قلبي يطيب ودع العلاج وما يقول به الطبيب

عفوكم يا سادتنا الأطباء، لئن قال بعض الشعراء إن بعض الأمراض خير من بعض الأطباء، فلكم من شاعر قدر أفضالكم على المرضى والأصحاء على السواء؟

ولكم من شاعر جعل الطبيب عالماً وحكيماً ورسولاً في آن واحد، عندما يرك كرامة مهنته وكل ما تقتضيه! وإذا كان الاصطلاح العربي ماضيا على التوحيد بين الطب والحكمة فينادي الطبيب "حكيماً" ألا ترون في بيان الشعراء وتوقيع أسجاعهم ما عمل على حفظ تلك العادة التقليدية ونقلها من جيل إلى جيل؟

وبعد هذه العوارض فلنلخص:

البيئة المعنوية الصميمة كانت لعائشة في كتبها وأوراقها، وفي الكتب التي تقرأ، وفي الأوراق التي تحبر. ففيها كانت تجد التعزية ومنها المعونة وإذا أصابها الرمد شكت بلغة التوقيع!

إذا شكت الوري سقم العيون	فإني أشتكي ألم العيون
أبيت كوالِه أضناه وجد	أنادي من جفوني! من جفوني !
فلا جفن يطاوعني فأبكي	ولا صبر أزيل به شجوني

وإذا طال رمدها طلبت كتبها وأوراقها كما يطلب الحبيب الغالي:

أمس الكتب من شغفي عليها	وأبلي حسرة من سوء حالي
وأندب مهجتي حبا لأني	حرمت بدائع السحر الحلال

وليست لتشغف فريدة. بل هي ككل محب تريد عند حبيبها مثل ما عندها. فتنيل الأوراق والمحابر والأقلام روحا تحس وتشوق وتبكي:

نعاني أبيض القرطاس لما	جفاني اليوم نور الأسودين
وقد جفت دواني وهي تبكي	لما قد راعها من طول أبني
وأقلامي قد انشقت لأني	حرمت مساسها بالإصبعين

كذلك كان وسط عائشة من أرواح المؤلفين والشعراء ومن نفثاتهم، من أرواحهم كان لها أسرة تناجيها. فتتحدث إليها وتصغي حينا بعد حين.

وفي تلك "الغربة" التي تأوي إليها أرواح الخواطر كتبت أشعارها العربية المجموعة في ديوان "حيلة الطراز" وديوانها التركي والفارسي "كشوفة" و"نتائج الأحوال" ورسالة صغيرة اسمها "مرآة التأمل في الأمود"، هذه هي بيئتها المعنوية المحبوبة.

حبها لاسمها

والاسم.. أليس هو أول علامات الفرد في جماعته!"

على أي شيء يحتوي الاسم"؟ يسأل شكسبير بلسان جولييت.. ومن منا لم يتساءل عن اهتداء البشر إلى التسمية وعن رائدهم في ذلك؟ ألا تصغي إلى همس خفي وراء الاسم، والكنية عند سماعها للمرة الأولى كأن لهما ذاتا خفية وراء المعنى الظاهر؟ أو ليس من هذه الروحانية المستترة استخرج معنى الحساب بالأرقام والحروف، الذي لا يستهان به في أصوله الفيثاغورية؟

إلا أن الشاعر العربي القائل "الأذن تعشق قبل العين أحيانا" عبر عن جانب من حقيقة روحانية عميقة ومضت له في لحظة إلهام وإشراق.

راجع ما شئت من الأسماء التي تعرف أصحابها معرفة شخصية أو معنوية، تر استحالة تبديل اسم بسواه. كأنما تلك اللفظة التي يعرف بها المرء عن طريق الانتحال أو بالمناداة منذ الولادة. أصبحت جزءا أساسيا من ذاتيته، أو صارت

على الأقل من أدل الدلائل عليها. وفوق ذلك فإن معنى الاسم الواحد يتغير بإطلاقه على أشخاص مختلفين. هذا شيء يعجز الوصف إلا أننا نشعر به بجلاء ترى الآن شخصية الفرد تتفاعل وشخصية الإسم بامتزاجها بها.

إن ما يحدو بي إلى هذا الشرح هو شغف عائشة باسمها، شغفها بأسمائها الثلاثة، فإني لم أر في مطالعاتي كاتبا يشبه عائشة من هذا الوجه، لا في الشرق ولا في الغرب.

شغفت بكل اسم من أسمائها الثلاثة ورضيت بها جميعا في بيئتها المعنوية فلم تنتحل اسماً جديداً. وأحسنت توزيعها إذ خصت شعرها العربي باسم "عائشة" وشعرها التركي والفارسي باسم "عصمت" حتى لتكاد ترى هذه الكلمة في ختام كل قصيدة من قصائدها "كشوفة" وخصت اسم عائلتها بنثرها.

ولماذا هذا الشغف؟ لكأنها متينة الشعور بالصلة بين المسمي واسمه. أو كأنها تذكر قولاً مأثوراً عند بعض المشارقة، وهو أن الاسم ينزل على صاحبه من السماء! أو كأنها تطرب له لأنه اسمها ليس غير، وأنه أول علاماتها بين الناس! أو كأنها تتشبه بداهة بذلك الفيلسوف الهندي، يقضي الوقت الطويل مكررا لنفسه اسمه حتى تنكشف له حجب الغيب فتستيقظ ذاته البصيرة العليمة رائية ما يجري على بعد مسافات، سامعة ما يقال في البعد السحيق! جميل معنى "عائشة" وجميل معنى "عصمت" أما "تيمور" – فعلى عهده من شرح لي وفسر– فلفظة تركية أصلها في اللغة العامية "دمير".

ومعناها الحديد الصلب الذي لم يصقل بعد. ولذلك يخطيء من يطلق هذه اللفظة على تيمور لنك للتصغير أو للاختصار. لأن معنى "تيمورلنك" نصل السيف المصقول.

على أننا بالانتباه لمعنى هذا الاسم نتأثر بوقعه المرضي للسمع. وهو يمثل (على ما يلوح لي) مزيجا من نبرة الأمر العسكري وأبهة وقوة رؤيته تمسها كآبة طفيفة ووداعة.

وبعد، أيتسع معنى الاسم فتكون كلمة تيمور رمزا إلى أن الطبيعة النسوية المصرية بدأت تصقل بعائشة؟

لكنها لم تأخذ الاسم كما هو بل أطلقته على نفسها بصيغة النسبة. فإذا بها "التيمورية" وفي هذه الأيام حيث صارت الألقاب والنعوت طوفاناً يغمر الصالح والطالح على السواء أصبح عدم اللقب لقباً وغدا التجرد من النعوت نعتاً. فجمل بنا أن نوجز في نعت الشاعرة المصرية وأن نسميها، حيناً بعد حين، بهذا الاسم الآخر الذي أحبته ووضعته في فم أشخاص يستشهدون بأقوالها ويضربون بأشعارها الأمثال "التيمورية".

الفصل السادس

شاعرة بثلاث لغات

عبقريتها اللغوية

قالت التيمورية شعرها بالعربية لغة وطنها المصري. وبالتركية لغة آبائها، وهي لغة لا يزال التخاطب بها في بعض الأسر ذات الأصل التركي.

وقالته بالفارسية التي هي لفئة من أدباء العرب والترك لغة "مدرسية"، شأنها عندهم شأن اليونانية واللاتينية عند الغربيين. والسبب في ذلك علاقة الفرس بهذين الشعبين الشرقيين من حيث السياسة والتاريخ.

ليس بوسعي درس شعرها غير العربي لجهلي اللغتين اللتين كتب بهما.

على أني أذكر هنا شبه شهادة سمعتها عرضاً من شقيقها أحمد تيمور باشا.

وهي قول المغفور له السلطان حسين لسعادته إنه "يفكر فيه كلما رأي ابنته قدرية تقرأ في ديوانه السيدة عائشة". وهناك شهادة مسجلة في آخر الديوان المذكور "كشوفة"، وهي رسالة من "إيران دولت عليه سي مصر قاهرة قونسولي سعادتلو دوقتور ميرزا محمد مهدي بك أفندي حضرتلي".

ولكن هل تعني الشهادة والإنكار دواماً كل ما يوصف فيهما؟ نقرأ أحيانا وصف بعض نتاج الأقلام عندنا فنحسب أننا مقبلون على مثل ما أبرز أوربيدس

وداتني وشكسبير. فنحملق بالعيون والقلوب فإذا بنا نطالع شيئاً حسناً قد يجوز "تشجيع" صاحبه. أو شيئاً غير حسن يتحتم أن يحرم كاتبه من الفاكهة والحلوى طيلة أسبوع على الأقل.

لنكون إذن من أنصار اللا شهادة ما بقينا في هذه الفوضى الأطنابية.

غير أننا لا يسعنا إلا الإعجاب بقلم يعالج الشعر والآداب في لغات ثلاث.

لا يذهلنا الآن أن يتكلم الشخص الواحد بثلاث لغات أو أربع، وأن يتكلم باعة الدكاكين وغلمان البواخر والمقاهي والفنادق بما يربو عليها، لعلمنا أنهم لا يستعملون إلا الكلمات المألوفة التي تفي بالأغراض السطحية.

لا يذهلنا ذلك لتتابع الاحتكاك والاختلاط بين الأمم. بيد أنه ندر حتى بين مشاهير الشعوب من الأفذاذ من عرف أكثر من لغتين معرفة عبقرية.

عبقرية اللغات عبقرية مستقلة. هي حذق عميق رشيق ينفذ في أرواح الشعوب ويأوي إليها، ثم يتحول اتساعاً وعلواً فيشملها. كأن الفرد الموهوب يتقمص في كل شعب يدرس لغته فيتوحد وإياه حياً بحياته، ناطقاً بلهجته، مدركاً منها الخصائص والمستعصيات. ويفسر الروحانيون هذه الموهبة بالتناسخ والتجسد بين شعوب مختلفة.

وقبل الإلماع إلى الشعر العربي والكلام عن شعر عائشة أعلم أن قولي لن يرضي أنصار القديم ولا أنصار الجديد. ولما كنت من ألين الطبائع عريكة كنت مستعدة لتغيير فكري بشرط أن يقنعني السادة المثقفون. وبعد فلنبدأ متوكلين على الله.

ليس أعسر من تعريف الملكة الشعرية وتحديد الشاعر. أصحيح أن الشعر كله رقة وعذوبة وإحساس وموسيقي دون تفكير ومعرفة وبحث وقوة ؟ أم هو مزيج من كل ما تفنيه الحياة وتولده من المدركات والمحسوسات، سبك في قوالب متعددة وفقاً لأنظمة بديهية تتملص كالشعر نفسه من حظيرة التفهم والإدراك ؟

الشعر أحد أساليب التعبير عن خواطر وعواطف وحاجات مافتئت الإنسانية تستوحيها وتنفعل بها. قليلة هي تلك المعاني الأساسية. بيد أن شعبها ومناحيها تذهب كل مذهب وتضرب من أعماق البحار إلى أقطاب الأرض، إلى فسيح السموات، إلى رحبات الزمن في الأزل منها والسرمد.

ولقد بدأت الهمهمة الشعرية عند كل قوم بوسيلة من الوسائل. عن طريق العبادة، أو تعظيم الأبطال، أو شكوى الآلام وبث الغرام. ويظهر أن الداعي إليها عند العرب هو سير الإظعان في البوادي وانتقال القوافل في وحدة القفار فاهتدوا إلى الحداء مستحثين الإبل في مستعر الرمضاء.

فخفت الإبل سيراً وانتعش منها النشاط، وارتاح الحادون إلى النشيد يجدون فيه ملهاة عن المشقة، تسلية للتعب والضجر. وتطرقوا بعدئذ إلى تنويع الموضوعات فتغنوا بمزايا المحبوب وسبهوه بما يعجبهم من خصائص الحيوان في الفلوات التي يجتازون. ووصفوا وحشة المضارب المتنقلة والآثار العافية، ومرارة الوداع والفراق. وعددوا مفاخر القبيل والنسب ولذائذ العشق والحرب والغزو والتطعين والإخضاع.

وكان من ثروة اللغة في الألفاظ والاستعارات "لكثرة القبائل المتكلمة العربية" مساعدة على التزام البحر والقافية في تنظيم الحداء. فأوجد هذا في الشعر العربي طلاوة وغني في الوتيرة الواحدة. وجزالة ونكهة بدوية ودقة لفظية تغرد بها دون غيره. ومنه كذلك جميع العيوب التي يسبح فيها شعرنا إلا القليل كما في بحر طام.

يصمم أكثر شعراء العرب على تقليد هذا الشاعر أو ذلك من القدماء بدلا من أن يجروا وراء سليقتهم الفردية، فينجم لنا "طبعات" جديدة مشوهة من الشاعر المقلد. ويخاطبوننا بلغة عصور خلت ونحن اليوم في عصر الحيرة والتردد والثورة الكبرى. فمن الإعجاب بالجزالة اليدوية جاء حب النسخ والتقليد، وعنه نجم الفقر في الخيال العربي، والتقيد باللفظ دون المعنى، وجمع الفكرة في كل بيت بمفرده، والخلل في اتساق الخواطر، والقصور في تنظيم أجزاء الخطاب. حتى إنك كثيراً ما ترى وجوب جعل آخر القصيدة أولها ومنتصفها آخرها.

وعن التقليد نتج حصر الشعر في أبواب المدح والهجو والرثاء والحماسة والفخر والنسيب، والحكمة أحيانا. وعند ترتيب الدواوين على الحروف الأبجدية لأن التواني وشيوع الموضوع يفقدان كل قصيدة عنوانها كما يفقدان كل ديوان فهرسه. وعنه خصوصاً نجم إهمال التاريخ في قصائد الشاعر ومؤلفات الكاتب. كأن نمو الفكر ومماشاة التطور دورا بعد دور شيء لا يلتفت إليه. مع أن معرفة التاريخ ليست دون معرفة الحوادث والمؤتمرات وألسن البيئة أهمية في تفهم فصل أو كتاب.

جميع هذه العيوب في ديوان التيمورية حيث لا تنظيم ولا تنسيق، حتى ولا تبويب على الأبجدية، ولا أثر للتاريخ في القصائد - إلا القصائد التاريخية في السطر الأخير منها! ولئن جرت على عادة العرب في التعبير، أي الإفصاح عن عواطفها غالبا باستعارات من سبقها، فالأمر الذي يراعني في شعرها أن شخصيتها تبدو من خلال المحفوظات كما يبدو الجسد في لوحة تصويرية من خلال الأنسجة الشفافة وقد تفلتت من عيب "المفاخرة" بدويها وأهلها. ولا هي تبدأ بالتغزل لتنتهي بالإطناب. وليس للإطلال والمضارب ذكر في قصائدها. وأما من حيث الصدق فأظنها في مقدمة الصادقين من شعرائنا. ومعظم استسلامها للغلو في جزء خارج عنها وهو شعر المجاملة بينما هي في شعرها الذي يرسم نفسها ساذجة مخلصة عذبة تروي حديثها بأسلوب ليس هو بالهندسي الذي لا يقدر أنصار القديم سواه. إنما هو كما يقول الفرنجة روائي (romantique) يجري عليه بعض شعراء العصر. وهذا الشعر الوجداني بطبيعته، الغنائي بلهجته، ينقسم إلى خمسة أقسام كبرى. وهي:

١ - شعر المجاملة.

٢ - الشعر العائلي.

٣ - الشعر الغزلي.

٤ - الشعر الأخلاقي.

٥ - الشعر الديني أو الابتهالي.

ففي الأقسام الثلاثة الأولى تلقت التأثر من الناس فأعادته إليهم نشيداً.

وفي القسمين الأخيرين تلقت التأثر من مختلف الجهات فخاطبت نفسها وناجت نبيها الكريم مبتلهة إلى العزة الإلهية.

شعر المجاملة

لقد حلت المجاملة عندنا مكان الصدق في أمور جمة لخلو محافلهم الاجتماعية من النقد المنصف الحصيف. فإن نحن استنكفنا هذا التطفل من المجاملة، وتأفقنا لإدمان معالجيها والراضين بها، فهذا لا يحول دون التقرير بأنها في حالتها المعتدلة علامة للثقافة النفسية. المرء يعيش في بيئته فعليه أن يقلع عما يزعج بني جلدته لغير ما سبب. لذلك هو يضبط خوالج نفسه، ويحاول الشعور معهم والتلطف إليهم لا خبئا ولا كذبا بل تمرنا على الغيرية بتهذيب ذاته في فن الإرضاء "والدوزنة"، واقتبال التضحية الصغيرة التي تسهل بالمران وتتحول شيئا فشيئا إلى سرور وقتي مأنوس استبدل كلمة "نرجو تشريفكم" في دعوة بكلمة "احضر عندنا يوم كذا ساعة كذا" تعلم أن الصراحة ليست هي الخشونة، وتقدر وآداب اللياقة.

وتعلم لماذا هذه الملح في حالة الدقة والإحكام تلقى في اجتماعات الأنس رونقاً سطحياً مستحسناً.

أما عائشة فلديها الوقت الكافي لتتفنن في تنميق الدعوة على هذا النسق:

لقد من الإله لنا بعد	وأشرقت الليالي بالأماني
وقام الفوز في الدنيا خطيبا	ودق الحظ أوتار المثاني
وأنتم للمنى عين وروح	ومشكاة السرور مع التهاني
لكم صفو المسر في انتظار	فمنوا بالتعطف والتداني

أجيبـــوا دعـــوة الـــداعي فـــأنتم فرائـــــد والمجـــــالس كالجمـــــان

وفي الوليمة يقرأ المدعوون هذه المجاملة الأخرى على لوحة كبيرة:

قـــد مـــن فضـــلا بالصـــفا الفـــتاح وضـــياء توفيـــق الهنـــا مصـــباح
والسعد أقبـل والعنايـة سـاعدت دامـــــت لنـــــا بســـــرورنا الأفـــــراح

وتطرز اسم رجال الإنشاء:

عـــلام الـــدر يـــا غـــواص غـــالي فبعـــــه بمـــــا يســـــام ولا تبـــــال
لقـــد جـــاد الإلـــه لنـــا ببحـــر يجـــــود بـــــدره قبـــــل الســـــؤال

وتحي دولتلو حسين باشا "أليس هو السلطان حسين بعدئذ"؟ لقدومه من السفر فتقول:

لا حـــت شـــموس السعد بالأقطـار وجلـــت عـــروس الأنـــس للأبصـــار
واستبشرت مصر المنى بقـدومه حســـــن الخلائـــق غـــرة الأنـــوار
لـــو للـــديار فـــم لقالـــت مرحبـــاً بشــــــرى بنيــــر عزتـــــي ومــــــداري
قـد أقبلـت بالبشر دولتـك التـي هـــي تـــاج آمـــالي وعـــين فخـــاري

أكثر المجاملة في شعرها لامتداح الخديويين "عشر قصائد تقريبا".

هاك كلام حلو رنان في تهنئة الخديوي بالعودة:

كللـت تـاج البـدر قربـاً بالشرف مـــذحل فـــي مصـــر ركابـــك وانعطـــف
طربـت بمقـدمك السـني بلطفـه مصـــر الســـعيدة والســـرور بهـــا هتـــف
وازينـت بكـر الحبـور وأصـبحت مجلـــوة بـــين الرفاهـــة والـــترف

وتجملت مصر بما جاد الهنا ورخيم مطربها على عود عكف

في منتهى اللطف هذان البيتان لا سيما الثاني. وفي الشطر الأخير نفخة شعرية منعشة. وهذا مثله:

وتراقصت مهج النفوس لبشرها كبلابل غردن في روض أنف
أضحى يقول بسعد بابك نيلها أقبل على بحر الوفاء ولا تخف

أكل هذا محض رغبة في المجاملة والإرضاء؟ بل فيه بعض الصدق إن للأعياء العمومية والاحتفالات بهجة و"جوا" ينفث في الجماهير فكرة ويبث فيهم توقعاً. ويخلق في ذوي الشعور المتيقظ مختلف العواطف. فكيف لا تتأثر المرأة المحجوبة إذ تمر في مركبتها مسدولة الأستار بين معالم الزينة والألوية والأنوار وصفوف الجنود وفرع الطبول؟ كيف لا تهتم بالذات العلية التي تهتز البلاد لحركاتها وهي القريبة إليها بمنصب أبيها، المدينة لها بعض الشيء بمرتبة أسرتها، الملمة ببعض أحوالها بالاختلاط بنسائها؟ فكما تهنئ خديويا بالعودة تهنئ الخديوي التالي توفيق باشا بالتولية:

تيجان يمن الصفا أضحت تكللها يد السرور بفوز دائم يهج
والسعد أشرق توراً والسما غنيت عن نور أقمارها والأرض عن سرج
تقلد النير الدري توليه ضياؤها لسوى الإصلاح لم يهج
هذا الخديوي الذي قرت بموكبه عين الزمان وقالت للهدي ابنهج
يسوس بالعدل والإنصاف أمته ويبذل الفضل والجدوي لكل رج
والدهر رنم بالبشري يؤرخه يا مصر قد زانك التوفيق بالبلج

(سنة ١٢٩٦- ٣٤١ -١٠٤ - ٦٢٧ - ١٤٦)

وإذ يمر الخديوي ببنها العسل تنظم هذه الأبيات لتكتب على لوحات الزينة:

البشر أجرى ببنها أتهر العسل والنصر أضحى بتوفيق السعود جلي
وافي "الخديوي"، فأضحى نور بهجتها كالبدر في التسم أو كالشمس في الحمل
ما ثم أرض سقاها غيث مقدمه إلا وفازت يزاهي الأنس والجذل
تهلل القطر بشراً من زياراته وأيقن القوم حسن الفوز بالأمل

وحين مولد ولي عهده:

قرت عيون للسعادة بالصفا مد بشرت يسمى عم المصطفى
عباس أشرقت بالمعالي نجمه من نير التوفيق سعداً أشرفا
رقصت يمنيها الغصون بشارة بقدوم من بوجوده دهري صفا
قالت ميامن بشره تهن الورى فالأمن والتوفيق فوزاً أخلفا

إلا أن هذه اللهجة تصطبغ بالجد في قصيدة الترحيب بالخديوي بعد الثورة العرابية:

الله أكبر يوم آب عزيزنا عيد كبير زانه التشريق
وافي الخديوي الفخيم المرتضى رب الفخار عزيزنا توفيق
رفعت له الأعلام يوم قدومه وبدا لها في الخافقين خفوق
وسرت بأرجاء البلاد مرة من عطرها روح النسيم عبيق
عزفت له الأفواج ألحان الهنا وبدأ يشير لحسنها التصفيق

ومن ثم تمضي في إنكار تلك الثورة التي لم يرض عنها الخديوي:

ولـك السـيادة لـيس ينكـر أمرهـا		إلا عديـــــم العقـــــل أو زنــــديق
قـدحت بأكبـاد العـدا نـار الغضـا		واشـــتد مــا بــين الضــلوع حريــق
كفـروا بـأنعم فـيض جـدواك التـي		تربــو علــى قطــر النــدا وتفــوق
ظلمـوا نفوسـهم بخدعـة مكـرهم		والمكــر يصــمي أهلــه ويحيـــق
فرقـت شـمل جموعهم فمكـاتهم		فــي الابتعـاد وفــي الوبــال ســحيق

هذه مصارحة خطيرة وهي الغمزة السياسية الوحيدة في كتابات التيمورية إذا استثنينا مشايعتها للعرش في قصائدها.. الثناء مشايعة فيها تتلخص عاطفتها "الوطنية" وبها تحب جو "مصر السعيدة" ونيلها الفياض، وألحان أفراحها. تريد لمصر الخير والصلاح والهناء بواسطة الخديوي الذي ترى فيه أقدر عال على ذلك، ليس لأنه مصلح أو خير بطبيعته، بل لأنه صاحب الأريكة.

فكما أنه فوق رعاياه في المكانة فهو كذلك لهم في الصلاح والعدل المثل الأعلي.

والتيمورية في هذه "المحافظة" السياسية متفقة وطبيعتها. لأننا رأينا فيما مضى وسنرى في الباقي من آثارها أنها غير ثائرة.

شعرها العائلي

أليست المجاملة وحب التساهل لتيسر العلاقات بين أعضاء البيت الواحد، وتحل من المشاكل ما قد لا يفلح في حلة الصراحة والعناد؟

تكاد تتوحد العاطفة والمجاملة في بعض شعر عائشة العائلي، لأن الملاينة تتخذ لهجة أقرب إلى النفس في مثل ترحيبها هذا بولادة شقيقتها:

غنــي فــؤاد الأم أهــلاً بالــذي مــذ جـاء أشـرقت المنـازل بالهنـا

وفي قولها يوم بدأ يقرأ، كأنما هي رأت في المستقبل المرتبة العلمية التي هو بالغها:

لاح السـعود وأسـفر التوفيــق وتــلا لنــا ســور العــلا توفيــق
رقـم الفقيـه لـه علـى لـوح الهـدى أقبــل، فإنــك للنجــاح رفيــق

وفي وصف هدية بعث بها خطيب شقيقتها إلى عروسه:

تهادينـــا الزهـــور فعطـــرتنا وللنســـمات تعطيـــر مضـــاعف
سـألنا مـا الـذي أذكـي شـذاها فقيــل، لأنهــا نفحــات "آصــف"

وفي قولها في ختان ولدها:

دقـت لـه العليـاء دف سـروره لمــا زهــا عــن ثغــره البســام
وغـدت تعـوذ نجمـه لمـا بـدا ودعتــه فــي أفــق المســرة مــامي
رمقته أحـداق الـوري مـن بشـرها وصـفت لـه الأرواح فـي الأجسـام

هـذا شعور الأم. ولأنها ترمق ولدها بالبشر، وتصفو له روحها، فهي لا تقبل في الثناء عليه بعدئذ معارضة ولا إنكار: فتكتب إليه مرة تطلب كتاب "درة المختار":

طـــروس حـــررت فـــورا فحاكـــت نســـمة الأســـحار
ســـأودعها تحـــيات بهــا عــرف الصـبا قــد سـار
إلــى عــالي المكانـة مــن ســما فــي المجــد والمقــدار

لـــــه همـــــم إذا ظهـــــرت تـــــوارت دونهـــــا الأقمـــــار

وتكتب إليه مرة أخرى مشتاقة صادقة، وفي الشطر الأخير مثال من ذكرها لاسمها أما السطر الأول فمن ألذ أحاديث الأمومة:

قلبي لبعدك لم يحمد مجاورتي وفر نحو حبيب في حشاه ربي
فقـل بطلعتـك الغـرا وعزتهـا واحكم بما ترتضي متعت بالأدب
من غير قلب أتبقى روح عائشة لا والذي زان هذا المجد بالأدب

وأصدق صورة من شعرها العائلي في المراثي، لا سيما مرثاة ابنتها المحبوبة توحيدة وهي القصيدة الوحيدة تقريباً التي يذكرها الناس من شعرها زاعمين أنها خير ما نظمت التيمورية، وحكمهم في هذا حكمهم في كثير من الشئون: يقرون رأيا ما، ويعززونه، ويتعصبون له قبل الاطلاع على سواه، بروح التساهل، وقبل أن يصرفوا ولو دقائق في البحث والمقارنة.

وأضيف إلى هذه المرثاة مرثاتها للشيخ إبراهيم السقا الذي يلوح كأنه عضو من عائلتها المعنوية. فتتوجع لفقده:

الدهـر أبـدل راحتـي بعـناء واعتـاض صـفو تنعمـي بشـفاء
شجن عرى الإسلام بالظمأ الذي حـل العـري بضـمائر العلمـاء
أضحت حصيداً أرض أزهرنا التي كانـت بـه كالدوحـة الخضـراء
تشكو الأوام وما بها من مطفئ مـذ غـاب سـقاء علـى بالمـاء
قلبي عليه غدا كجمرات الغضا ولـوعتي مـن حـره وشقـائي
فلأذرفـن أسـى عليـه مـدامعي مـا دمـت عائشـة بخـدر فنـائي

اسمها من جديد، يصحبه وصف كارب من التعجب إذ تدعو خدرها "خدر فنائها".

أما في مرثاة والدتها فتطلب للراحلة الرحمة، وتهنئ القبر بتزيلته المخدرة التي لم تسفر لغريب:

يـا قبـر، فاهنـأ بالتـي أحـرزتهـا — هـي درة بالـدرج لاحـت تسـطع
يـارب، فاجعـل جـنة المـأوى لهـا — داراً بطيـب نعيمهـا تتمتـع
واسكب على حصبائها سحب الرضا — فضـلاً، وإن تـك قـد سقتها الأدمـع
يهنـأ لأربـاب النعيـم نعيمهـم — طـوبى لمـن مـن نهرهـم يتضلـع

وبعد هـذا الامتثال تنتفض صائحة بالموت الـذي فطر حشاشتها. إلا أن صيحتها تظل استرحاماً. وما أبلغ وصفها الردى "بمنهل التشتيت" على قياس النظرة الدنيوية التي تختبر به الفراق المر، دون الأمل الروحي الـذي يرى فيه وسيلة الاجتماع والاتحاد.

يا منهل التشتيت، حسبك ما جرى — فعيـوننا قـد أقسـمت لا تهجـع
ذهـب الأحبـة واسـتقر ركـابهـم — يـا ليـت روحـي ودعـت إذ ودعـوا
يـا ليتهـم طلبـوا الفـداء فهـذه — روحـي ولكـن "ليـت" ليسـت تنفـع

وفي رثاء شقيقتها:

أحبيبتـي، كيـف الرضـا بتشـتت — قـد ضـر بـالإخوان والأولاد

وفي هذه المرثاة ترتفع التيمورية لحظة إلى ما فوق الندب والرثاء:

يـا مــن أتــي للقبـر يقـرأ طرسـه مهـــلاً، فليـــس كتابـــه بمـــداد
وأعـــد لـــه نظـــراً فـــإن حـــروفه كتبـــت بـــدوب العـــين والأكبـــاد

وفيها هذا البيت الذي يسجل بداهة وجوب انحلال الصور الكونية ليتسنى لها أن تتألف وتتشكل مرة أخرى. فيتم بذلك ناموس من أكبر النواميس في الوجود:

وجـــدت وأعـــدمها الزمـــان حياتهـــا مـــا أقـــرب الإعـــدام للإيجـــاد!

تولد المرأة أحياناً صنوف التوليد المحسوس. فأحوال حياتها جميعاً تتهيأ لهذه الوظيفة وتتجه نحوها اتجاه الأنهار إلى البحر. ولقد شبهت الأم دوماً بالطبيعة، تلم الأم العظمى. وكان ما يرمز إلى أمومة الطبيعة ووظيفة التوليد الرائع فيها، أنثى في جميع أديان الأقدمين. فإيزيس المصريين "تلك الآلهة التي بدأت التوليد الإلهي، الأم الإلهية التي ولدت جميع الأشياء" واللواتي قمن مقامها في الميثويولوجيات الأخرى، يرمزن إلى المرأة القادرة بأمومتها، الممثلة الطبيعية بوظيفتها، القائمة حلقة مغناطيسية بين الحياة والحياة.

فما شعورها يوم ترى مخلوقها جامداً في حضنها هامداً؟

لا عجب أن يبدو الكون عندئذ متهدماً في نظر الثكلي وأن ينقلب الروض قفراً، وأن يغشي النور ظلام.

ولا عجب أن يكون غمها الأكبر الذي لا يحتمل أن يظل هذا الكون المتهدم لها عامراً لسواها، ويظل هذا النور منتشراً ينير الناس ويفرحهم في حين يدلهم الجو حولها.

أي مأساة هذه التي تتصدع من جرائها الخليقة؟

أغمضت توحيدة عينيها، فكل الحياة عند عائشة سواد وتهدم وتفجع وتناقض أليم.

ستر السنا، وتحجبت شمس الضحى — وتغيبت بعد الشروق بدور
ومضى الذي أهوى وجرعني الأسى — وغدت بقلبي جذوره وسعير
طافت بشهر الصوم أكواب الردي — سحراً وأكواب الدموع تدور
فتناولت منها ابنتي فتغيرت — وجنات خد شأنها التغيير
فدوت أزاهير الحياة بروضها — وانقد منها مائس وتضير
با روع روحي، حلها نزع الضنا — عما قليل ورقها ستطير

من أرق قصائد تنسن الإنجليزي وأدلها على شاعريته الحنون قصيدة "ملكة مايو"، وهي عادة جرى عليها الإنجليز في بعض المقاطعات أن يختاروا كل عام من بناتهم ملكة الربيع.

فإذا شئت أن تقف على مثال من توارد الخواطر فاقرأ قصيدة تنسن المذكورة (The May Qucen) وقابل بينها وبين مرثاة التيمورية لابنتها ضارباً صفحاً على الاتساق التام في قصيدة الشاعر الإنجليزي، وعن نقيض ذلك في قصيدة الشاعرة المصرية. تجد العاطفتين تتلامسان في غير موضع. وأذكر أن عائشة كانت تجهل الإنجليزية، وإن هذه القصيدة لم تنقل في عصرها إلى العربية. وأظنها لم تنقل بعدئذ وقد أكون مخطئة.

فتاة تنسن تقول مودعة والدتها ساعة الموت:

You' II bury me, my Mother, just berieath the hawthorn shads, And youll come sometines and seeme where I am lowly laid, I shall not forget you, Mother, I shall hear you when you pass, With your and wayward, but you' ll forgive me now: You' ll kins me, my own Mother, and forgive me ere I go: Nay, nay you must not weep .

و"توحيدة" تقول:

والقبـــر صـــار لغصـــن قـــدي روضـــة ريحانهـــا عنـــد المـــزار زهـــور

وتقول:

أمـــاه، قـــد عـــز اللقـــاء وفـــي غـــد ســـترين نعشـــي كـــالعروس يســـير
وسينتهي المسعى إلى اللحد الـذي هـــو منزلـــي، ولـــه الجمـــوع تصـــير
قـــولي لـــرب اللحـــد، رفقـــاً بـــابنتي جـــاءت عروســـاً ساقهـــا التقـــدير
وتجلـــدي بـــإزاء لحـــدي برهـــة فـــتراك روح راعهـــا المقـــدور
أمـــاه، لا تنـــس بحـــق بنـــوتي قـــبري لئـــلا يحـــزن المقبـــور

فتاة تنسي تذكر حبيبها فتقول:

" And Say "to Robin a kiad word, and tell him not to fret: There's many worthier than I would, nake him happy yet, If had lived - I cannot tell- I might have been his wife: But all things have ceased to be: with my desire of life .

وتوحيدة لا تذكر اسماً، إنما تشير إلى الزواج الذي كان قريباً لولا الموت:

أماه، قد سلفت لنا أمنية يا حسنها لو ساقها التيسير
كانت كأحلام مضت، وتخلفت مذ بان يوم البين وهو عسير
عودي إلى ربع خلا ومآثر قد خلفت عني لها تأثير
صوني جهاز العرس تذكاراً، فلي قد كان منه إلى الزفاف سرور

وكما تطلب فتاة تنسن الصلاة، وتبارك الكاهن الذي أسر إليها بكلمات الرحمة والسلام فأفهمها عذوبة الغفران، وحبب إليها الموت بعد أن كان مخيفاً، وأكد لها المسيح الذي "مات لأجلها سيبلغها السماء" كذلك تطلب توحيدة أن يزار قبرها وأن تتلى الصلوات على روحها لتحظي برحمة الرب الغفور:

أماه، لا تنسي بحق بنوتي قبري لئلا يحزن المقبور
ورجاء عفو، أو تلاوة منزل فسواك من لي بالحنين يزرو
فلعل ما أحظى برحمة خالق هو راحم، بربنا، غفور

الأم عند تنسن لا تسمعنا صوتها. أما عائشة فتنتحب وتعود فتبكينا:

بنتاه، يا كبدي ولوعة مهجتي قد زال صفو شأنه التكدير
لا توصي ثكلي قد أذاب وثينها حزن عليك وحسرة وزفير
قسماً بغض نواظر وتلهفي مذ غاب إنسان وفارق نور
وبقبلتي ثغراً تقضي نحبه فحرمت طيب شذاه وهو عطير
والله لا أسلو التلاوة والدعا ما غردت فوق الغصون طيور
كلا، ولا أنسي زفير توجعي والقد منك لدي الثري مدثور
أبكيك حتى نلتقي في جنة برياض خلد زينتها الحور

إنها تؤمن بالخلود، لذلك يعقب تفجعها الخضوع، وبينا هي تقول بلسان الجس:

قد كنت لا أرضي التباعد ساعة ... كيف التصبر والبعاد دهور؟
ولهي على "توحيدة" الحسن التي ... قد غاب بدر جمالها المستور

إذ بها يتجه انتباهها إلى ما وراء الموت فتذكر أن الفراق الطويل والانفصال المحسوس لا يجردانها من فخر الأمومة واغتباطها. فتقول بامتثال حزين وقد نما أملها بالاجتماع المنتظر:

هذا النعيم به الأحبة تلتقي ... لا عيش إلا عيشة المبرور

وتشكر الله على كل حال:

قلبي وجفني واللسان وخالقي ... راض وباك شاكر وغفور

ابنتها إن فقدت بها "كبدها ولوعة مهجتها" فإنها رغم ذلك، الفتاة الصغيرة التي لا تستطيع أن تكون لوالدتها الحصن الحسي والمساعد الذي يخفف الأثقال ويروج الأعمال. صدر والدها هو لها ذلك الملجأ في الحزن واليأس، ومن قلبه التعزية ومن مقدرته المعونة فيوم تفقده تفقد الشاعرة هذه الشفقة التي تلذ لها من الناس لهذا تقول في رثائها له:

يا حسرة ابنته إذا نظرت لها ... بمماته عين من البأساء
يا كنز آمالي وذخر مطالي ... وسعود إقبالي وعين شفائي
يا طب آلامي ومرهم فرحتي ... وغذاء روحي، بل ونهر غنائي
أبتاه، قد جرعتني كأس التسوي ... يا حر جرعته على أحشائي

وهذا الأنين يستحضر لذاكرتي أنين ابن أخيها المرحوم محمد تيمور فيما بعد، عند ضريح والدته في ساعة غم متفجع قائط:

أمـــاه، قـــومي واســـمعي — أمـــاه، مـــالك لا تجيبـــي؟
أرأيـــت دمـــع محاجـــرى — وسمعـــت يـــا أمـــي نحيبـــي؟
هـــل راع قلبـــك مـــا لقيـــت — مـــن النـــوائب والكـــروب؟
إن الوجـــــود صحيفـــــة — مـــلأى بأســـرار القلـــوب
خلقنـــــي للهـــــم فيـــــه — وللشـــــدائد والخطـــــوب
أمـــاه، إنـــي قـــد طرقـــت — حمـــاك فـــي اليـــوم العصيـــب
أبكـــي علـــى ســـعدي كمـــا — يبكـــي الغريـــب علـــى الغريـــب
أفنـــي الغـــرام تجلـــدي — وفقـــدت فـــي أهلـــي طبيبـــي
هـــذا جنـــاه أبـــي عـــلي — ومـــا جنيـــت علـــى حبيـــب

والفرق بين التيمورية وابن أخيها في هذا الانتحاب أن الشاعر الفتي همه الشكوى، وطلب الشفقة إذ ليس من يسمع له ويواسيه غير الأم في قبرها.

أما عائشة فتعود إلى انتباه لطيف في حسرتها، وهو دليل رقة نسائية حلوة، تعني برضا والدها ميتاً حياً. وفيه كذلك دليل على الأثر الذي تركه الوالد الصالح الحكيم في حياتها:

يا ليت شعري، حين ما حل القضا — هـل كنـت عنـي راضـياً أم نـائي؟

أسمعت القصب يشدو؟

ذلك القصب الشرقي الساذج الذي سبق شدوه جبروت الفراعنة وجلال الأهرام وكتمان الهياكل .. أسمعته يشدو تحت النخيل على ضفاف النيل عند حلول الشفق؟

لكأن شدو عائشة شدوه:

إنها تجرب مزمارها في المجاملة، وتنتحب فيه بالرثاء، لتبلغ منه أشجى قرار وأحر زفير في شكايات الغرام. وتسمو به بعدئذ مرفرفة كالألحان المجنحة، في الابتهال إلى المهيمن على دوران الأكوان وحظوظ بني الإنسان.

الفصل السابع

أشعارها

في الغزل. والأخلاق. والدين

شعرها الغزلي

"الحب عارض في حياة الرجل، لكنه حكاية حياة المرأة". كلمة شهيرة قالتها امرأة من أنبغ نساء العالم في فيض عاطفتها واتساع تفكيرها وفي مقدرتها الأدبية، هي مدام "دي ستيل" الفرنسية التي نالت شهرة غير مختلسة، ومجداً مستحقاً، وإعجاباً توافق وعبقريتها النادرة.

وقد عاشت تلك المرأة الممتازة، عمرها وعواطفها تذوب جوعاً، والظمأ إلى الحب الهانئ يبرح بها، ولم تفهم معنى السعادة، على قولها، إلا في الحب المتبادل الذي تم لها في الأعوام الأخيرة من حياتها.

المفروض أن تسير عاطفة الحب عند المرأة سيرها الطبيعي ابتداء بحب الوالدين، إلى حب الإخوة والأخوات، إلى حب الأقارب والأصدقاء، ثم يتجه الحب في حينه إلى الخطيب الذي تطلب فيه المرأة طبعاً الحبيب، ثم حب الزوج والولد والعائلة الجديدة بشتى فروعها.

ورغم أن هذا الحب نسيج حياة المرأة، فإن الرجل الذي اعتاد إذلالها باسم القوة والحصانة، سد في وجهها منفذ الانتباه لعواطفها المشروعة، وأنكر

عليها الإفصاح عما ينبئ بأنها ذات يقظة مستقلة. وكل ما اقتحمته في عالم التعبير خلال العصور المظلمة يكاد يتلخص في وصف النبات والحيوان في حكايات قصيرة، ولم تنظم إلا الأناشيد الدينية والصلوات الروحانية، فإذا خرجت من ذلك فلتصوير حياة الرعاة وعاداتهم ومرحهم في عيشة الخلاء، أما النساء العربيات في الجاهلية وفي صدر الإسلام فلم ينظمن – على ما أعلم – إلا في المدح وفي الرثاء وما إليهما. وقليل ما ينسبونه من شعر الغزل والتسبب إلى بعض الشاعرات.

ولو أننا رجعنا إلى أوائل القرن الماضي وهو عهد مدام دي ستيل نفسها – يوم أنشأت في الغرب تنزع إلى تحرير فكرها وإطلاق براعتها – وقابلناه بعهد عائشة والمرأة حبيسة خدرها وراء الحجاب، لوجدنا شاعرتنا في طليعة نساء العهد الجديد المتعرفات حقهن في حرية العواطف ومشروعيتها ضمن حدودها الطبيعية، هي في طليعتهن، ليس في الشرق فقط، بل في العالم المتمدن كله.

لقد قالت الكثير من شعرها الغزلي محاكاة وتقليداً، كما اعترفت بذلك في تصدير بعض أبياتها حيث تجد: "وقالت متغزلة في غير إنسان والقصد تمرين اللسان". ولكن، أتكون الأبيات التالية في بساطتها "لتمرين اللسان" كذلك؟

أشكو الغرام، ويشتكي ... جفون تعذب بالسهر
يا قلب، حسبك ما جرى ... أحرقت جمعي بالشرر
رام الحبيب لك الفتى ... لم ذا وأنت له مقر؟
لكن تعذيب الهوى ... ما للشجي منه مفر

ويبدو شعرها في أصدق لهجاته عندما تذكر هذا السعير الذي يضرمه الشوق وكثيرا ما يذكيه الصد في بعض الأمزجة إلى حين"، وهي تستوحيه في أكثر غزلها:

حر التهابي ووجدي واحتراق دمي   بفيح وادي الغضا عمن سواك خفي

هاكه في هذا المخمس الذي سمعتهم ينشدونه في سورية:

يا ظبي، في قلبي عليك حرارة   تطفي لظاها – إن سمحت – زيارة
حلو الرضاب، أني الوصال مرارة،   أم في التفاتك للشجي خسارة

وجميع ربحي في الهوى أنفقته

ومن مربعاتها:

لما نأي عني وبان صدوده   والقلب أصبح لا يفيق عميده
ملك الهوى رقي وحق وعيده   والحب خط بالجباه قديم

بهذا الشر الأخير هي تردد الفكرة الشائعة في الشعر العربي، وهذه الفكرة حقيقة محسوسة، فحواها أن بين جماهير الناس أشخاصاً خلقوا للحب وكانوا مفطورين عليه أكثر من غيرهم، وقد قدر على أولئك الأشخاص أن يعرفوا بعضهم البعض وأن يبحث الواحد منهم عن الآخر، السعادة أم الشقاء؟ سيان! وإنما للحب وفي سبيل الحب على كل حال. وتمضي عائشة في إتمام مربعاتها، كلها غنائية تجمع بين بساطة اللفظ وسهولة المعني وقتنة الغرام الضرورية لتوقيع الإنشاء:

يـا ليـل، هـا أنـا فيـك سـاه سـاهر ولعـــزة المحبـــوب شـــاك شـــاكر
يـــا ليـــل، قـــد أيقنـــت أنـــك كـــافر إذ لـــم يكـــن لـــي مـــن دجـــاك رحـــيم
يـــا ليـــل، إنـــك فـــي الفعـــال منـــافق هـــــذا تســـــهده، وذاك توافـــــق
وإذا لضـــــيم أن فيـــــك العاشـــــق ضـــاعفت شكـــواه وأنـــت بهـــيم

وهـذا الخطـاب لليـل يـذكرني بأبيـات لابـن أخيهـا، المأسـوف عليـه محمـد تيمور الذي رأى في الليل عكس ما رأت فخاطبه مطمئناً إليه شاكياً غدر الناس:

أنــــا، يــــا ليــــل، أناجـــــي منــــك ســــلطاني الرحيــــم
أنــــا فــــي الدنيــــا وحيـــد ولـــــي النــــاس خصــــوم
راقهـــــم، إن جـــــد أمـــــر بــــرق غــــدر لا يــــدوم
ورأيــــت الغــــدر نــــادراً ورأوا فيـــــه النعيـــــم
هدمـــــوا بنيـــــان ودي وانمحــــت منــــه الرســــوم
ومليـــــك الليـــــل بـــــر هــــــو لــــــي أم رءوم
وهـــــو لـــــي خـــــل أمـــــين ولأفـــــكاري نديـــــم
أنــــا، يــــا ليــــل، أناجـــــي منــــك ســــلطاني الــــرحيم

ارتكبت قبل اليوم جريمة الصراحة إذ قلت إن الخيال الشعري عندنا من الفقر بحيث ترى المعاني نفسها مكررة في كل جيل بنفس الألفاظ القديمة. وقد بحث السادة الشعراء عن مزيد من القيود فاهتدوا إلى ما يسمونه "المعارضة" التي تفرض عليهم التزام البحر والقافية كما تعهدوا بالتزام اللفظ والمعني مع شيء من التبديل في الوضع! فهل بعد هذا، من لوم على عائشة إذا هي وقفت عند معالم الغزل المألوفة التي قصرت في الكثير من شعرنا على التشبب بالعين والحاجب

والخال وأخواتها؟ وشهدت عائشة جميع الأجيال السالفة تلوم العواذل راجية أن يرد كيد اللاحي إلى نحره.

ففعلت هي فعلتهم جميعاً فلامت العواذل، راجية أن يرد كيد اللاحي إلى نحره. وغزل الشعراء بالخمرة. وزعم المتصوفة منهم أنهم يرمزون بها إلى الحب، وأحياناً إلى الحب الإلهي، فعلام لا تتحداهم عائشة؟

جهل العواذل ما تريد بشرتها ... نفسي وما تلقى من السكرات
وسلوها عن جفوة أم صبوة ... لفؤادي المضني من الحسرات
شتان بين ظنونهم وسر أثرى ... الله يعلم منتهى غاياتي

كذلك تحدث الزندلسيون في شعورهم واصطناعهم تفهم أسرار الطبيعة وتأويل معانيها، فوصفت حركات حدثت للزهر وللماء لأن المحبوب، الذي تسميه التيمورية بالاسم الطامي في الشعر العربي، أي الغصن، بدا في الروض. فاهتز لظهوره كل ما استطاعت ألفاظ الشاعرة أن تهزه من الموجودات. فإذا بها تتساءل:

إن كان ذلك حل الزهر من عجب ... فكيف حال أخي وجد وأشواقي؟

كل هذا التعمل عندها وعند من قلدتهم، بل عند الكثيرين من كتاب الغرب، كان مقدمة طويلة لعهد "الرومنتزم"، أي عهد دخول الشعراء والأدباء إلى نفوسهم يلمسون جراحتهم بأيديهم ويستوحونها، ويتعرفون حالاتهم النفسية فيتمكنون من النظر إلى الطبيعة تلك النظرة النافذة الرائعة فيكتنفون فيها مغزي المعاني ويرون فيها فاتن الصور والألوان في الحزن وفي الابتهاج جميعاً. وما ذكر الإحساس بالطبيعة ونزعة الرومنتزم، أي النزعة الوجدانية الصميمة في الأدب، إلا

ذكر جان جاك روسو موجد تلك النزعة في آداب الغربية. فسرت من بعد إلينا، وتعلم الجيل الجديد من شعرائنا تعرف ما في نفوسهم وما في الطبيعة من تغير وتنوع في الظواهر وفي الخوافي. بيد أن الرومنتزم، ككل شيء آخر في هذا الكون، أفسح المجال لمذاهب أدبية أخري تطورت منه ومن فروعه فأصبح اليوم في حكم "القديم" في أوروبا، بينما هو وغيره من شتي المذاهب الأدبية ما زال شائعاً عند الجليل الحاضر من شعرائنا وأدبائنا.

ولكن عودة إلى التيمورية! إننا رأيناها متكلمة بلهجة الرجل، وذلك راجع طبعاً إلى أمرين اثنين ذكرتهما قبلا، وهما.

أولا: عادة الضغط على عواطف المرأة وإخراس صوتها. فكان أيسر لها أن تتخذ لهجة الرجل المصرح له بما حظر عليها.

ثانيا: لأنها كانت مقلدة. فقد قلدت الرجل في معانيه كما قلدته بداهة في لهجته. الرجال أساتذتنا ومهذبوننا ومكيفونا، عليهم نتلقى دروسنا، وعن كتبهم وكتاباتهم نقتبس المعرفة، وبذكائهم نستعين لصقل ذكائنا وإنمائه، ومنهم نستلهم كل فكر عظيم وكل عاطفة جليلة. لقد احتكر الرجال جميع أنواع القدرة والإبداع والتفوق، فما نكاد نفتح عيوننا وأذهاننا حتى نرى جميع مناحي السلطان والسيطرة والنفوذ ممثلة فيهم. بيد أن الطبيعة النسائية تظهر عند عائشة بعض الظهور في الخجل الذي يشعر المرأة أحيانا بأنها صغيرة ضئيلة أمام من تحب، كما يشعرنا بأن هذا الرجل الذي اختارته هو الذي يملأ الدنيا حياة ويفيض عليها الرونق والنور:

أنا المسربل بالأعذار من كلفي إذا التقنا، وأنت الرائق الوسم

وتظهر طبيعة المرأة ظهوراً أتم في هذا الخجل الصريح:

وهذه كلمات قادها شغف إليك، لولاه لم تبرز من القلم
جاءت، ومن خجل تمشي على مهل تخاف عند لقاها زلة القدم

وقد يكون خير شعرها الغزلي وأصدقه في القصائد التي قيلت خلال رمد عينيها وبعد الشفاء منه، يوم عادت إلى مشهد النور ورؤية وجوه الأحباب.

ومنها:

بكعبة الحسن إنساناً أرى فلولا عيني التي طالما ضلت من الغسق
وخبروني، أأنساني صفا ودنا لمسهام رماه البين بالأرق؟

وما لبث أن عاودها الرمد فانقلبت تشكو الظلام الذي هي فيه والألم والحرمان جميعاً:

فوا أسفي على إنسان عيني غدا في سجن سقم واعتقال
حجبت بسجنه عن كل خل وصرت مخاطباً صور الخيال

ثم ترسل الأمنية الواحدة المتضمنة أماني أخري:

فيا إنسان عين غاب عنها وبدلني به طول الملال
عسي ألقاك مبتهجاً، معافى وأصبح منشداً "أملي صفا لي
لتهنأ مقلتي بسني حبيب بديع الحسن، محمود الوصال
وأنظم أحرفي كالدر عقداً وبه جيد الصحائف كان حالي

ثم تصف ما تقاسي من العذاب في الظلام والأرق:

فكـم أمسـي بمـا ألقـى حـزيناً ... وبـين النـوم معـترك وبينـي
أبيـت ومؤنسـي الخفـاش ليـلاً ... وحـالي معـه شـر الحـالتين
فـذاك بنـور عينيـه مهنـي ... ولـي أسـف بحجـب المقلتـين
وأبسـط للظـلام أكـف بثـي ... وأشـقي لـوعة بالظلمتـين
ترانـي معـرضاً عـن كـل ضـوء ... فهـل خاصـمت نـور النيـرين؟
ينـافرني السـنا فأفـر منـه ... كـأن الضـوء يطلبنـي بـدين
وأجـنح للظـلام جنـوح صـب ... دنـا لحبيبـه بالرقمتـين

وجاء يوم شفيت نهائياً فمضت تنشد "أملي صفا لي!" على نحو ما تمنت:

روحي بقربك قد نالت من الأرب ... ما ترتضيه، فمرها في الهوى تجب
فضع يمينك فضلاً فوق مهجتها ... تكف بالكف ما عانته من وصب
لا تنكـرن مـزايا الحـب إن لـه ... في الراحتين لراحات من التعب

هذا معني آخر مقتبس كسائر معانيها، إلا أنه في الأصل ذا مغزى بعيد. ففيه إشارة إلى مغناطيس اليد كم هو مؤثر فعال بين المحبين والأصدقاء، حتى بين الغرباء الذين لا تنافر بينهم. وهو قاعدة علمية تقوم اليوم عليها، أي على مغناطيس لمس اليد، طائفة من تجارب التنويم المغناطيسي وكيف لا يكون لكف الحبيب هذا التأثير، والحب محور الحياة؟

صـب لربـك بالحيـاة يجـود ... إنـي لـه بعـد البعـاد وجـود
بختام طبع الحسن قد طبع الهوى ... في قلبه "هذا هو المقصود"

ولكـن العـواذل – هـداهم الله! – عـادوا إلـى الاصـطياد فـي المـاء العكـر، بتعبير كتابا السياسيين في هذه الأيام. فهل من انتقام أتم من رميهم بالكفر؟

كــأنهم بعنــادي عصــبة كفــروا　　مـا حـل فـي قلـبهم صـدق وإسـلام

أما وهناك ما يؤدي إلى خيبة الأمل وصد العاطفة، فتسخط شاعرتنا ورغم الألم والمضض، تجنح إلى الإعراض والنسيان:

غضضـت نـواظري عـن غصـن قـد　　وعفـت حنـين قلبـي، وهـو روحـي
فلـو عقـب الهـوي قلبـي، وقـالت　　إذن روحـي أروح، لقلـت روحـي!
وأفكــاري تســوح لفــرط شــوقي　　فــأطوي لــوعتي، وأقــول سوحــي!
لظبـي قـد بكـت عينـي، وقـالت　　أنـوح إلـى النشـور، فقلـت نوحـي!
وذاك لميلــــه شــــرقاً وغربــــاً　　لنفحـات الغبـوق مـع الصبـوح

كان الناس في عصر عائشة يتلقون الأدوار والمواليا، تلك الأغاني الشعبية التي يفهمها الجميع ويستئذونها بـلا إجهـاد، لأنهـا تخاطـب ألصـق العواطـف وتحدث عنها باللهجة العامة. وتلك الأغاني، كمجموعة المغنى العربي القديم والحديث، تكاد تنحصر في شكوى الحب، ولوم الحبيب، ووصف جماله ودلالة، وعبادة ما نثر على وجنتيه من خال وشامة، والتحرق من جراء هجره، والابتهال إليه وإلى الأيام والقدر ليروا جميعاً ما يحسن صنعه لتسوية الأمور.. وقصائد عائشة الغزلية لا تعلو هذه الأغاني إلا بكونها منظومة. لذلك سها إنشادها. لا سيما الرباعيات التي يغنوها في سورية وفلسطين لبساطة معانيها وتراكيبها. كذلك سمعت أدواراً ومواليا تنشد في اجتماعات الأنس وحفلات الأفراح، ولم يدر المنشدون أنهم بإنشادهم يلحنون روح التيمورية. كما أن كثيرين

منا عندما ينشدون "قدك أمير الأغصان" و"الحلو لما انعطف" وغيرها، يجهلون أنهم متشدون شعراً لإسماعيل صبري باشا. وأن كثيراً من الأدوار الشائعة هي من صنع أدباء كبار نحسبهم تحصنوا في معاقل اللغة لفصحى مزدرين بالآدب الشعبي البليغ. وهاك دور من وضع عائشة:

حياتي بعد بعدك ترح   ووعدي ضيعك مني
دانت أنت الغذا للروح   وليه ترضي البعاد عني؟

وغيره:

أنا أحب الحب   نفس الغرام روحي
وصبحت أول صبح   الناس ترى نوحي
في قلب من جوه   والسر هو هوه

وهذا من المواليا:

يا ألف أهلا، مليك الحسن أهو قابل   وكل مضني بحسن الامتثال قابل
هاروت لحاظة أتي بالسحر من بابل   كم من ضني تاهت أفكارو وقلب داب

مغلقة علينا. وإذا قدر للمرأة المصرية أن تلج باب الشعر والأدب وتمعن في المسير فيما وراءه من فسيح المسافات كان مرجع الفضل إلى التيمورية التي نشرت أول علم في الجادة غير المطروقة، وبكرت في إرسال الزفرة الأولى أيام كانت تكتم الزفرات وكان إرسال الصوت في عالم الأدب النسائي في هذه البلاد فيجيء حافلا بحياة فنية غنية، ستظل أناشيد عائشة – هذه الأناشيد الساذجة – لذيذة محبوبة كترنيمة المهد القديمة القائل في ظل النخيل: إن وراء المشاغل

والهموم، يلبث القلب البشري معذباً بظمأ لا يرتوي، مثقلا بحنين لا يعرف الإكتفاء والنفاذ.

شعرها الأخلاقي والديني

كنا في الفصل السابق في أنس وبهجة وكأننا في ليلة من ليالي الأعراس. لأن شعر عائشة الغزلي كان مستحضراً لنا نغمة القصب، ونقرة الدف، وشدو المغني، أما هذا الفصل، فإنه سينتقل بنا من "مجلس الإنس الهنئ" إلى ما يشبه خطبة أخلاقية. فكأننا اليوم نقول مع عائشة:

تركت الحب لا عن عجز طول ... ولا عن لوم واش أو رقيب
ولا من روع زفرات التصابي ... ولا من خوف أجفان الحبيب
ولا حذر الفراق وخوف هجر ... به تجري المدامع كالصيب
ولكني اصطفيت عفاف نفس ... تقر بصفوة عين الأريب

والواقع أنني لم أكن مخيرة في انتقاء هذا الموضوع، بل أنا مرغمة عليه بحكم سياق البحث وانسجامه. أما عائشة فتقول إنها "لصطفت عفاف النفس" ولماذا؟

وذاك لأنني في عصر قوم ... به التهذيب كالأمر العجيب

نستطيع آن نجعل هذا البيت حداً فاصلاً بين ما نظمته التيمورية للمجاملة والمحاكاة والرثاء وتبيان العواطف وبين ما نظمته لتأدية رأي لها في شؤون المجتمع، وتبصر في أحواله وأخلاقه بين طواريء الزمان وتقلبات الأيام.

ورأيها وتبصرها لا تنفرد بهما، بل هما شائعان لا سيما بين الشرقيين.

ولكن يهمنا هنا منهما أن شاعرتنا عمدت إليهما وأخذت بهما، ولو من وجهة سطحية. إن عائشة لم تتعمق أصلاً في فكرة أو في عاطفة. بل كانت تكتفي بالناحية المطروقة وترضي لها بالتعبير المألوف. ولكن لا ننسى أنها المرأة المصرية الوحيدة الوحدة في عصرها التي أقدمت على ما لم تدرك أهميته يومئذ مئات الألوف من النساء ومن الرجال أيضا.

ولقد ألمت غير مرة في شعرها وفي نثرها إلى ما بينها وبين وسطها من عدم التفاهم. وهاكن أبياتاً تدل على ما حاولته في سبيل التآلف والتفاهم، في حين وسطها لم يبذل من ناحيته جهداً ولم يبر لملاقاتها اهتماماً:

عقدت عزمي وهم حلوا عزائمهم　　وفي العزائم محلول ومعقود
ما طابقوا حين لم يبدوا مجانسة　　ولا تشابه معدوم وموجود
أبدي ائتلافاً ويبدون الخلاف، وقد　　غدا لهم في جيوش الهجر تجريد
وكم أقابلهم مستنجزاً، ولهم　　لسوء حظي، في الأغراض ترديد
لو للسعادة عين في مساعدتي　　ما كان لي ساعد بالطوق مشدود

هي تعني أن السعادة لو شاءت أن تساعدها ما كانت أو جدتها مقيدة بقيود هذه البيئة، خاضعة لظلم الوسط الذي يرهقها. وهنا نتأكد مرة أخري أنها لم تكن سعيدة. وستفهم شيئاً فشيئاً أنها كانت تتألم من إنفرادها الأدبي، وسط المجهود الذي تبذله في رجاء ونشاط فيووب عليها مقاومة وفشلاً. فإذا بها تلقي إلينا بهذه النصيحة غير الجديدة:

لا تفرحن بدنيا أ قبلت وصفت　　بكل ما ترتضي، واحذر عواقبها!

وعلام هذا التحذير ؟ لأن من صفت له الدنيا من ناحية تجهمت له من ناحية أخرى، لأن الصفاء نفسه لا يدوم، وقد لا يطول حتى ينقلب كدراً. فخير شيء وسط هذا التحول في العسر واليسر، انتهاج طريق العفة والاستقامة والصلاح:

ما الحظ إلا امتلاك المرء عفته وما السعادة إلا حسن أخلاق

وهي تعطينا نصائح أخرى لتشرح لنا قليلاً ماذا تعني بالأخلاق الحسنة: فمنها عدم الركون إلى المملقين، ومنها الإقلاع عن البخل وعدم التعلق بالمال والقناعة:

رب الدراهم أحصاها وعددها في حصن أكياسه ألفاً على ألف
والحمد لله إذ عدي لمسبحتي وعن سواها تراني قاصر الطرف

ومنها حفظ اللسان، لأننا جميعاً بشر تشوهنا العورات:

احفظ لسانك من ذم الأنام ودع أمر الجميع لمنت أمضاه في القدم
معايب الناس لا يكبرن عن غلطي إذا نمت بها في محفل الهمم

ومنها صيانة النفس:

وما احتيجابي عن عيب أتيت به ورنما الصون من شأني وعاداتي

ولو كنا في مجال المناقشة كنا أثبتنا أن الصون لا يقوم بإسدال الخمار، كما أن التبذل ليس قائماً بالسفور. إنما الصيانة والعفة ملكتان نبيلتان من ملكات النفس، تأخذ بهما المرأة بصرف النظر عن زي الثوب وهندام الرأس. وسنرى عندما ننظر في آراء أخري لعائشة أنها إن هي فاخرت بالحجاب في

شعرها فهي تشكوه في نثرها، لأنه حرمها مجالسة أهل الفضل والأدب وحال دون الاستزادة مما ترغب فيه من علم ومعرفة.

أما الآن فحسبنا الإصغاء إلى بقية ما تقول مفاخرة بالحجاب. هي تفاخر، ونحن نوافق على هذه المفاخرة التي نود أن تكون نشيداً للصيانة النسائية الأخلاقية، ونتمني وجود هذه الصيانة الأبية، وبأرقى مظاهرها، عند كل امرأة وكل فتاة. وهذه هي أبيات المفاخرة الوحيدة في شعر عائشة:

بيد العفاف أصون عز حجابي وبعصمتي أسمو على أترابي
وبفكرة وقادة، وتريحة نفاذة قد كملت آدابي

ومنها:

ما ساءني خدري وعقد عصابتي وطراز ثوبي واعتزاز رحابي
ما عاقني خجلي عن العليا، ولا سدل الخمار بلمتي ونقابي
عن طي مضمار الرهان إذا اشتكت صعب السباق مطامع الركاب
بل صولتي في راحتي وتفرسي في حسن ما أسعي لخير مآب

نيات صالحة وآراء طيبة. بيد أدني إذ أراها مؤكدة المرة بعد المرة أن السعادة في حسن الأخلاق يخطر لي أحياناً أن أقول: كلامك يا سيدتي على الرأس والعين، لكنني لا أراه متطابقا والواقع. الشعر الأخلاقي غير الشعر الغزلي. هذا يلقى إلينا بما شاء من العواطف والخيالات والأماني فيروقنا ونطرب له. أما الشعر الأخلاقي فشيء آخر. إنه يلقي على درساً ويختط لي طريقا. فلي الحق أن أناقشه إذا هو لم يفلح في إقناعي بقوله أن السعادة في حسن الأخلاق وفي

صيانة النفس وفي حفظ اللسان، إلى آخر ما يسديه إلى من النصائح. فهاك إنساناً صالحاً لم يجن إثماً. ولا يؤذي أحداً.

ويعبد الله ويسالم الناس. ويتكل على ذاته في العمل ليل نهار متبادلاً وإخوانه البشر منافع العمل وحسناته. ورغم كل ذلك فهو ليس بسعيد، في حين فلان، وهو سيئ الخلق لا يراعي في معاملته ذماماً، ولا كرامة، ولا عدلاً، ولا حقاً، فهو مع ذلك سعيد تبسم له الدنيا ويساعده الحظ في جميع شوونه. ثرثار، طويل اللسان، طويل اليد، الاغتياب دأبه، والنفاق ديدنه، وبرغم ذلك فالناس له مصادقون وأوفياء يعزونه ويكرمونه ويهابون جانبه. فكيف أهتدي إلى الصواب وسط هذا التناقض المبين؟

علام يرغد المنافقون والدساسون حولي، وأنا من الرغد والطمنينة محروم؟

وأولئك الذين يمزقرنني بافترائهم وتطاولهم، ترين بماذا أجيبهم وكيف أعاملهم؟

عبثاً نلقى على شاعرتنا هذه الأسئلة، أنها لا تعطي عنها جوابا. بل تحدثنا عما تفعل هي عندما تتألم من مثل ما يؤلمنا وكيف أنها اتخذت من النوائب وسيلة للتشدد والتقوي والتغلب على النفس المتوجعة و على العالم الظالم:

كم قابلتني ليال ريحها سعر ... بطيئة السير ترمي بالشرارات
لاقيتها يجميل الصبر من جلدي ... وبت أسقي الثري من غيث عبراتي
كم أعدتني أيام بصدمتها ... وقمت بالعزم مشهور العنايات

وأما كلام الناس، أغبياء كانوا لا يدركون فضلها أم كانوا حساداً يتحرقرن من تفردها، فإنها تحتمله بتجلد وأدب، ولا تشكوهم لأحد لأنها لا تجهل ما

يصطنعونه من إهتمام في الظاهر وهم في سرائرهم غافلون أو مبتهجون. وإن هم من تلقاء أنفسهم تعلموا عندها الإهتمام والعطف أو جاهروا باللوم والنقد تظاهرت هي بالرضي وحدثتهم عن "باتهاجاتها":

وكم حليفة سعد إذ تعنفني ... تقول سعيك مذموم النهايات
فأخفض الطرف من حزن أكابده ... وأهمل الدمع من تلك المقالات

ومنها:

ومذ أتت عذلي تبغي مصادرتي ... ظلماً، منتحتهمو أسني الكراماته
وكلما عددوا ذنباً رميت به ... بسطت للعفو راحات اعترافاتي
ولم أفه لذوي رد لمعرفتي ... إن الحبيب حبيب في المسرات
أقوم والضيم تطويني نوائبه ... طي السجل، ولم أسمعه أناتي
أخفى الأسي إن حسود جاء يسألني ... لأين تسعى؟ وأومئ لابتهاجاتي

وعلام هذا الاحتمال؟ ولماذا يكون بين الناس المحظوظ والمغبون؟

الجواب عندما امتثال كئيب:

أقول للصبر: لا عتب على زمن ... أعطى لأبنائه أسمى العطيات

فيحدثها الصبر بحكاية تقلب الأيام، فتتذوق الحديث كأن فيه بعض التعزية:

فقال: مهلاً، ولا تغررك شوكتهم ... فالصحو يعقبه سود الغمامات
فليس كل ملوم دام مكتئباً ... وما السعيد سعيد للملاقاة
فدهرهم غرهم جهلاً وما علموا ... إن الزمان قريب الالتفاتات

يبد أن هذه التعزية لا تطيب خاطرها ولا تقنعها، فتعود في آخر القصيدة إلى الشكوى والتضرع:

ربي إلهي معبودي ولمتجئي إليك أرفع بثي وابتهالاتي

قد ضرني طعن حادي، وأنت تري ظلمي، ولعمك يغني عن سؤالاتي

ومنها:

فكيف أشكو لمخلوق، وقد لجأت لك الخلائق في يسر وشدات

فيا لها من جراح كلما اتسعت أعيت طبيبي رغماً عن مداواتي

وهكذا نحن من شعر عائشة الأخلاقي في دائرة صغيرة لا تنفخنا بمتين الحجة أو بمكتمل الرأي القائم بنفسه. بل نعثر فيها على الكلمات المسكنة من صبر وتجلد وإنذار بأن الأيام متقبلة لا تدوم على حال. ودفعاً للألم تتمنى عائشة أن تتجرد من كل شعور وكل رجاء، وكل اغتباط، وأن لا تنتظر السعادة كيلا تفاجأ بالفشل والخيبة:

فلا تقل لي متاع وهو عارية واليأس عندي راحات اعترافاتي

على أن الراحة الكبري عندها في الصلاة وفي الالتجاء إلى الله الذي هو وحده يسعد ويشقي. وهذه العاطفة تصل بين شعرها الأخلاقي وشعرها الديني فتجعل منهما مزيجاً واحداً.

لقد تغذت الإنسانية منذ فجر تاريخها، بعواطف أولية قليلة استدرت منها كل نشاطها وما فتئت تسويقها في جهادها. وتلك العواطف منها الحسن ومنها السيء. ومن مظاهرها ما هو صالح ومنها ما هو طالح. ومن تمازج هذه العواطف

في نفوس الأفراد وفي نفوس الجماهير تتكون الرغبات والشهوات والانفعالات التي تتلاطم وتتعارض فيما بينها. فينجم عن تباينها ومضيها في الاسترسال ما نسميه التطور الإنساني الذي نشهد منه هذه الصور الرائعة دهراً بعد دهر في إزدهار الحضارات، وفي كل ما يهتدي إليه الإنسان من اكتشاف علمي واختراع آلي، ونظام اجتماعي ودولي، وايتكار فني وأدبي.

ومن تلك العواطف الإنسانية الإعجاب بمكارم الأخلاق الذي نجده حتى عند أحط الجناة غريزة، ومنها العاطفة الدينية المتلونة بشتى الألوان على تنوع النفوس، حتى لتبدو أحياناً في مظهر بزعمه البعض "كفراً".

على أنها متأصلة عريقة في قلب الإنسان الذي يروعه هذا الكون العظيم فيتساءل منذا الذي أنشأه. ويذهله النظام الدقيق في الفلك الدائر، في نمو النبات، في سنن الحياة فيبحث عن الغاية التي من أجلها ينفذ هذا النظام.

ويجزع مما يهدده من حاجة وألم ومرض وعجز ونكبة وموت فيلجأ إلى بداهة القوة العليا المهيمنة على عوز البشر وبؤسهم، ويبتهل إليها مستسلماً لعوامل رحمتها وأحكام حكمتها. هذه هي البواعث الأساسية للشعور الديني الذي يسبك فيما بعد كل نفس في قالبها الخاص. ولقد كانت العاطفة الدينية حية كل الحياة عند شاعرئنا، وقد سمعت من شقيقتها المفضال أحمد تيمور باشا، أنها كانت تقية تصوم وتصلي وتقوم بجميع الفرائض الدينية. على أن شعرها الديني لا تعمق فيه ولا روعة. هو كسائر شعرها، يتناول النواحي المألوفة المتداولة. ويمتزج بالعاطفة الأخلاقية من حيث الإعتراف بالذنوب والرغبة في التوبة، ومن ثم يبدو فيه الإستعداد لساعة الرحيل، وذكر هذه الساعة يحملها على وصف ما يحول في القلوب من طمع حيال سرير المحتضر أمام حشرجة

التزع، حتى عند هيل الثري على نعوش الأقربين. وفي هذه الأبيات سخرية طفيفة في مس من الكآبة على ما يبذله الحي من مجهودات لحشد المال:

أراك بلمتــي، يــا شــيب، عظنــي		وقــد حــان الرحيــل غــداً، أمــلي!
فــأول مــا نــري حــدث مهــول		تهيــل ثــراه كــف أخ وخــل
وقــد رجعــوا كــأن لــم يعــرفوني		وهــم نســي وأبنــائي وأهلــي
وتشــتغل البنــون بقســم مــال		أنــا مــن حشــده فــي عظــم شــغل

وليست عائشة بغريبة عن الشعور بحيرة النفس وترددها بين ما يخالجها من عوامل الإغراء بملذات العالم وبين نزعتها إلى البر والتقوي:

كيـف المسير إلى أرض المني وأنـا		بطاعـة النفس في قيـد الضلالات؟

والجواب في الابتهال الذي ألقناه عند عائشة، وهو الذي يدعو إلى نعت هذا الشعر بالإبتهالي:

إن كــان عصيــاني وســوء جنــايتي		عظمــاً، وصــرت مهــدداً بجــزائي
فقضــاء عفــوك لا حــدود لوســعه		وعليــه معتمــدي وحســن رجــائي
يا من يري ما في الضمير ولا يري		إنــي رجــوتك أن تجيــب دعــائي
يــا عــالم الشــكوي وحــر توجعــي		دائـي عظيـم الفـرح، جـد بـدوائي!
بحبيبــك الهــادي ســألتك دلنــي		لعــلاج أمــراض وجلــب شــفائي!

وهذا الشعر المبتهل من شاعرة مصرية شرقية مصرية مسلمة يعيد إلى ذكري القديسة تريزا الإسبانية الأوروبية المسيحية، التي عاشت في القرن السادس عشر وأسست رهبة الراهبات الكرمليات، وقد لقبت "بالعذراء الساروفيمية" نسبة

إلى الملائكة الساروفيم لفرط تقواها، ونقاء نفسها، وروحانيتها الحارة، وشغفها بالسيد المسيح الذي كانت تتخيل أنه يتجلي لها ويخاطبها في ساعات الإنعطاف والرؤيا. وقد نظمت شعراً ابتهالياً جميلاً في لغتها الإسبانية، أشهره نشيد وجيز ترجو فيه من الله أن يمن عليها بالموت لتتجرد من ثوب التراب فتراه عندئذ وجهاً لوجه. فهي في ذلك النشيد الملتهب تقول:

نشيد القديسة تريزا

"أحيا دون أن أحيا في نفسي، وانتظر حياة هكذا رفيعة – حتى أني لأموت لأني لا أموت.

"وأني ليزيد في كلفي

"أن أرى إلهي لدي سجيناً حتى أني لأموت لأني لا أموت.

"انظر كيف أذوب شوقاً إلى رؤياك، ولا طاقة لي على الحياة بدونك، حتى أني لأموت لأني لا أموت.

"فمتى يتسير لي، يا إلهي، أن أقول القول الفصل بأني أموت، لأني لا أموت"!

ولكن الفرق بين الشاعرتين أن القديسة المسيحية واثقة من رضي الله عنها، عالمة بحبه لها، وإنما تعذبها قيود الجسد التي تشد وثاقها بالأرض وتحول دون فناء روحها في روح الله. ففي صيحتها شيء من التدلل على المحبوب، وفيها كذلك صدحة الشوق والنشوة والظفر، أما التيمورية فمبتهلة في لهجتها.

ولكأنما كانت تيأس لولا رحمة الله الواسعة ولولا شفاعة النبي الكريم الذي تلوذ بحماه وتترنم بمدحه وتمجيد أمته:

طه الذي قد كسى إشراق بعثته ... وجه الوجود سناء الرشد والكرم
طه الذي كللت أنوار سنته ... تيجان أمته فضلاً على الأمم
نعم الحبيب الذي من الرقيب به ... وهو القريب لراجي المجد والنعم
روحي الفداء ومن لي أن أكون له ... هذا الفداء، وموجودي كمنعدم
وما هي الروح حتى افتديه بها ... وهي البغاث بغار الظلم والظلم

ومنها:

ولا يحيط به مدح ولو جعلت ... جوارحي ألسنا ينطقن بالحكم
وما سوى عز كوني بعض أمته ... ذخراً أفوز به من زلة الوصم
إلا التماسي عفواً بالشفاعة لي ... من خاتم الرسل خير الخلق كلهم

رأينا في هذه المقابلة الصغيرة. أنه كما يتلاقى البشر في أبحاث العلم وضروب الفن والأدب والفلسفة والحكمة، وكما يتفاهمون بالحب وابتغاء الخير العام وبالمعاني الإنسانية الرفيعة، فكذلك تتوحد عواطف البر والتقوى وجب الله في قلوب الصالحين.

امرأتان مختلفتان ديناً وجنساً وقارة، تعيشان على تباعد ثلاثة قرون وتزيد، في بيئتين، كل منهما غريبة عن الأخرى، وهما مع ذلك تناجيان إلهاً واحداً لا إله إلاه، وتصليان صلاة واحدة مخالفة لأمل وبالاتكال وبالثقة في لغة الغرب وفي لغة الشرق على السواء.

وبين ما يبدو الآن في الشرق من جديد العوامل والنزعات، نجد الدعوة إلى وحدة قومية ووحدة إنسانية مع احترام العقائد الدينية، وترك الحرية لكل فرد يتمتع بها دون التعدي على حرية أخيه ودون أن تعمل هذه العقائد المتباينة على تفريق الكلمة وتمزيق الشمل. وأسجلها مفخرة لعائشة أن تجيء يقول له، فوق قيمته التاريخية والأدبية، ما يمكننا من هذه المقابلة الجميلة فيتيح لنا الإلماع إلى هذه الوحدة النبيلة التي يتفشى الآن حبها في ربوعنا، والتي يتصافح عندها ويتصافي بنو الإنسان.

الفصل الثامن

نثرها

١ – كتاب "نتائج الأخوال"

٢ – كتاب "مرآة التأمل في الأمور"

نتائج الاحوال

أما الشعر فقد قرضته عائشة تحدياً لبعض من سبقنا من "ذوات الخدر والأحساب"، أو كما قالت:

ما قلته إلا فكاهة ناطق   يهوي بلاغة منطق وكتاب

وأما النثر فقد عالجته لملء ساعات الفراغ الطويلة التي لم تكن لتستفدها محبة الأبناء وواجبات المنزل، ولياقات المجتمع، وفروض العبادة، ونظم القصائد، وقد شعرت قليلاً قليلاً بأنها تحب أن يكون لديها بلاغ تؤديه إلى قومها. وأما هذا الكتاب خاصة "نتائج الأحوال"، فهي تطلعنا في مقدمته على بواعث إنشائه وتخبرنا كيف كانت دواماً تميل إلى استقصاء أحاديث السلف وتحب مسامرة الكبار ومجالسة العجائز لتسمع أخبارهم "وألتقط من تلك النوادر أعاجيب القدر". ولما تم لها ذلك وأنشأت تطالع "من التواريخ ما قدرت قدرتي أن تدانيه، وما أمكن فكرتي فكرتي الخامدة أن تصل إلى معانيه"، "ولما تأملت في سير الأمم، وتحققت أن السعد والنحس منوطان بالقدر من القدم، وقد شاهت والله في نفسي صدق هذا الخبر.. فدعتني الرأفة بكل مغبون لقي ما

لقيت، ودهي بما به دهيت، إلى أن إبداع له أحدوثة تسليه عن أشجانه عند تزاحم الأفكار"..

إذن فلتعمد هي إلى تخيل الخيالات ونسج الحكايات. ولن يكلفها ذلك أكثر من جمع شئات ما قر في ذهنها من حكمة العجائز وما يتطابق وإياه من تجاربها الشخصية، لندوين آراء شائعة مقبولة في أحوال هذال الناس:

في السعد والنحس، في الصبر والمواساة، في الخيانة والوفاء، في الحب والكراهية، في القضاء والقدر، في التربية والأخلاق، وفيما يستتبع المصائب والرزايا في النفس الرشيدة من تقويم ورجوع عن الغي والضلال.

"نتائج الأحوال"، هو بالجملة من رواسب تلك القصص التي سمعناها في طفولتنا، خلال الليالي الساهرة في زمهرير الشتاء وهزيم الرعد وتدفق الأمطار. فتمتعنا منها بلذاتين اثنين: لذاذة التحرز من غضب الطبيعة وصيقعها في ملجأ دافئ، ولذاذة الاستماع إلى سير الملوك والأبطال والجان والعاشقين يتصرف بهم القضاء والقدر، لينتهي بنا الأمر في الغالب إلى اندحار الشر وانتصار الخير.

فإذا تطلعت إلى خلاصة "نتائج الأحوال" فهب أنك تصغي إلى في ليلة صاقعة ممطرة وأنت في ثوب الطفل الغرير، ففي هذه الحال تتذوق حكايتي بما فيها مما وعيته من أقاصيص الماضي الساذج.

هذه ككل قصة قديمة تحترم نفسها، فيها ملك وابن ملك ووزير ونديم، وعريس وعروس، وغير ذلك كثير. وإليك أسماء أهم الشخصيات:

العادل – ملك عظيم صالح منصور.

الممدوح – ولي عهده، محور آماله ومظمح آمال الشعب. وهو بطل الحكاية.

عقيل – الوزير. وهو واسع الإدراك حاذق التدبير، وقد فوض إليه الملك أن يدير شؤون الدولة.

مالك – النديم. ويظهر أنه على غير ما يستحسن في النديم من عذوبة المنطق وبراعة الظرف ولطف السمر "ولم يبد من أولئك شيء في سياق القصة"، فهو ذو مواهب خلقية كالوزير من حيث الاستقامة والوفاء والحصافة وسعة الإدراك وحسن التدبير. قد يحار علماء النفس حيال مثل هذا التركيب السيكولوجي، لكن حيرتهم لا تغير الواقع.

دشنام – قيم على خزينة المال.

غدور – قيم على خزينة السلاح.

بوران – ابنة ملك العجم وخطيبة الممدوح. مشهورة بسداد الرأي، وذكاء العقل، وحسن الإدارة.

أما "حبكة" القصة فمنشأها أن الملك مولع بولده، شأنه شأن الكثيرين من الآباء في الشرق من حيث يسيء فهم المحبة الوالدية ويحسبها قائمة في إنالة الولد جميع مطالبه وعدم التعرض لصد أهوائه. أخذت تظهر نتائج هذه التربية السيئة في سلوك الغلام وفساد أخلاقه، فلم يجرؤ على لفت الملك إلى ذلك سوى الوزير والنديم. لكنهما لم يحدثاه في ذلك مباشرة، بل في حديث رمزي طويل ذكرا فيه حديقة فيها غصن لم يحسن تقليمه. فأدرك الملك اللبيب غرضهما، وأفحمته حجتهما، وندبهما لتثقيف ولده وتلعيمه.

فقاما بذلك خير قيام، وبدت نتيجة جهودهما في زمن قصير يتحول التلميذ النجيب عن وجهة الطلاح والجموح إلى وجهة الصلاح والسجاحة.

ولا تسل عن سرور الملك! إنه عبر عنه تعبيراً فاخراً بالطريقة التي ألفها ملوك الحكايات في عطفهم على من يحسن في سبيلهم البلاء، ويخدمهم في صدق ووفاء.

وإزاء هذين الرجلين الأمينين لمولاهما، ولوظيفتهما، وللمصلحة العامة "إذا جاز مثل هذا التعبير في الحكايات القديمة" نجد مثالاً شنيعاً للحسد والخيانة والدسيسة في القيمين دشنام وغدور. فقد أخذهما الاستياء من نجاح الوزير والنديم. فدأبا ليفسدا عليهما الأمر بتملق الأمير الصغير وإيغار صدره على هذين اللذين يقصيانه عن أندية اللهو والمرح، ويبعدان بينه وبين والده بحجة التعليم والتهذيب، بينا هما في الواقع يكيدان له لانتقاض سطوته وكرامته وتنغيص حياته.

وتبع ذلك جهاد صامت عفيف بين الفريقين: فتارة ترجع عند الأمير كفة الإخلاص والاستقامة، وتارة يستسلم لصوت الوشاية والإفتراء.

وتم الفرز للدساسين في النهاية، لأن الحقيقة كثيراً ما تتخاذل وتتوارى في تعمل الغيرة والتفادي، وكثيراً ما يظفر الخونة والمحتالون، فخرج الفتى على أستاذيه الصالحين، وقاطعهما، وتوعر خلقه، وتفاقمت شراسته.

وأراد الوزير أن يتلاقي الأمر بالتي هي أحسن، فاقترح على الملك أن يزوجه.

فوافق الملك على هذا الاقتراح. وأنفذ وزيره إلى إيران يفاوض ملك العجم في خطبة ابنته بوران المشهورة بسداد الرأي، وذكاء العقل، وحسن الإدارة.

ومضى النديم إلى "الصين"؟ لإحضار أمتعة الزواج وجهاز العروس.

وخلا الجو للدساسين قرب التلميذ المنقلب عريساً بين عشية وضحاها.

فحزن الملك جد الحزن لشراسة ولده، وتعاون الغم والشيخوخة على تهديم صحته وأشرف على الموت. وماذا عسى يصنع المشرف على الموت؟ إنه يستدعي إليه ولده ليزوده بالنصائح. وذاك ما فعله الملك العادل. بيد أن المنية عاجلته قبل أن يمعن في الكلام، فقضى نحبه بين ذراعي ولده مأسوفاً عليه من هذا الولد المسكين.

وهنا – وقد سنحت للدساسين الفرصة التي تربصا لها طويلاً – قام القيمان بتمثيل الفصل الثاني والأهم من دورهما. فأوهما الشعب بأن الملك ما زال على قيد الحياة، غير أنه لمرضه وضعفه عهد إليهما هما القيمان بإدارة شئون الدولة وشئون ولده. وأنفذا الفتى إلى المجلس يحمل كتاباً مزوراً في هذا المعنى، والفتى في حزنه على والده مشرد الفكر، لا يعرف مضمون الكتاب. ومن ثم يجهدان للتخلص من هذا الفتى فيفوضان أمر الفتك به إلى عبدين يقودانه إلى خارج المدينة للقيام بمهمتهما الغادرة. لكنهما تأخذهما الشفقة عليه، فيكتفيان بإبعاده إلى مكان لا يستطيع العودة منه إلى المدينة.

ومن الناحية الأخرى، لا يفوت القيمين الأفاكين إبلاغ الوزير في إيران بأن الأمير عشق صبية من بنات الإفرنج وجرى في أثرها، فعلى الوزير أن يمضي في العالم ليبحث عنه. ويكتبان إلى النديم أن الأمير خرج إلى الصيد فشرد به الجواد وأنساب ذاك الفرس إلى ضيعة حرسها عبيد فليجدن إذن في طلبه بين

العبيد. أين ذلك؟ هنا على مقربة منا، يا أصحابي، في السودان! أجل، في السودان.

وها هو ذا صاحبنا الوزير يطوي البراري والقفار، وينتقل من دار إلى دار: وها هو ذا صاحبنا الآخر، النديم، يذرع شواطئ النيل في أعاليه، ويفتش في أقاصي السودان وأدانيه. وينقضي زمن غير قليل وجميع أقطاب القصة "بما فيهم أنا التي أقرأ لألخص" في مثل تيه بني إسرائيل يعمهون! وليس من سبيل يتبع في "نتائج الأحوال" سوى اشتباك القصة الصغيرة بالقصة الصغيرة، وارتباك هذه بقصة غيرها، على نحو حكايات "ألف ليلة وليلة" و"كليلة ودمنة". وإذ كنت أنا وأصدقائي أشخاص الرواية نجوب الكتاب لنعثر بعضنا على بعض فلا نفوز بغير التطوح والتنائي، كم ذا سألت الله أن يأخذ بيدنا فيجمع شملنا ويرد لهفتنا! لا سيما الفتاة العروس بوران التي ما علمت بما جرى لخطيبها حتى طلبت الانفراد في عزلة عن الناس. وأراد والدها أن يزفها إلى أبن اخيه ليتدارك الحال ويحول مجرى أفكارها قبل الاستفحال في الجوي. لكنها أبت، وفرت إلى حيث لا يعثر عليها! لأنها على نحو ما ينشد الشيخ سلامة حجازي في الجراموفون:

عرفت هواكم قبل أن أعرف الهوى فصادف قلباً خالياً فتمكنا

وكم كان يغيظني أننا بين نحن "أي أنا والصلاح من أهل الرواية" تعبث بنا الأقدار وتجد بنا النوى فنتقلي على مثل جمر الغضي، إذ بالغاصبين الخائنين يسرحان في بغداد ويمرحان، لهما تضرب المدافع وتنتشر الألوية، ولهما تقدم الرعية فروض العبودية والإكرام!

بيد أن للأيام دورتها، وأخذت تتحول الأمور على ما يرام. فتلاقي بدوياً الأمير والنديم فعجلا بالذهاب إلى إيران، حيث تسوق الفتي أشواقه.

فهو كعروسه. قد وقع الهوى من نفسه مكاناً بعيداً. وظل في مصائبه ويأسه يلازمه خيال الفتاة التي وعدوه بها دون أن يعرفها. وكان للأمير والنديم في إيران رحلات عديدة غير موفقة. إلى أن أقبلا أخيراً على جبل شاهق فإذا هناك إشارة تركها لهما الوزير تدعوهما، فيما لو اهتديا إليها، إلى العراق مباشرة.

فعادا مباشرة إلى العراق واجتمعا بالوزير وهو في زي ناسك، ولك أن تطلق هنا العنان لمخيلتك فتتصور ما شاء لك التصور من سرور وحبور، من بكاء وإغماء، يتلوه يقظة، فسلام، فكلام يناسب المقام. وانضم إلى هؤلاء الثلاثة العبدان اللذان أبقيا على الأمير، وكان المقيمان الغاصبان قد أرادا الإيقاع بهما لانكشاف فعلتهما، فأخفق الخائنان ونجا العبدان الوفيان. وكان هذا التلاقي مبعثاً لمؤامرة طويلة، وقد آل كل من المتآمرين على نفسه ليصر عن الآفة بالآفة، ويفلن الحديد بحديد مثله، وآزرهم طبيب الملك، ودبر لهم الحيل، فكان الفوز حليفه في كل ما دبر. فأوفد إلى أصحابه المتآمرين عدداً من الرجال، وحفروا نفقاً يمتد إلى قلب المدينة ويفضي إلى خزانة الدولة! وأبى السعد إلا أن يكلل مساعيهم بالنجاح وإلا أن يهيئ لهم الأفراح والليالي الملاح، فلم شملهم بالعروس بوران! لست بواصفة لك مشهد اجتماع العاشقين السعيدين بعد طول الفراق! حسبي أن أتمنى لك مثل هذه الساعة مع من تهوي.. وعندما آن الأوان ليثوب كل من الحبيبين إلى رشده، جاهرت الفتاة برغبتها في العودة إلى الوطن بلادي بشرفي – تقول بوران: وأدخل قلعة أبي بصيانتي ثم يبعثني هو إلى هذا العزيز بالصيانة". وكذلك كان.

وعاد الأصحاب بعدئذ إلى إتمام أعمالهم ففاجأوا البلاد بدخول الأمير منصوراً وقبضوا على الخائنين. وتتابعت الحوادث والمشاهد بمثل سرعة الصور المتحركة، منه: موكب الملك – المدافع تقصف والطبول تدوي – هيجان بغداد وأفراحها – فوز الحق والصلاح وانهيار الغدر والطلاح – مجيء العروس في موكب بديع – المناداة بالممدوح خليفة وأجلاسه على "التخت" – أفراح – أنوار – أفازيج – زينات – شموس مجلوة – بدور منيرة – وفوق كل ذلك خطب وأشعار! وبات العروسان يديران كئوس المراد السكرية ويتداولان أقداح الوداد العبقرية".

وفي القصر أقيمت بالطبع حفلة "تشريفات" لمناسبة الجلوس المجيد والزفاف السعيد. فتقاطر المهنئون، وتليت رقاع التهاني، ووزعت الهدايا من العروس على أرباب الدولة. وجادت قريحة الملك فانبرى يخطب في الجموع شاعراً ناثراً، ويمتدح النوائب التي هذبته وعلمته الصبر والحكمة.

وهاكم أبيات من نظمه:

واشتاقني عزي كشوقي للمني	مذ كنت ألقي لاعج اللوعات
فلدت سيف الصبر كي بجرازه	أسطو على محن الزمان العائي
حتى قطعت به حبائل محنتي	وسلكت نهج الرشد في طياتي
وأنا المقر بما جئيت، وليس لي	عذر سوى أسفي على هفواتي
فلأشكرن شدائد لو لم تكن	ما كنت أدري زلتي لمماتي

أدركني العيساء في مراجعة هذه القصة المكتوبة بلغة "المقاومات"، ذات الكناية والسجع الطويل، غير أن مطالعتها ومطالعة أمثالها تتحتم على الباحث عن

مصدر التطور، وهذا الفن بارقة للفن القصصي الحديث عندنا، ذلك الفن الذي ما زال في لغتنا جنيناً، ولم يبلغ قط عند العرب طور النضج والقوة.

تاريخ الفن القصصي عند العرب يتلخص في سطور وجيزة. فقد نشأ في القرن الأول للهجرة مستنداً إلى تاريخ الجاهلية، وظل في نمو يقتبس من التاريخ ومن الخيال معاً حتى القرن الرابع. فجاء بتلك القصص أمثال "الجمهرة" و"عنترة" و"بكر وتغلب" و"شيبان وكسرى أنوشروان"، وغيرها من قصص الغرام مثل "مجنون ليلى" و"جميل بثنية". وما إلى ذلك من عديد القصص التي اندمجت بعدئذ في كتاب "ألف ليلة وليلة".

وقد ألفت العرب كتباً لا أصل لها في الواقع إنما استمدت موضوعها من العلم إلى الخيال والحكمة جميعاً. وربما كان أنفس تلك الكتب "أسرار الحكمة المشرقية" الذي روي ابن طفيل الأندلسي أنه لخصه عن كتاب كبير من وضع الرئيس ابن سينا، حيث هذا الحكيم صور نشأة الإنسان وألمع إلى نظرية التطور. أما كتاب "ألف ليلة ولبلة" فهو فارسي الأصل. وقد وضع أصله في القرن الرابع فتناولته أيادي النساخ، بالإضافة والتحريف فكان كل منهم يزيد عليه وينقص فيه ما شاء، وذلك حتى القرن العاشر.

ووقف الفن القصصي بجمود اللغة مدة ثلاثة قرون. فحكاية عائشة بعيوبها ورواسبها تجربة أولى في النزعة المتجددة، لا سيما فيما يختص بالأدب النسائي. إذ لا علم لي بامرأة عربية اللغة وضعت قصة تامة قبل عائشة.

فهي بتجربتها هذه من رواد المنهج الجديد.

والرواية بعيوبها ذات مغزى أخلاقي. لأن واضعتها جعلت سوء تربية الممدوح وعجزه عن تمييز الصديق من العدو منشأ مصائبه. فقد رأى عدواً فيمن يحسن إرشاده، ويعلمه كبح أهوائه، وينبهه إلى واجباته ومسئولياته.

وحسب صديقاً من حفز طيشه وغروره، وملق منه الزهو والعجرفة، وشجعه على العبث بكرامة الناس وكرامته الشخصية. فعوقب بنتائج ضلاله. ولكنه يوم قاب واعترف بخطئه، بعد أن أتمت المحن صقله وهيأته لمنصبه، عادت إليه حقوقه ومسراته وحقق جميع رغباته. ومن ثم اسم "نتائج الأحوال".

أما الحياة فتتصرف معنا، بني الإنسان، على هذه الكيفية فقد يحدث أحيانا، ولكن نقيضه قد يحدث أيضا. فقد يتفق أن يعلو صوت الحق، وينتصر الصلاح، فيظفر المرء بما هو له في الحكم الطبيعة والقانون والكفاءة، وقد يثاب المرء عن الخير خيراً، وعن التضحية كرامة ولكن كم ذا يفوز الشر، ويغلب الظلم والخداع، كم ذا يجار على صاحب الحق في جميع القوانين البدهية والمشروعة! وكم يتألب الناس على سحقه وإهلاكه، وما له من ذنب سوى الإخلاص والتفادي!

وما كان أعدل الدنيا وأنصف الدهر، لو عامل كل بما يأتيه، وكان حقاً من نوع العمل.

على أنه لا مندوحة لنا عن الأخذ بالمبادئ الأخلاقية ونشرها. ولا بد من تلقين النشء دروس الصدق والاستقامة والصلاح مهما عصفت حولها الشرور والأكاذيب والمفاسد، لأنه ينطبق على المبادئ الأخلاقية السامية ما قاله قوله الجاحد في الألوهية: "لو لم يكن الله موجوداً لوجب أن نخترعه"!

أجل، يجب أن نخترع الأخلاق السامية لو لم تكن موجودة. لأنها من المواهب الفكرية والذهنية، إنما هي لباب الفضل في الإنسانية، وهي التي لا يتغلب عليها مذهب سياسي ولا تدرك قواعدها ثورة اجتماعية، فعلى من يستطيع تأييد نشرها أن يفعل، ليذكرنا على الدوام بأن الدنيا ذخيرة من أنفس ذخائر المثل الأ على الذي لا يقتصر على جيل أو على فرد، بل تتعاون الجماعات والدهور على تمثيله وتحقيقه.

مرآة التأمل

الشائع أن "باحثة البادية" كانت أول مصرية عالجت الموضوعات الاجتماعية، وقد سبق أن أبدت هذه الفكرة قبل الاطلاع على نثر التبمورية.

فأستدرك اليوم لأسجل الأسبقية لعائشة التي كتبت في هذه الموضوعات في صحف عصرها وفي "مرآة التأمل في الأمور"، وهذه رسالة وجيزة في ١٦صفحة من القطع الكبير. ليس لهذه الرسالة من تاريخ يؤقتها، إلا أن كاتبتها ختمتها (على طريقة ذلك العهد) بامتداح لسمو الخديوي السابق، عباس حلمي باشا، فقد نشرت إذن بعد توليته، أي بعد ١٨٩٢، وفي السنوات العشر الأخيرة من حياة التيمورية لغة هذه الرسالة ككل ما نثرت عائشة، وهي لغة المقامات ذات السجع والتطويل، وهي تستهلها بالشكوي وتفكر. "لعلى أرى لسماء الصفو هلالاً ولعقد الأزمة انحلالاً".. ويظهر أنها عثرت على "انحلال لعقد الأزمة" أو ما يشبه ذلك، لأنها "فناداني زعيم الجسارة هلمي إلى مقصورة السلامة، ولا تحذري الانتقاد والملامة، وعليك بإيضاح الدعوى".

وهنا قامت و"زعيم الجسارة" ذاك – ولعله صديق خيالي – بتخاطب حفل بتفخيم السجع شغل صفحتين اثنتين. فوصلنا أخيرا في أول الصفحة الرابعة إلى

"إيضاح الدعوى". وما هي سوى انقلاب الأدوار بين الرجال والنساء، وتسرب الفساد إلى داخل الأسرة. وتفصيل ذلك عندها أن جماعة من الشبان "غرهم الله بالغرور حتى إن كل إنسان هم بالاقتران من وضيع ورفيع وخامل ونبيه، كان كل بحثه عن الحلي والحلل والضياع والعقار، لا عن النسب والتدين والعفة والوقار". ذلك ليتمتع بما تمتلكه ربات الجمال"، ويريح فكره من الأتعاب ويستغني عن الجهد في الاكتساب، ويسلم الزمام للهوي"، مكتفياً "بتلك الثروة المستعارة، وما درى بأنه واقع في حبائل الخسارة، فتحتاط به أقرانه". "ويقوم جيش المداهنين بين يديه".

"ويظل الزوج بين لهو وتبذير حتى ينفذ من يده الدينار والدرهم، وإذ يعود إلى البيت تقابله الزوجة بالسخط والنفور، ولا يلبث أن ينتقل النفوذ والسيطرة إليها، لأن الزوج عاجز إلا عن القصف والتبذير" "وحق الزوجية لا يتم إلا إذا كان كل واحد منهما يرعي الآخر فيما له وعليه. فعلى الزوج أن يقوم بكل حقوقها ومصالحها، كما يجب عليها طاعته والانقياد لأمره".

فإذا انقلب الرأس عقباً فكيف تستقيم الأمور؟ وكيف "لا تلقي المرأة وشاح الحذر وترمي برقع الحياء"؟

أتكون الزوجة صابرة كتوماً، دفعاً وحذراً من ذيوع الفضيحة، "فدفئت هذا الويل يحدث قلبها الحزين الولهان"؟ إلا أن الكتمان لا يداوي علة، والتجلد لا يفتأ غله، بل تجذب في نفسها مادة الحياة و"بدلت القصور بالقبول" إذن فالبشرى للزوج الذي لا يرثي ليتم الأطفال، "بل يأخذ من الميراث ما لقي وأبقى، ويجعله صداقاً لمن يلقيها في أكفة الشقاء".

أم تكون المرأة سليطة اللسان وإذ تضيق بالحياة ذرعاً تعمد إلى اللوم والمشاجرة؟ إذن تبدأ حياة هي الجحيم، إذ لا مقدرة للرجل على زجرها وإسكانها. فيهجر بيته إلى الحوانيت والحانات، "وإذا أتى المنزل نام في الحال خوفاً من المرافعة في القيل والقال".

فكيف تسكت النساء على ضياع شبابهن ونضارتهن وأموالهن وآمالهن في السعادة والهناء؟ إن الحزن والأسى ليلهب قلوبهن! فتمضي الواحدة منهن إلى الجارات مستجيرة من عذابها وكربها. فإذا هي وقعت على امرأة فاضلة تهون عليها الأمر صمتت لحين استئناف الأزمة الجديدة. أما إذا ساقها سوء الطالع إلى تلك الدور التي تبدل منها الصون والحصانة باسم الحرية العصرية، فهناك تغريها من سفلت أخلاقها فتستسلم المرأة وتخرج عن جادة الحشمة. عندئذ يغار الزوج ويقوم بالتهديد والوعيد، ولكن كيف تعبأ المرأة به وبكرامته وهو لم يعرف لنفسه واجبات ولم يقف شروده عند حد؟

هذا منشأ الشقاء على ما يبدو للتيمورية. لذلك ناشدت الرجال في آخر الرسالة أن يصغوا إليها، ورجت منهم "ألا تنبذوا خطاب هذه الضعيفة ولا تقيسوه بأقوال النساء السخيفة".

وقد لبي الرجال هذه الدعوة، بداهة أو اختياراً. فالنقد الاجتماعي الذي سيعالجه قاسم أمين بحصافة ولذعية، قد سبقته التيمورية بهذه الدعوة إلى الإصلاح، لأن الكتاب الذي وضعه قاسم أمين بالفرنسية رداً على الدوق داركور صدر سنة ١٨٩٤م وعقليته لم تتفتق فيه عن تلك الثورة النبيلة الكامنة التي شبت في كتابيه "تحرير المرأة" و"المرأة الجديدة". وقد صدر الكتاب الأول سنة ١٨٩٨م وصدر الآخر في ١٩٠٠م.

لا تصلح العائلات إلا بتربية البنات

يقول ابن أخي الشاعرة، الأستاذ محمود تيمور، إن التيمورية نشرت مقالات في جريدة "المؤيد". وأرجح أن خير تلك المقالات أدرجتها زينب فواز في كتابها "الدر المنثور" وقالت إنها اقتبستها عن جريدة "الآداب" الصادرة يوم السبت الموافق ٩ جمادي الثانية سنة ١٣٠٦ الهجرية، أي سنة ١٨٨٨م، قبل أن يكتب قاسم أمين في هذا الموضوع باثنتي عشرة سنة تقريباً.

أرجح أن هذه خير مقالاتها لأن عائشة كانت وزينب فواز على اتصال وائتلاف. وقد ترجمت زينب لعائشة في حياتها واستقت منها مصادر تلك الترجمة لما فيها نص مراسلتها ووردة البازجي نظماً ونثراً. كما أنها صدرت كتاب "الدر المنثور" بخطاب من عائشة كله ثناء وتقريظ، على طريقة يومها، ولما أدرجت هذا المقال دون سواه فأكبر الظن أنها فعلت بإشارة التيمورية، أو أنها فضلته على غيره نظراً لمحتوياته.

إنه لأثر نفيس حقاً، لأنه بكر في لمس موضوع خطير. وخير ما تنتهي إليه مباحثنا اليوم ليس بأصدق نظراً، ولا بأصوب حكماً مما جاءت به عائشة منذ ٣٧ عاماً.

عنوان هذا المقال هو "لا تصلح العائلات إلا بتربية البنات": وكما أنها في "مرآة التأمل في الأمور" تجعل منشأ الشقاء في بحث الرجل عن الثروة ليسيء بعدئذ التصرف بها فيهدم بيته بيده، فهي في هذا المقال تلوم المرأة على إسرافها في الزينة دون انتباه إلى واجباتها، وترى في ذلك مبعث الخلل والفساد، وتعجب "من مدنية تشغف بتزين فتياتها بحلي مستعار، وتستعين على إظهار جمالهن بزخرف المعادن والأحجار، وتتخيل أنها زادتهن بساطة في الحسن والدلال،

والحال أنها ألقت تلك الأحداث في أخدود الوبال، لأنه لا يعد عليهن من تلك المستعارات إلا العجب والغرور المؤدي بهن إلى ساحات المباهاة والفجور. وذلك لكف بصيرتهن عن الإدراك وعدم علمهن نتائج الأحوال وعواقب الأمور.

موضوع زينة المرأة قد يشغل كتاباً أو كتباً لمن يريد أن يتناوله من وجهه المهم دون الاكتفاء بالإرشاد، أو بالتهكم، أو النقد الجارح، لذلك ألقى هنا بكلمة فقط. أعتقد أن من طبيعة وجود المرأة أن تكون جميلة، كما أن من طبيعة وجود النوعِ الإنساني أن يكون ذكياً نشيطاً. وكما يصقل المرء ذكاءه بالمعرفة والتجربة والإطلاع، فكذلك تصقل المرأة جمالها بالزينة والأناقة والكياسة.

الفتاة معدة لتكون ربة منزل، وأم عائلة، وسيدة مجلس زائرة ومزورة وليست معدة لتنزوي في حياة الذهد والرهبانية. فيجب أن تنشأ على ما أعدت له من إبهاج المنازل وتزيين المجتمعات، وبث اللطف والأنس في كل ناحية تحل فيه. ولما كان عليها أن تبهج برخامة صوتها، وحلاوة ابتسامتها، وظرف حديثها، فعليها كذلك أن تروق النظر بحسن هندامها فالعيب إذن ليس في ميل المرأة (والرجل كذلك) إلى الزينة، ولكن في المغالاة بإرضاء ذلك الميل، وعدم الخضوعِ لقواعد الذوق السليم في التصرف بمظهره. والغلو عيب في كل أمر، وسقم الذوق نكبة دائمة.

وللتوفيق بين تنظيم الزينة والاقتصاد فيها ف على الفتاة أن تتعودها منذ نعومة أظفارها. بعكس ما تجري عليه أكثر المدارس، إن لم نقل كلها، في تجريد البنات من كل حلية وإفهامهن أن الزينة لا تجوز إلا بعد الخروج من المدرسة، فينلن حريتهن من هذه لوجهة متأخرات، أي أن الحرية في الزينة تفاجئهن مفاجأة بدلاً من أن يتعودونها شيئاً فشيئاً، فيكون شأنهن عندئذ شأن من وجب عليه أن

يربي نفسه تربية جديدة تناقض تربيته السابقة من كل وجه. ومن هنا عدم التوازن والإتزان، وعدم وضع الشيء في مكانه، وإغراق في إسراف الوقت والدرهم، والغلو في الأخذ بأهمية الزينة. ومن هنا زعم أكثر النساء بأنهن لا يتجملن أصلا. والواقع أن أكثرهن زعماً وتنصلاً أوفرهن تبرجاً وتجملاً، إلا اللائي يأبي التجمل أن يتناسب و "طرازهن" الطبيعي وشكلهن.

ولو شبت جميع الفتيات على اعتبار الزينة المعتدلة المعقولة الفنية جزءاً من ترتيب هندامهن على ما يناسب شكلهن وقالبهن بحكم الذوق والزي السائر، لما أتفقن في سبيل ذلك وقتاً طويلاً ولا بدا ذلك فيهن تكلفاً وعملاً مستثني، بل لا تندمج في عاداتهن وصار طبيعياً. وإذا لما رأينا المرأة في كثير من العائلات الشرقية بأثواب رثة قذرة بين زوجها وأولادها، بلا لياقة ولا حاسة فنية. حتى إذا استقبلت ضيوفاً أو خرجت للزيارات ارتدت أفخر الأثواب وازدانت بأنفس الحلي، فبدت في كل أولئك غريبة بطيئة الحركات مرتبكة السكنات، وكأن كل جارحة فيها تنطق بأنها "مطقمة بزي الآحاد والأعياد" على نحو قول الفرنسيين.

لو درجت المرأة منذ الصغر على الزينة المعقولة لأدركت أن هذه الزينة جزء من جمالها وأنها تعالجها لنفسها لا للناس، ولامتدت عنايتها تلك إلى منزلها فلا تقصر ترتيبه وتزيينه على يوم الاستقبال في الغرف والردهات التي يراها الزائرون والزائرات، في حين هي تبقيه في سائر الأيام على أسوأ ما يكون من التشويش والارتباك. ولامتدت تلك الأناقة غير المصطنعة إلى أفكارها، إلى آرائها، إلى عاداتها إلى نظرتها في الحياة. فالمزية الواحدة، حتى إن كانت خارجية، تستطيع أن تتناول نواحي شتى، كما أن العيب الواحد قد يهدم حياة بأسرها. ومواعظ المصلحين لم تجد نفعاً على طول الأجيال، لأن حب الجمال

في الإنسان أعرق من أن يعوله الإرشاد، وليت الإرشاد ينقلب تحويلاً إلى الأخذ بالوسائل المغرية بتوقيت الزينة وتنظيمها.

طويلة حاشيتي هذه بعد كلام التيمورية، لكنها غير دخيلة ولا هي تافهة. فمن حق الجميل أن يطمع في المزيد، ومن حق غير الجميل أن يقلل من دمامته، ويسترها، محاولاً إظهارها بالمظهر غير المستنكر.

ورغم إنكار الغلو في الزينة الفارغة، فإن التيمورية ترى أن أعنف العتب يقع على الرجل – وباحثة البادية ستقول هذا القول فيما بعد – لأنه القوي وفي وسعه النهوض بالمرأة إلى حيث تتسع مداركها فتصبح له شريكة فإذا بها تهتف:

"فيا رجال أوطاننا! لم تركتموهن سدى"؟ "وهن بين أناملكم أطوع من قلم"؟، "فعلام ترفعون أكف الحيرة عند الحاجة كالضال المعنى، وقد سخرتم بأمرهن وازدريتم باشتراكهن معكم في الأعمال واستحننتم انفرادكم في كل معنى؟ فانظروا عائد اللوم على من يعود"؟

منذ خمس وثلاثين سنة طلبت عائشة اشتراك المرأة مع الرجل في الأعمال، ولم هذا الاشتراك؟ لأنه طبيعي "من حكم باري النسمات وموجد المخلوقات"، ولأنه الأساس الأصلي "لصيرورة مدار عمران هذا العالم على الزوجين. ولو أمكن الانفراد لخص عالم الأسرار أحدهما دون الآخر، وهو الأفضل، ولم يفقره إلى ما هو دونه. فكان التأمل في هيولي هذا الكون موجباً على الهيئة الرجولية العناية بتعليم المرأة وتهذيب لينالوا بذلك أرفع مجد وأهنأ جد، ولتعتاض الفتيات عن قلق الجهل براحة العرفان". أي ليقمن بواجبات

التدبير في منازلهن وفي شئونهن، ويأتين بالمطلوب من عطف ووقاية وحكمة نحو نفوسهن وذويهن، دون شعوذة ولا شرود عن الصواب.

إنها تقول بلغتها بالمساواة بين الرجل والمرأة، تقول بذلك تصريحاً لا تلميحاً: إذ لو أمكن الانفراد للرجل لخصه الله بالوجود دون المرأة، فهما ضروريان كل منهما للآخر، موجودان معاً تحت شمس واحدة وأحكام واحدة ليأتي كل بقسطه من واجبات متعادلة".

لقد قالت هذا في الشرق، ورأت أن يتساوى الرجل والمرأة وأن يشتركا في الأعمال، وهي محبوبة رهن جدران الخدر.. ومتى؟

في حين كان هذا يعد بدعة في أوروبا، إذ لا يفوتنا أن لفظة "ذكر" لم يتفق على حذفها من قوانين إنجلترا والاستعاضة عنها بلفظة "رجل" أو "أحد" إلا منذ سنة ١٨٥٠م. وكان ذلك مقدمة لتحرير المرأة عندهم من حيث إدخالها في الإنسانية.

تنطوي التربية على فروض كثيرة وتحتمل شتى الإيضاحات والتأويلات.

وعليها تحت قلم عائشة مزيد من الإبهام والمرونة. إلا أنها بقولها "تأديب البنات وتهذيب العائلات" يغلب عليها وجوب تنشئة الفتاة لتكون أهلاً للسهر على مصلحة الأسرة والقيام بالمطلوب في سبيل تقدمها وراحتها وهنائها، لأن في حجرها تشب الأجيال ومن كان مهيأ لإعداد الصلاح والعظماء والنبلاء وجب أن يكون على عظمة ونبل وصلاح.

والمساواة؟ هي معنى عارض في كلام عائشة، رغم أهميته بالنسبة للوقت الذي ورد فيه. أما اليوم فقد شاعت هذه الكلمة وذاع معناها لدى من يفهمه

ولدى من يزعم أنه يفهمه. ولكن أكثرية الرجال، حتى المتعلم الراقي منهم، تكهربهم هذه الكلمة وتثير سخطهم وتهكمهم، وهم لا يقرون منها ما يقرون إلا بشروط من الحصر والتقييد.

وأرى أن في إنكار المساواة على المرأة تكريماً لها، أياً كانت الصيغة واللهجة المعبر بها عن ذلك الإنكار، لعل الرجل الذي يجهده كفاح الحياة لا يريد ذلك الكفاح للمرأة، طامعاً في ادخارها للراحة والهناء والرخاء والمواساة. بل هو دليل على محبته المتلونة للألوان، وعلى احترامه ولو مسخه أحيانا بشكل الاستخفاف. أذلك الإنكار محض أنانية كما يزعمون؟ وماذا ترى لو كان ذلك؟ ومتى كانت الحياة خالية من الأنانية؟ وما أحب أنانية أحبابنا إلينا! أما الأنانية الممقوتة من القريب والغريب على السواء فهي الأنانية التي تتورم على حسابنا، ولا تجعل لحقوقنا في إحصائها قدراً وشأناً. ومن هنا منشأ كل ثورة، وكل فتنة، وكل ظلم.

إن المرأة التي تنال عوضاً عن تأدية واجباتها عطفاً وحباً، لا تثور ولا تشكو حتى لو عسرتها المسئولية، وإنما هي المرأة المظلومة من ناحية العواطف ومن ناحية المعاملة، التي نضج وتلج. يطلبون منها ألف ألف واجب، ويقيدونها بألف ألف قيد، ويرهقونها بألف ألف وقر، ومقابل ذلك، مذا؟ مقابل ذلك لا رعاية، ولا عطف، ولا محبة، حتى ولا مجاملة. مقابل ذلك أحيانا، لوم وتفنيد، إذن لماذا تحتمل؟ وفي سبيل أية غاية هي تحيا؟ لقد سن لها المجتمع، دون الرجل قانوناً للعواطف والأفكار والأعمال، وركز لها ضمن حدود الأسرة هناء القلب ومسرات الحنان. ولم تقدر تلك القوانين أن ما فرضته لها من رضا قد لا يتحقق، في حين تظل المرأة مرغمة على الواجبات الباهظة وتظل تعذبها لجاجة العيش ووخز

الحاجة. وليست كل أسرة لتقوم بتلك الحاجة المحسوسة نحو أفرادها، ولا كل رجل، زوجاً كان أو أباً، أو أخاً، ليعلم ويدرك أن الرجولة لا تقوم بترأس العائلة وبالأمر والنهي، بل بتأدية واجبات يسرها لها المجتمع قدر الإمكان ويجعلها على المرأة عسر ما تكون.

قيود واستدراكات وحدود من كل جهة في حياة المرأة. وعلى هذه المخلوقة الضعيفة أن تذعن لها جميعاً، وأن ترى فيها الفضل والبر والكمال، وأن تأتي بما لا يجب أن يهمله الرجل شرط أن تظل ضمن حدود الفضل والبر والكمال.

وللرجل كل الحرية في الحلال والحرام، في الممنوع الجائز. أيمكن أن يسكت على هذا الجور قلب يحس وينبض؟ إنه ليتأكله الجوى ويكظم عذابه إلى حين، ولكن لا بد أن يتفجر عن الأسي يوماً، لا سيما إذا رأى أنه لا منفعة له من جهاده وأن خيوط حياته تبلي عبثاً ليجني ثمرة تعبه من ليس لذلك أهلاً.

واهاً، أيها الرجال الفضلاء، أنتم الذين تسعدون النساء العائشات تحت رعايتكم، لو علمتم كل ما تمكنه الدعوة إلى المساواة من فصال مغمدة في القلوب!

لو علمتم ذلك لعملتم، ليس على نقض معاني المساواة كما تفعلون أحياناً، بل على تعديل القوانين الجائرة وجعلها صالحة لجميع أفراد المجتمع.

فهرس

قبل أن تقرأ ٥

وردة اليازجي ٩

لمحة تاريخية ١٣

ديوان حديقة الورد ١٩

شعرها ٢٣

نثرها ٤١

باحثة البادية (ملك حنفى ناصف) ٤٧

مقدمة ٤٩

باحثة البادية ٥٦

كيف عرفتها ٥٩

المرأة ٦٧

المسلمة ٨١

المصرية ٩٣

الكاتبة ١٠٣

الناقدة ١١٥

المصلحة ١٢٩

قاسم أمين وباحثة البادية ١٤٥

قاسم أمين وباحثة البادية (تابع وخاتمة) ١٦٣

بين كاتبتين ١٧٧

إلى الآنسة مي إلى الكاتبة الفاضلة الآنسة مي ١٨١

إلى الآنسة مي ١٨٣

إلى باحثة البادية ١٨٧

الساعة المفقودة ١٩١

إلى الآنسة مي ١٩٥
باحثة البادية (مرثاة) ٢٠١
تأثير باحثة البادية ٢٠٥
تأبين باحثة البادية ٢٠٧
أبرز ما قيل في كتاب باحثة البادية ٢١٣
باحثة البادية أول كتاب من نوعه بقلم مي ٢١٥
عائشة تيمور ٢٢٣
مقدمة ٢٢٥
الفصل الأول: (البارق في الظلام) ٢٢٧
الفصل الثاني: (عصر الشاعرة) ٢٣٥
الفصل الثالث: (النشأة والزواج) ٢٥٣
الفصل الرابع: (بيئة الشاعرة) ٢٧٥
الفصل الخامس: (بيئتها المعنوية) ٢٨٧
الفصل الخامس: (شاعرة بثلاث لغات) ٣٠١
الفصل السادس: (أشعارها) ٣٢١
الفصل السابع: (نثرها) ٣٤٣